أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

سورة يونس

مكية، وهي مع البسملة مائة وعشر آيات وأحد عشر ركوعا*

لقد أُمرنا في القرآن الكريم بالاستعاذة قبل أن نبدأ بقراءته. يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٩).. أي: استعِنْ بالله قبل قراءة القرآن واسأله ملاذه لمواجهة الشرور بجميع أنواعها.

والملاذ نوعان؛ أحدهما: أن لا يصيبَنا شرٌّ، والثاني: أن لا يضيع ما بأيدينا من خير. والملاذ المطلوب هنا يشمل النوعين: أي.. حَذَارِ أن يفلت ويضيع من أيديكم هذا التعليم القرآنيّ الأسمى من جرّاء مرضٍ في القلب، أو صحبةٍ شريرة، أو عقابٍ على إثم، وإياكم أن تتقاصر أفهامكم عن استيعاب سليم صحيح لهذا التعليم، فيصيبكم شرٌ وضرر.

ولكي نقوم بهذه الاستعاذة بصورة عملية علّمنا الله ﷻ دعاء: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

لقد قال البعض بأن هذه الآية تأمرنا بالاستعاذة بالله بعد الانتهاء من قراءة القرآن وليس قبلها، ومن أجل ذلك جاءت المعوذتان – سورة الفلق وسورة الناس– في آخر القرآن الكريم.

ومما لا شك فيه أنه لو استعاذ الإنسان بالله بعد الانتهاء من قراءة القرآن الكريم

* بالإضافة إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضًا إلى ركوعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وإندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي. (المترجم)

أيضا فإنه حسنٌ ومقبول، ولكنَّ الثابت من سُنّة الرسول ﷺ أنه كان يستعيذ بالله قبل قراءة شيءٍ من القرآن. وبناءً على ذلك فالآية تأمرنا أن نستعيذ قبل البدء في قراءة القرآن. لقد ورد في الحديث: "عن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي ﷺ لما دخل في الصلاة كبّر، قال: الله أكبر كبيرًا، قالها ثلاثًا. الحمد لله كثيرًا، قالها ثلاثًا. وسبحان الله بكرة وأصيلاً، قالها ثلاثًا. ثمّ "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". (السنن الكبرى للبيهقي والمصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلاة). كما ورد في أبي داود برواية أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ دعاء الاستعاذة في بداية الصلاة بعد التكبير والتسبيح والتحميد. (أبو داود، كتاب الصلاة).

وكذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ استعاذ بالله قبل قراءة الآيات النازلة في حادث الإفك". (أبو داود، الصلاة، والدّر المنثور، تحت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

ثم إن نصّ الآية لا يتعارض مع ما ذهبتُ إليه، لأن كلمة "قَرَأَ" تتضمن المعنيين: بَدَأَ القراءة، وانتهى من القراءة أيضا.

فوائد:

أ- هذه السورة مكية. والبعض يقولون إن فيها آياتٍ مَدَنية، لكنّ الواقع أن رأيهم هذا لا يستند إلى حقائق واقعية، وإنما ادّعوا ذلك قياسًا على مضامينها. ومثل هذا الرأي لا يُعتبر رأيًا يقينيًا.

ب- اسمها يونس، ولا ترجع تسميتها إلى ورود اسم يونس فيها -كما يزعم البعض- وإنما لأن موضوعها مبنيٌّ على حادثة يونس عليه السلام. واعلموا أن تسمية أيّ سورة قرآنية بأسماء بعض الأنبياء أو الأشياء ليس أمرًا اعتباطيًا وكأنه لا سبب له ولا حكمة فيه، وإنما الهدف منه التدليل على أن موضوع تلك السورة أو السور يدور حول الحادث المذكور لذلك النبي أو حول صفات وأحوال ذلك الشيء.

ج- هذا ولا يُخدَعنّ أحد بما ذُكر من عدد الآيات أو الركوعات في مستهل سور القرآن، فيظن أن رسول الله ﷺ هو الذي اختار بنفسه الركوعات وبيّن عدد الآيات على هذا النحو. كلا، وإنما وُضعت هذه الركوعات بعده ﷺ بزمن طويل. كما

اختلف العلماء أيضا في عدد آيات السور. وهذا الاختلاف يرجع إلى القواعد النحوية. فبعضهم ظنّ أن الجملة قد انتهت لدى الكلمة الفلانية، فعدّوها آية، بينما مال غيرهم إلى غير ذلك. وهكذا حصل الاختلاف لديهم حول عدد الآيات.

وهذه الاختلافات على أنواع ثلاثة أولها: أنهم اتفقوا على عدد الآيات في سورة ما، ولكنّهم اختلفوا في تحديد طول الآيات، بمعنى أن أحد الفريقين قال إن هذه العبارة تُعَدُّ آيةً واحدة، في حين اعتبرها الآخر آيتين. وثانيها: أن بعضهم اعتقد أن عدد آيات سورة ما أقل من عددها المتعارف عليه. وثالثها: أن البعض قد ذكر عدد الآيات فوق العدد المتعارف عليه. وهكذا اختلف هؤلاء العلماء في تحديد عدد آيات القرآن كلّه.

وقد استغل هذا الاختلافَ كثيرٌ من الكُتاب المسيحيين وغيرهم من أعداء الإسلام -إما جهلاً منهم أو خداعًا للآخرين- وقدّموه كدليلٍ على زعمهم أن القرآن الكريم غير مَصون ولا محفوظ. فقالوا وهم يشيرون إلى الفريق الذي ذكر عددًا أكثر من الآيات القرآنية: انظروا، لقد كان عدد الآيات أولاً كذا وكذا، ولكنّ الموجود منها في المصحف اليوم أقل من ذلك، وهذا يعني أن هناك آياتٍ ناقصة في المصحف. وهكذا قالوا بالنسبة لمن ذكروا عددًا أقلّ من عدد الآيات المعروف: أن المصحف الحالي فيه كذا من الآيات، ولكنّ القدامى ذكروا أن عددها كان كذا وكذا، وهذا يعني أن هناك آياتٍ أضيفت إلى المصحف فيما بعد.

إن هذا الزعم خِداعٌ مكشوف وكـــذب صريـــح. ذلك أن الذين ذكـــروا من بين المسلمين عددًا أكبر من عدد الآيات المعروف فإنهم لم يدّعوا قط أن المصحف كان من قبل أكثر محتوىً ومضمونًا، بل إن كل ما قالوه هو: لا تعتبروا هذه العبارة القرآنية آية واحدة، وإنما هي آيتان. أما الذين ادعوا بعدد أقلّ اعتبروا تلك العبارة نفسها آية واحدة، ولم يقولوا قطّ بأن محتوى القرآن كان أقل مما هو عليه الآن أو أن عبارات أُضيفت إليه فيما بعد. كلا ثم كلا.

فلو أخذنا -على سبيل المثال- سورة الفاتحة نجد أن بعضهم قد قال بأنها ثماني آيات، بينما قال غيرهم: إنها سبع آيات. ومن قال بثماني آيات لا يضيف إلى الفاتحة الحالية عبارة أخرى وإنما موقفهم أن البسملة آية مستقلة، وبعدها سبع آيات والمجموع

ثماني آيات. ولكنّ أصحاب الرأي الآخر لا يعتبرون البسملة آية مستقلة، وإنما يقولون هي: جزءٌ من آية "الحمد لله رب العالمين"، وبعدها ست آيات، فالمجموع عندهم سبع آيات.

إذن فبرغم اختلاف المسلمين في عدد آيات القرآن إلا أنه لا خلاف بينهم حول حجم القرآن. والاختلاف في عدد الآيات ليس في الواقع اختلافًا حقيقيًا، وإنما هو مسألة أذواق مختلفة فقط. فإذا استغله أعداء الإسلام للطعن فإنما يشكلون بذلك دليلا على غبائهم هم ليس إلا.

علاقة سورة يونس بالسور الأخرى

وقبل الخوض في بيان المطالب الأخرى لسورة يونس أودّ التحدث عن الترابط القائم بين هذه السورة والسور التي تلتها أو سبقتها. ومن تدبُّري في القرآن أرى أن كل آية من آياته مرتبطة بالأخرى من حيث المعنى. وليس هذا فحسب، بل كل سورة منه متصلة بموضوع السور التي قبلها أو بعدها. وهناك أكثر من ذلك، حيث توجد علاقة وثيقة بين مجموعة سور وبين مجموعة سور أخرى. وهكذا نجد في القرآن نظامًا وارتباطًا واتصالاً قويًا من "باء" البسملة في سورة الفاتحة وحتى "السين" في آخر حرف من سورة الناس.

يدَّعي أعداء الإسلام أن القرآن لا ترابط فيه ولا ترتيب. ولكن الواقع أن هناك ترتيبًا رائعًا وترابطًا كاملاً في جميع المواضيع القرآنية. بل إنَّ هناك عدة روابط تربط السور بعضها ببعض وبالاطلاع على هذا الترتيب القرآني لا يبقى لدى الإنسان أدنى شك في كون القرآن كلامًا إلهيًا معجزًا.

واعلموا أن لسورة يونس ثلاث روابط بموضوع سورة التوبة التي تقع قبلها في المصحف الشريف، وهي:

الرابطة الأولى: تجانُسُ واتحاد السورتين في الموضوع. فقد ذكر الله تعالى في آخر التوبة أمرين وهما: قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُون ۝ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(الآيتان:١٢٧ و١٢٨). فبيّن هنا (أولا) نـــزول الكتاب وتكذيب المنافقين له، و(ثانيا) لفت الأنظار إلى مقدم الرسول الكريم ﷺ وإلى ضرورة الانتفاع به. وهذان الموضوعان نفسهما ذكرهما على هذه الصورة تمامًا في بداية سورة يونس أيضا، موجهًا الأنظار إلى أهمية الكتاب فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ثم تحدث عن بعثة الرسول ﷺ فقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ (الآيتان ٢-٣).

الرابطة الثانية: هي أن سورة يونس تكملة لموضوع سورة التوبة. ذلك أن الله تعالى قد أشار في التوبة-التي ليست في الواقع سورة مستقلة وإنما هي جزء من سورة الأنفال- إلى أنه قد حان الآن ازدهار الإسلام، وقد شرعت الوعود الإلهية تتحقق كثيرًا وبكل قوة، فعلى الناس أن يطهروا قلوبهم ويخضعوا أمام الله تعالى، لكي تُقبل توبتهم. ولما كان البعض يشكون -لكثرة ذنوبهم- في قبول توبتهم، لذا بيّن الله تعالى في سورة يونس موضوع رحمته، وقال إن رحمتي واسعة غالبة، وأرحم عبدي كيفما كانت حالته شريطة أن يتوبَ توبة صادقة كاملة.

الرابطة الثالثة: هي تلك التي توجد بين سورة يونس وبين جميع ما قبلها من السور.

فالسُور القرآنية من البقرة إلى التوبة عددها ثمانية أو سبعة وفق تحقيقنا، لأن التوبة كما ذكرنا آنفًا ليست سورة منفصلة وإنما هي جزء من الأنفال، وجاءت منفصلة إشارة إلى عظمة معانيها. وموضوع هذه السور كلّها واحد. ثم يبدأ من سورة يونس موضوع جديد ويستمر حتى سورة الكهف. والواقع أن كلا الموضوعين مرتبط بعضهما ببعض. ففي السور الثماني الأُوَل قدّم الله للناس شخصية الرسول ﷺ، وإنجازاته العظيمة إثباتًا لصدق الإسلام. كما دعاهم لاعتناقه ببيان عقائده السامية، وتعاليمه الجميلة، وعرفانه الواسع وأوامره الحكيمة، وتأثيراته القوية الطيبة. أما مجموعة السور الأخرى -يونس وما بعدها- فقد نبّه فيها على ضرورة النبوة وأهمية الدين، وبعثة النبي ﷺ والأهداف المنوطة بمبعثه، فساق على ذلك الأدلة العقلية، مشيرًا إلى منهاج النبوة الذي جاء الأنبياء السابقون وفقًا له، مُبيّنًا دعاويهم وأحوالهم ومصيرهم.

فالموضوع واحد في المجموعتين، مع فرق واحد فقط. ففي الأولى أشار إلى الأنباء التي أنبأ بها الله في زمن النبي أو زمن الأنبياء السابقين عليهم السلام والتي تحققت في أوانها. بينما بيّن في المجموعة الثانية صدق الإسلام بصورة مبدئية، مشيرًا إلى منهاج النبوة.

ولنتذكر أن المجموعة الأولى من السور تحتوي على سور مدنية، ما عدا الأنعام والأعراف، فهما مكّيتان، وإنْ تم نـــزولهما قبل الهجرة النبوية بزمن قصير جدًا. لذلك يمكن اعتبارهُما كالسور المدنية. أما المجموعة الثانية فكلها مكية، نـــزل بعضها في منتصف الفترة المكية وبعضها قبل الهجرة بقليل. وهنا ينشأ سؤال: لماذا دُوّنت السور المدنية في المصحف قبل المكية؟ إذا كان من الأفضل والأنسب أن تُقرأ السور الأولى من القرآن نظرًا لمحتواها ومضمونها قبل السور الأخرى فلماذا لم ينـــزلها الله أولا؟

والجواب هو أن كل فعلٍ لربنا الحكيم لا يخلو من حكمة! فبما أن حاجات المخاطَبين الأوائل لأي نبيٍّ من أنبياء الله تعالى تختلف عن حاجات الذين يأتون بعدهم، لذلك دُوّن القرآن الكريم على عكس ترتيب نـــزوله. كان ترتيب نـــزوله بالنظر إلى أول المخاطَبين به، وأما ترتيب تدوينه فكان بالنظر إلى من يأتون فيما بعد. ذلك لأنه من البديهيّ أن أيَّ نبيٍّ ذي شرع جديد عندما يُعلن دعواه فلا يدور عندئذ النقاش بينه وبين الناس حول نوعية التعاليم التي جاء بها أو تحقُّق الأنباء التي كان قد تنبأ بها، لأن تعاليمه عندئذ لا تكون قد ظهرت بشكلها الكامل، كما أن موعد تحقق أنبائه لا يكون قد حان بعد، وإنما يسألونه: من هو ذلك الإله الذي جئت من عنده؟ ما هي صفاته وما هي قدراته؟ هل الوحي أمر حق؟ هل الإنسان بحاجة إلى الوحي الإلهي؟ ومن أجل ذلك يشتمل الوحي النازل عليه في بداية الأمر، على مثل هذه الأمور التي يهتم بها الناس ويثيرونها حينذاك. كما يحتوي على أنباء سوف تتحقق في المستقبل تصديقًا لدعواه، ويتضمن شيئًا من المسائل البدائية في الشريعة.

ثم يأتي زمن يدرك فيه الناس حقيقة دعواه، وينبرون لمعارضته، ويعتبرون بعثته عبثًا، ويرفضون ما يعرضه عليهم من عقائد تتعلق بذات الله وصفاته، أو أفكار حول النظام الديني. كما سيكون حينئذ أيضًا مَن يصدِّقونه مِن سعداء النفوس. حينئذ سَتَمسّ

الحاجة إلى نـــزول وحي يبين الغاية من مجيئه، ويؤكد -بتقديم شهادة التاريخ الماضي- على توافق دعواه مع السنة الإلهية المستمرة، ويسوق الأدلة العقلية على صدقه ، منبهًا الناس إلى ضرورة الاعتبار بأحوال الأنبياء ومصير أعدائهم. كما أن الوحي سيحتوي عندئذ على شيء من تفاصيل الأحكام الشرعية، موجِّهًا أنظار المؤمنين إلى واجبات ومبادئ لا بدّ لهم من إتباعها في كفاحهم ونضالهم لضمان النجاح.

بعدها يأتي زمن ينـــزل فيه الوحي الذي يكمّل الشريعة ويقدِّمها حجة على المكفّرين، مشيرًا إلى الأنباء التي قد تحققت في الفترة الأخيرة، سعيًا لإقناع المعارضين. فيقدم الوحي إنجازات النبي لكي يعرفوا بها حقيقة صدقه، فإنجازاته نفسها تصبح شهادة على أن فلاح العالم منوط الآن بتصديقه وإتباعه.

أما القوم الذين سيأتون بعد ذلك فلا يكونون جاهلين ماهية هذا الدين، بل إنهم سيجدون جماعة من أتباع النبي، وسيكونون مطّلعين إلى حد ما على دعواه، وأول ما يتساءلون عنه هو: لماذا نصدقه فيما يدّعي؟ وبماذا يمتاز تعليمه على التعاليم السابقة؟ ما هي الإنجازات التي حقّقها؟ وحينما يجدون أجوبة شافية عن أسئلتهم هذه ويدركون حقّانية الدين الجديد وصدقه فسيدخلون في مرحلة جديدة، يحتاجون عندها إلى زيادة معرفتهم، وسوف يتم لهم ذلك عندما يدركون صدقه بشكل مبدئيّ وموضوعيّ إذا ما قيس بمقياس منهاج النبوة، وبعدها يتجهون إلى فهم أمور أخرى. ونظرًا لهذا المقتضى الطبيعي نـــزل القرآن الكريم بترتيب معاكس لما تم تدوينه عليه. فقد كان ترتيب نـــزوله بحسب حاجات المخاطبين الأولين، وأما ترتيب تدوينه فكان وفقًا لحاجات المتأخرين. وهذا الأمر في حد ذاته يشكل ميزة عظيمة للقرآن تكفي لفتح عيون المتبصِّرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

هذه الآية التي تَرِدُ في مستهل كل سورة تذكِّرنا بنبوءة ذكرها موسى عليه السلام، ووردت في التوراة في سفر التثنية (١٨:١٨)، وجاءت تفاصيلها في سفر الخروج (١٩و٢٠)، وهي: قال الله تعالى لموسى أن يطهر شعبه، ويأتي بهم ليقفوا في أسفل جبل سيناء، لكي يسمعوا كيف يكلّم الله عبده موسى. هؤلاء يقفون في البداية بقرب الجبل، وعند اشتداد صوت البوق يقتربون. فصعد موسى إلى الجبل، فلما كلّمه ربه حصل برق ورعد ودخان، فخاف بنو إسرائيل ووقفوا بعيدين. ولما رجع موسى قالوا: تكلَّمْ أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب: لا تخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم، ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا. ولكن ما برح الشعب واقفين من بعيد. وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله (الإصحاح ١٩:٢٠-٢١). فقال موسى للرب: إن قومي لا يريدون الاقتراب منك. فأوحى الله إلى موسى: "قد أحسنوا فيما تكلموا. أُقيمُ لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أُوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه". (التثنية ١٨: ١٧-١٩)

تذكر هذه النبوءة أن نبيًّا مثيلاً لموسى سوف يبعث بعده، وأنه حينما سيقرأ كلام الله على الناس سوف يقول: أقرأ كلام الله هذا باسمه سبحانه وتعالى. وهذا هو معنى "بسم الله".

فالبسملة في القرآن إذًا تحذير لكل يهوديّ ومسيحيّ أنه إذا رفض هذا الكتاب فسوف يؤاخَذ بموجب نبوءة موسى هذه.

لقد كانت نبوءة صريحة الكلمات، ومع ذلك لم يفهمها اليهود ولا النصارى حتى زمن النبي ﷺ إلى أن نـــزلت البسملة في القرآن الكريم، فانكشف مغزاها. إن نبوءة موسى عليه السلام "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا

أطالبه"، تصرح تمامًا أن البسملة سوف ترد في مستهل كل كلام جديد من الوحي الذي يتلقاه ذلك النبي المثيل لموسى عليهما السلام. فورود البسملة في بداية كل سورة قرآنية كان مصداقًا لهذه النبوءة. فلا يليق إذًا بأحد أن يطعن في ورودها وتكرارها في القرآن، وخاصةً أولئك الذين ينتمون إلى موسى عليه السلام.

يعترض المسيحيون بأن البسملة مأخوذة من كتب سابقة. يقول المستشرق رُودْوِل (Rodwell) بأن هذه الكلمة يهودية الأصل (ترجمة رودول للقرآن ج ١ ص ٢٨٦). ويرى المستشرق ويري (Wherry) أنه لمن شبه المؤكد أن محمدًا قد استعارها من اليهود والصابئين، إذ كان من عادة الصابئين دائمًا أن يكتبوا في صدر كتاباتهم العبارة التالية "باسم الإله المعطي الكريم". (تفسير ويري للقرآن ج ١ ص ٢٨٩). وأما القسيس "سانت كلير تسدل" فيرى أن الجملة زرادشتية الأصل حيث كتب: قد وردت في كتاب "الدساتير الزرادشتية" قبل صحيفة كل نبي من أنبيائهم العبارةُ الآتية: "باسم الإله المعطي الرءوف الكريم" (ينابيع الإسلام، الطبعة الأردية ص١٢٧)

والعجيب أن هؤلاء الكُتّاب المسيحيين الثلاثة يذكرون ثلاثة مصادر متغايرة، تدليلاً على كون البسملة كلمة مسروقة. فهي عند أحدهم يهودية، وعند الآخر زرادشتية، وعند الثالث صابئية. والحق أن هذه الجهود المضنية التي بذلوها عبثًا للتدليل على كون البسملة مسروقة تشكل بنفسها دليلاً على اعترافهم بعظمة البسملة دون شك، وإلا لاكتفوا بالقول بأنه ليس فيها معنى يستحق الذكر.

ثم إنَّ هناك سؤالاً هامًّا يطرح نفسهُ: أيٌّ من هذه المصادر الثلاثة هو المصدر الحقيقي للبسملة؟ من الذي سرقها، وممن؟ هل اليهود سرقوها من الزرادشتيين أو الصابئين أم أن العكس هو الصحيح؟

ومما يدعو إلى الاستغراب أكثر أنهم لم يشيروا حتى إلى اسم المصدر اليهودي، كما لم يذكروا نص العبارة اليهودية المستعملة بهذا المعنى، مع أن ديانتهم المسيحية فرع من اليهودية، والكتب اليهودية تُعتبر كتبًا للمسيحيين أيضًا. كل ما فعلوه هو أنهم ذكروا عبارات منسوبة إلى كتب زرادشتية أو صابئية. ولكنها أيضًا موضع شك كبير، لأن

الزرادشتيين أنفسهم يعتبرون هذه الكتب موضوعة ومحرفة، فليس بمستبعد أن تكون كلها أو جزء منها قد وُضعتْ بعد ظهور الإسلام.

ولو سلّمنا جدلاً بصحة موقفهم، فإن ذلك أيضًا لا يمسُّ بعظمة القرآن الكريم أبدًا، لأن القرآن لا يدّعي بتاتًا أن البسملة نـــزلت لأولِ مرة في القرآن الكريم، بل إنه يعترف بوجودها من قبل، حيث يؤكد الله تعالى في سورة النمل أن الرسالة التي بعث بها سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ كانت مشتملة على "بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ".

إذن لو ثبت وجود البسملة من قبلُ في كتب اليهود أو الزرادشتيين أو الصابئين أو غيرهم فلا يضر القرآن شيئًا، لأن القرآن بنفسه يُقرُّ بأنها كانت مألوفة لدى سليمان عليه السلام. فمن الممكن أن تكون معروفة أيضًا لدى غيره من الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم. كل ما في الأمر أنها نـــزلت في القرآن باللّغة العربية، بينما نـــزلت للشعوب الأخرى بلغاتهم. ومع ذلك لا يمكن أن يُعَدّ وجودها في القرآن نقلاً أو سرقةً؛ ذلك لأنَّها جاءت في القرآن تحقيقًا لنبأ من أنباء الأنبياء السابقين. والكلام الذي يتكرر من لدن الحق تعالى لغاية جديدةٍ ولهدف معين لا يمكن أن يُعد نقلاً أو سرقةً على الإطلاق.

لقد أنبأ موسى عليه السلام بقوله هذا:

(١) إنَّ نبيًّا من إخوة بني إسرائيل أي (بني إسماعيل) سوف يُبعث.

(٢) وأنه سوف يُعطى شرعًا جديدًا كما أُعطي موسى.

(٣) وأنه كلما قرأ على مسامع الناس أمرًا إلهيا جديدًا قال: بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

(٤) وإذا حاول أحد تطبيق هذه النبوءة على نفسه كذبًا فسوف يهلك لا محالة.

(٥) ومن رفض النبي الذي جاء مصداقًا لها فسيُهلَك أيضًا.

أَخبِرونا الآن، من هو المصداق لهذه النبوءة، اللهم إلا محمـــدًا رسول الله ﷺ والقرآن الكريم، إذ وردت البسملة في بداية كل سورة قرآنية تحقيقا لنبأ موسى عليه السلام. فهل يمكن إثبات هذه الأمور في الدساتير الزرادشتية؟ هل كان مؤلفوها من بني إسماعيل؟ وهل جاءوا بشرع كالذي أتى به موسى؟ أم هل كان الوحي النازل عليهم يُستهل بالبسملة. إن "الدساتير" كتاب تاريخي فقط يشتمل على حالات الأنبياء،

ولكن النبوءة الموسوية تشترط وجود البسملة في مستهل كل وحي مستقل ينـــزل على ذلك النبي.

إذًا فبالرغم من تداول البسملة في أمم الأنبياء السابقين فإن ورودها في القرآن الكريم لن يُعدَّ تكرارًا عبثًا أو سرقةً علمية، لأن القرآن بنفسه يسلّم بوجودها قبل نـــزوله، كما أن ظهورها فيه كان تحقيقًا لنبوءة موسى عليه السلام، ولولا ذلك لبطلت نبوءته هذه.

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

تلك: اسم إشارة للبعيد.

ال: حرف للتعريف، ومن معانيها أنها إذا دخلت على اسم دلَّت على أنه أكمل وجود بين جنسه.

آيات: مفردها آية. والآية: العلامةُ والدليل، ويقال لكل كلامٍ من القرآن منفصلٍ بفصلٍ لفظي آية (تاج العروس). وأرى أن الجمل القرآنية سُميت آيات للحكمة نفسها، أي أن يدرك الناس أن مضامين القرآن مرتبة ترتيبًا كاملا، وأن كل جملة منه دليلٌ على صدق ما ورد في الجملة السابقة من معان، وأنه بدون مراعاة هذا الترتيب لن يدرك أحد المعارف القرآنية بشكل جيد. وقد سُميت بالآيات كذلك لأن كل جملة قرآنية آيةٌ من آيات الله تعالى.

يزعم المسيحيون أن القرآن لا يدّعي أنه معجزة. والحق أنه قد سمّى كل جملةً منه آية (أي معجزة)، مشيرًا إلى أنه يحتوي على معجزات كثيرة، بل إنه بنفسه معجزة عظمى.

الكتاب: مصدرُ كَتَبَ يكتُب. يقال: كَتَبَ الكتيبة (وهي الجيشُ): جمَعها. وكتب السقاءَ: خرَزه بسَيرَين (تاج العروس).. أي سد فمه بخيطين من جلد. وبهذا المعنى

يسمى الكتاب كتابًا لأنه تُجمع فيه مسائل مختلفة، ولأنه يُصنع بتجميع الأوراق بخيط وغيره. والكتابُ: "ما يُكتب فيه من مجموعة أوراق فارغة؛ ما كُتب؛ الفرضُ؛ الحُكمُ؛ القدرُ؛ والرسالةُ المكتوبة" (أقرب الموارد).

الحكيم: هو العالم؛ صاحبُ الحكمة؛ المتقنُ للأمور. (الأقرب). والمحكمُ القويُ. والحكمة: العدلُ؛ العلمُ؛ النبوةُ؛ ما يمنع من الجهالة؛ كلٌّ كلام موافق للحق؛ وضعُ الشيء في موضعه؛ صوابُ الأمر وسَداده (الأقرب). وحَكَمَ: أصلُه مَنَعَ منعًا للإصلاح، ومنه سُمّيت اللجام حَكَمةَ الدابّة؛ قال الشاعر: أَبَنِي حنيفةَ أَحْكِموا سفهاءَكم (المفردات).. أي امنعوهم من الفساد.

التفسير: ﴿الر﴾: إن المقطعات القرآنية مثل ﴿الر﴾ تتضمن أسرارًا عديدةً، منها ما يتعلق بأشخاص لهم علاقة قوية بالقرآن الكريم بحيث لا بد من ذكرهم فيه. كما تعمل المقطعات عمل القفل لمعاني القرآن، فلا يمكن لأحد أن يدركها إلا بفتحها، وبقدر ما تنفتح له هذه الأقفال يتمكن من الاطلاع على معانيها.

وإنَّ بحثي بهذا الصدد يؤكد أن معاني القرآن تتجدد بتغيّر هذه الحروف. فإذا ابتدأت سورة بحروف منها فالسور التي تليها – من غير أن تبتدئ بأَيّ مقطع من هذه المقطعات – تكون تابعةً للسور السابقة في الموضوع، وأن السور المتماثلة في المقطعات تكون متفقة في الموضوع منخرطة في سلك واحد.

وقد سبق أن بيّنت أن هناك موضوعًا واحدًا يستمر من سورة البقرة إلى سورة التوبة، وهذه السور مرتبطة بمقطع ﴿الم﴾ الذي تبتدئ به سورة البقرة. ثم تأتي سورة آل عمران فتبدأ بالحروف نفسها، أما سور النساء والمائدة والأنعام فإنها خالية من المقطعات، فكأنها جميعًا تابعة لما قبلها. بعد ذلك تبدأ الأعراف بـــ ﴿المص﴾، محتوية على ﴿الم﴾، زِيدَ في آخرها ﴿ص﴾. بعد ذلك الأنفال وبراءة خاليتان من المقطعات، فيستمر الموضوع نفسه المتعلق بـــ ﴿الم﴾ إلى براءة. أما الصاد الذي زيد في آخر مقطعة "الأعراف" فيشير إلى موضوع التصديق. إن الأعراف والأنفال والتوبة كلها تبحث في نجاح النبي ﷺ وازدهار الإسلام، لكنّ الأعراف تشير إلى موضوع التصديق بصورة مبدئية مختصرة، والأنفال والتوبة تذكرانه مفصلاً، ولذلك قد زيد حرف الصاد

في الأعراف.

ثم سورة يونس تبدأ بـــ﴿الر﴾ بدلاً من ﴿الم﴾، فبقيت "ال" على حالها لكن الراء حلت محل الميم. وهنا يتغير الموضوع، لأن البحث من سورة البقرة إلى التوبة كان من وجهة نظر علمية، ولذلك قال في البقرة ﴿الم﴾ أي أنا الله أعلم، ولكنّ البحث من يونس إلى الكهف يحمل طابع الحوادث التاريخية ويقتصر على الاستنتاج من تلك الحوادث، لأجل ذلك قال الله في سورة يونس ﴿الر﴾، أي: أنا الله أرى، وأعرضُ عليكم هذا الكلام معتمدًا على رؤيتي لتاريخ جميع أمم الأرض. فهذه السور كلها تبحث في صفة "الرؤية"، أما السور التي قبلها فتختص بصفة العلم.

أرى من المناسب أن أذكر هنا بإيجاز ما يزعمه بعض المفسرين من أن المقطعات لا معنى لها وأنها وُضعت قبل السور بدون جدوى. الحق أن المقطعات نفسها تبطل زعمهم، لأننا إذا أَجَلْنَا النظر في القرآن، وجدنا المقطعات مرتبة ترتيبًا وثيقًا. البقرة تبدأ بـــ﴿الم﴾، ثم آل عمران تبدأ بـــ﴿الم﴾، ثم النساء والمائدة والأنعام بلا مقطعات. ثم تبدأ الأعراف بـــ﴿المص﴾، ثم الأنفال والبراءة خاليتان منها. ثم سورة يونس وهود ويوسف تبدأ بـــ﴿الر﴾، ثم زيد إليها ﴿م﴾ في الرعد وجعلها ﴿المر﴾، لكن الزيادة هنا تختلف عما مضى، إذ جاء حرف الصاد في الأعراف بعد المقطع السابق الكامل، وأما هنا فكُسر المقطع ﴿الر﴾ ووضع الميم قبل الراء. فلو كانت الزيادة عن غير قصد لوضع الميم بعد الراء، لكن توسُّط الميم بين اللام والراء يدل على أن هذه الحروف تؤدي معنىً خاصًا. عندما نجد أن السور المبتدئة بـــ﴿الم﴾ متقدمة وتليها السور المبتدئة بـــ﴿الر﴾ يتضح لنا تمامًا أن الميم متقدمة على الراء من ناحية المعنى. وحينما اجتمعت هنا في سورة الرعد الميم والراء، وقدّمت الميم على الراء تأكد بأن هذه الحروف جميعها وضعت لمعانٍ خاصة، وكذلك نجد أن المتقدمة منها معنىً متقدمةٌ في الترتيب أيضًا.

ثم استُهِلَّت سورة إبراهيم وسورة الحِجر بـــ﴿الر﴾، لكن النحل والإسراء والكهف لم تستهل بالمقطعات، فكأنها تابعة في الموضوع لما قبلها. ثم سورة مريم تُفتتح بـــ﴿كهيعص﴾، وطه بـــ﴿طه﴾، ثم الأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان كلها

خالية من المقطعات، وكأنها تابعة لـــ"طه". ثم الشعراء تبدأ بـــ ﴿طسم﴾، فبقيت الطاء من (طه) على حالها وزيدت عليها السين والميم مكان الهاء. بعد ذلك سورة النمل التي تبدأ بـــ﴿طس﴾ حيث حُذفت منها الميم وبقيت ﴿طس﴾. ثم عادت سورة القصص مبتدئة بـــ﴿طسم﴾، وكأن موضوع حرف الميم أضيف من جديد إلى موضوع السورة.

بعد ذلك تبدأ العنكبوت بـــ﴿الم﴾، فتكرر فيها بحثُ علمِ الله من ناحية أخرى، ومن أجل غاية جديدة. إنني وإن لم أكن هنا بصدد بحث موضوع الترتيب، ولكني لو سُئلتُ عن تكرار ﴿الم﴾ هنا، لقلت: إن خطاب ﴿الم﴾ في السور الأولى كان للكفار، أما في العنكبوت فموجه للمؤمنين.

ثم الروم ولقمان والسجدة تبدأ بـــ﴿الم﴾. ثم الأحزاب وسبأ وفاطر بلا مقطعات، وكأنها تابعة لما قبلها. بعد ذلك سورة "يس" تبدأ بالياء والسين، ثم الصافّات بلا مقطعات. ثم سورة ﴿ص﴾ تبدأ بالصاد، وسورة الزمر خالية من المقطعات، وهي تابعة لما قبلها. ثم سور "غافر" و"فصّلت" والشورى تبدأ بـــ﴿حم﴾، لكن زيدت في الأخيرة ﴿عسق﴾. وبعدها الزخرف تبدأ أيضًا بـــ﴿حم﴾ ثم الدخان والجاثية والأحقاف كلها تبدأ بالحروف نفسها. ثم سورة محمد ﷺ والفتح والحجرات بلا مقطعات، وهي تابعة لما قبلها. ثم سورة ﴿ق﴾ تبدأ بالقاف. ثم يستمر موضوع واحد إلى آخر القرآن.

فتكرار الحروف المتجانسة، ثم حذف البعض منها وتعويض البعض الآخر .. إنْ دل على شيء فإنما يدل على أن الذي وضعها على هذه الصورة إنما فعل ذلك لغاية ما، سواء فهمناها نحن أم لا. ولو كانت قد وُضعت بدون سبب لما كانت ثمة حاجة إلى استبدال بعضها ببعض أو حذف بعضها وإضافة بعضها أحيانًا.

وعلاوة على ذلك، فإنه يُستنبط من قولٍ لمعارضي الإسلام أن المقطعات تحمل بعض المعاني. يقول هؤلاء المعارضون بأن ترتيب السور في المصحف إنما هو بحسب طولها أو قصرها. ولو سلمنا بهذا جدلاً أفلا يكون غريبًا أن السور ذات المقطعات المتجانسة قد جاءت في المصحف مجتمعة، رغم ورود السور فيه بحسب طولها على حد زعمهم. فجاءت السور المبتدئة بـــ﴿الم﴾ معًا، وكذلك التي تحمل ﴿الر﴾ جاءت

معًا، وسورة ﴿طه﴾ وما يجانسها في حروف مقطعاتها وردت أيضًا مجتمعة، والسور التي تُفتتح بـــ﴿حم﴾ جاءت معًا. فلو كان المصحف مرتبًا بحسب طول السور أفلا يعدّ عجيبًا أن المقطعات أيضًا تشير إلى طولها أو قصرها. فكل هذا يؤكد أن للمقطعات هدفًا ومغزى، وإن ظننا أنه مقتصر في إشارتها إلى طول أو قصر السور.

ولكن الواقع أن اجتماع السور ذات المقطعات المتماثلة يدل على اشتراكها في موضوع واحد، وأن المقطعات هي بمثابة المفاتيح لمعانيها. ولتحديد معاني المقطعات أرى من الأفضل أن نرجع إلى القرآن نفسه.

فقد جاءت في البقرة بعد ﴿الم﴾ آيةُ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ثم في آل عمران وبعد ﴿الم﴾ جاء ﴿اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

ومما يجب ملاحظته هنا أن ﴿لا رَيْبَ﴾ و﴿الْحَقِّ﴾ هما بمعنى واحد، فقد ذَكَرَ بعد ﴿الم﴾ في سورة البقرة قوله كتاب لا ريب فيه، وفي آل عمران أيضًا قال بعد المقطع عن هذا الكتاب بأنه نـــزل بالحق.

ثم تبتدئ سورة الأعراف بـــ ﴿المص﴾. ثم وردت بعدها آية ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهنا أيضًا ذكر الكتاب الذي صفته أن ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾، لأن قوله ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ يدل أيضًا على الميزة نفسها.

ثم تبتدئ سورة العنكبوت بعد عدة سور بمقطع ﴿الم﴾ أيضًا، ويليها قول الله ﷻ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾. هذه الآيات أيضًا تذكر كتابًا يقينيًا حقًا، لأن الاختبار لا يكون إلا لدفع الشك وإبطال الريب. فهنا أيضًا نجد البحث نفسه الذي تشير إليه سورة البقرة باختلاف بسيط هو أن الخطاب في سورة البقرة عامّ، وهنا الخطاب خاص بالمؤمنين، وقد قيل لهم بـــــأنه كيـــف يمكن أن يستحقوا معاملة المقرَّبين إذا كان الشك لا يزال يُساور قلوبهم؟

وفي سورة الروم البحث نفسه وإن كان قد أصبح غاية في الدقة. يقول الله ﷻ:

﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، أي أنَّ كلام الله قد نـــزل في الروم وسيتحقق بلا شك. وكأن الله ﷻ أشار هنا إلى جزء من الكتاب واستغنى عن الكل، وأكد تحققه بحرفَي التأكيد ﴿مِن﴾ و﴿سَـ﴾ فقال: ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ .

ثم تبتدئ سورة لقمان أيضًا بـــ﴿الم﴾، ويليها قول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وصفة الحكيم هنا أيضًا تدل على أمر يقيني، فكأنه تكرار لموضوع سورة البقرة.

بعد ذلك سورة السجدة تبدأ بـــ﴿الم﴾ أيضًا، ويليها قول الله ﷻ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. هنا أيضًا ذكر الكتاب الذي لا ريب فيه.

فهذه الآيات كلها توضح جليًا أنه كلما ذكر ﴿الم﴾ تبعها موضوع خاص يؤدي إلى علم يقيني لا يساوره ريب. فكيف يمكن مع هذه الحقيقة الناصعة بأن نتوهم ونقول بأن هذه الحروف مهملة لا تهدف إلى شيء. فالحق أن ﴿الم﴾ ترمز إلى إزالة الشك وتمكين اليقين. والشيء الذي يبطل الشك ويهب اليقين هو العلمُ الكامل الذي يدل عليه معنى ﴿الم﴾ أي "أنا الله أعلم".. والمقصود أنَّه مَن أراد استئصال الشك وإحراز اليقين فليتوجه إلى كلامي وليدرُس كتابي.

أما الآن فأتناول ﴿الر﴾. والحق أننا إذا أمعنا النظر في السور المبتدئة بهذه الحروف وجدناها تبتدئ ببحث واحد. فقد استهلت سورة **يونس** بقوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۞ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ .

ثم ورد في سورة **هود** قول الله تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۞ أَلا تَعْبُدُواْ إِلا اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۞ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

ثم في سورة **يوسف** يقول الله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ

قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

ثم في سورة **الرعد** جاء: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ۞ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾. هنا اجتمع مضمون الميم والراء.

ثم ورد في سورة **إبراهيم**: ﴿الَر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

ثم في سورة **الحجر** قال: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۞ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۞ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۞ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

إذا أمعنّا النظر في هذه المواضع معًا، تبيّن لنا أن البحث فيها يدور حول موضوعين اثنين؛ الأول: التاريخ القديم وبخاصة عقاب المجرمين، والثاني: خلق الكون. والاستفهام الإنكاري في سورة يونس ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ يدل على أن الأنبياء بين بشير ونذير لم تنقطع بعثتهم قط. وفي سورة هود يبيّن الله تعالى أن كل قوم في تطور دائم، وأنه لا بد أن يتطور في مدىً معين. وقد وضّح عند ذكره خلق الكون أنَّ تقدم العالم خاضعٌ لقانون الارتقاء.

وفي سورة يوسف تحدّث الله بصورة واضحة عن تاريخ العالم. وجمع في سورة الرعد –حين زاد الميم– بين موضوعي (الم) و(الر) وهما: إشارة إلى كلام يقيني، ولفتُ النظر إلى خلقِ الكون. ثم كرر ضرورة التوجه إلى التفكير في قوانين القدرة في سورة إبراهيم وقال: انظروا إلى العالم تجدوا فيه آثار يد الخالق الواعي. وفي سورة الحجر دعانا إلى التفكير في القانون القديم. ومن البيّن أن الكون وحوادثه المختلفة مرتبطة بالرؤية، وإنما يستطيع التحري عن الحقيقة من تحدُثُ أمام عينه ظواهرُ الكون

أو تنكشف قوانينه أمامه. فعلاقة هذه المجموعة من السور بالرؤية واضحة كما تشهد بها كلمة ﴿الر﴾ التي قيل فيها: ﴿أنا الله أرى﴾. فلا التاريخ القديم غائب عني، ولا خلق الكون وقوانينه خافية علي. فهدايتي فقط هي التي يمكن أن تغنيكم عن كل شي آخر في إدراك الحقائق المتعلقة بالرؤية.

ومما يجدر ذِكرُهُ أيضًا أن المقطعات، وإن كانت معانيها تتغير بتغير الحروف، لكنها كلها متفقة في أمر واحد، هو أن السور التي تفتتح بالمقطعات يستهل موضوعها بذكر الوحي، ومعظم هذه السور تصرح بكلمة الكتاب والقرآن، وبعضها تشير إلى سِفر قديم مثلما جاء في سورة مريم، أو إلى كلام خاص مثلما جاء في سورة الروم.

والآن نتناول تفسير بقيّة الآية:

هذه الآية مصداق تماما للمثل القائل: خير الكلام ما قل ودل. فإنها على قلة كلماتها، تتضمن معاني واسعة لدرجة أنها ترسم لنا صورة جميلة لمحاسن القرآن وكمالاته. تدبروا في معاني مفرداتها المذكورة أعلاه، لتدركوا مدى سَعة مفاهيمها. لقد بيّن الله تعالى فيها أن هذه آيات كتاب يزخر بالعلوم، يعلّم العدل، يمنع من الجهل، يستوعب الحقائق كلها، يأمر بما يتلاءم مع المقام والحال، يعلّم صلاح الناس، ويحتوي على أمور محكمة.

لاحِظوا بلاغة اللغة العربية، وانظروا كيف أعلن القرآن بكلمة واحدة عن دعاويه العديدة وأهدافه السامية، وقال: الآن يجب عليكم النظر في القرآن لتروا ما إذا كان متحليًا في الحقيقة بهذه المزايا والمحاسن أم لا؟ فإن كان بالفعل مُتسمًا بها فأي شك في أن رفضكم إياه يتنافى مع العقل والمنطق. ومَن منكم يقدر على أن يثبت أن القرآن لا يتصف بهذه المزايا؟

لقد قيل عن كلمة "تلك" إنها اسم إشارة للبعيد، فكيف جاز استخدامها للإشارة إلى آيات الكتاب، مع أنها قريبة وليست ببعيدة؟

وقد أجاب بعضهم عن هذا بقولهم: إن "تلك" هنا إشارة إلى الآيات الواردة في التوراة وغيرها من الكتب السابقة، التي تبشر بنـــزول هذا الكلام المبارك، فقال إن تلك الآيات المبشَّر بها قد أصبحت الآن جزءًا من هذا الكتاب. بمعنى أن تلك

المبشرات قد تحققت بنـــزول آيات القرآن.

ويرى الآخرون أن الله تعالى كتابًا كاملا يُنـــزل منه آيات في أوقات مختلفة، وأن "تلك" هنا تشير إلى آيات ذلك الكتاب الكامل الموجود لدى الله سبحانه وتعالى.

وقال غيرهم بأن "تلك" كما تشير إلى شيء بعيد بعدًا مكانيًا فإنها تُستخدم أيضًا للإشارة إلى ما هو بعيد في الدرجة والمكانة، وقد وردت هنا للغرض نفسه، أي تعظيمًا وإكبارًا للآيات القرآنية.

هذه المعاني كلها صحيحة ولا بأس بها، غير أني أرى أن هناك معنىً آخرَ أيضًا يشبه المعنى الأخير من بين المعاني المذكورة آنفًا، ويختلف عنها أيضا من بعض النواحي، وهو كما يلي:

يقول الله تعالى في الآية التالية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ..﴾ هل يعدون هذا الأمر غريبًا أو مستحيلاً؟ والأمر العجيب أو المستحيل هو ما يعتبره الإنسان مستبعدًا بقياساته. إذن فكأن الله تعالى يذكر أن الكفار يستبعدون المضامين القرآنية ويعدونها مستحيلة، فيقول معرِّضًا بظنونهم ومزاعمهم: إن تلك الأمور المستبعَدة والمستحيلة بزعمكم هي آيات من كتاب محكم.. أي أنها ليست عجيبة ولا مستحيلة، بل لا شيء أشدّ يقينًا وتأكيدًا منها. فكلمة "تلك" تشير إلى استبعادهم لتلك الأمور. وقد ذكر الله هذا المعنى أيضًا في موضع آخر من القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾(المعارج:٧-٨). فالإنسان إذا اعتبر الشيء عجيبًا ومستحيلا فكأنه يعتبره بعيدًا، لذلك قال الله هنا -نظرًا لظنونهم ومزاعمهم- إن ما تستبعدونه بعقولكم هو ليس كذلك، بل قد صار آياتٍ من هذا الكتاب الحكيم، وسوف تتحقق لا محالة.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا

لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

عَجَبًا: العجب: إنكارُ ما يَرِدُ عليك؛ استطرافُ الشيء؛ روعةٌ تعتري الإنسان عند استعظام الشيء. والعجبُ من الله الرضا. (الأقرب)

رجلا: الرجل: خلاف المرأة؛ الكامل في الرجولة. (الأقرب).

أوحينا: أصل الوحي: الإشارة السريعة (المفردات) وكلمة "الوحي" تطلق على كل الوسائل والطرق التي بها يخبر الله عباده بمشيئته سبحانه وتعالى. وأرى أن الله تعالى قد اختار كلمة الوحي اسمًا لكلامه لنعلم أن الأمور الروحانية لا يمكن بيانها بصورة كاملة بالكلمات، وإنما يمكن فقط الإشارة إليها. إذن فكلمة "الوحي" في حد ذاتها ترمز إلى رفعة الكلام الإلهي.

أَنذِرْ: يقال: أنذره بالأمر نَذرًا ونُذرًا ونُذُرًا ونذيرًا: أعلَمَه وحذّره من عواقبه قبل حلوله. وأنذَرَه: خوفه في إبلاغه، يقال أنذرت القوم سيرَ العدو إليهم فنذروا (الأقرب).

قدم: القَدم: الرجل؛ السابقةُ في الأمر خيرًا كان أم شرًا. يقال: لفلان في كذا قدمُ صدقٍ أو قدم سوءٍ. والقدمُ: الرجلُ له مرتبةٌ في الخير؛ الشجاعُ. ووَضَعَ القَدَمَ في عمله: أخذ فيه. (الأقرب).

صدق: يعبَّر عن كل فعل فاضل ظاهرًا أو باطنًا بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به نحو قوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أو ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ و ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ و ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (المفردات). وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ يعني أن أكسب خير الثناء ظاهرًا وباطنًا، أي لا يذكرني الناس بالخير في الظاهر فحسب، بل تبقى أعمالي الحسنة خالدةً، فلا يكون مدحهم إياي مدحًا كاذبًا.. أي لا يغالون في حبي فيقعوا في الإشراك بالله.

ويعني قوله تعالى: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ..﴾ أي اجعل دخولي في البلد وخروجي

منه حسنًا في ظاهرهما وباطنهما، بمعنى لا تشوبهما شائبة الجبن أو ضعف الإيمان، وأن تكون عواقبهما طيبة جدًا.

ساحرٌ: السحر: كل ما لطُف مأخذُه ودقّ؛ الفسادُ؛ وقيل: السحر، إخراجه في صورة الحق. وإطلاقُ كلمة السحر على ما يفعله من الحيَل حقيقةٌ لغوية، ومنه: إن من البيان لسحرًا. (الأقرب)

شأن النـــزول: لقد ذكر المفسرون في شأن نـــزول هذه الآية أن الكفار قالوا مستهزئين: ألم يجد الله رسولا إلا يتيم أبي طالب؟ فردّ عليهم بهذه الآية وقال: لا غرابة في ذلك. (الكشاف)

إن تحديد أسباب النـــزول أمر يتوقف على الأذواق دون شك، وإلا فإن الآيات القرآنية كانت ستنـــزل على كل حال. غير أننا ندرك من هذا الحادث التاريخي بأية نظرة كان الكفار ينظرون إلى رسول الله ﷺ، وكيف أنهم كانوا يختلقون أفكارًا تافهة مريضة بُغيةَ تحقيرِ وازدراءِ النبي ﷺ. لقد كان أبو طالب عمًا للرسول ﷺ، وكفّله بعد وفاة جده عبد المطلب. وما كان دافع الكفار من نسبتهم النبيَّ ﷺ إلى عمه بدلا من أبيه إلا الازدراء الشنيع، فقالوا: كيف يمكن لشخص فقير رباه غيرُ أبيه أن يُبعث إلينا نبيًا من عند الله تعالى؟ أو لم يعلم هؤلاء الأغبياء أن أبا طالب لم يكن شخصًا أجنبيًا بل كان عمًّا للرسول ﷺ، وإن الأخلاق والمثل العليا لا تحرِّم أن يتربى الولد في بيت عمه في حالة وفاة أبيه. وذلك أن الحياة العائلية إنما قوامها ذلك الميثاق القديم بأن الواحد منا لا بُدّ أن ينوب عن أخيه وقت الشدائد والمحن. أفلا يرون أن النبي ﷺ بنفسه كفّل ابن عمه عليًا ﷺ. ولو أن أبا طالب مات قبل أخيه عبد الله، تاركًا وراءه ولدًا، لرباه الأخير في بيته.

لقد كان عبد الله والد النبي ﷺ فقيرًا، ولو أن الكفار قصدوا الطعن في فقر النبي ﷺ فقط لحققوا هدفهم هذا بأن ينسبوه إلى والده الفقير، ولكنهم كانوا يرمون إلى أكثر من ذلك بقولهم " يتيم أبي طالب". كانوا يريدون القول: أهذا الذي عاش على لفاظات موائد الآخرين جاءنا اليوم ليعدَنا بالحكم والملك!؟

التفسير: يستغرب الكفار هنا من نـــزول الوحي على أحدٍ منهم. وهذا

الإحساس بالدونية يلازم الشعوب المنهارة والمنحطة المتردية. فيرون من المستحيل أن يولد بين ظهرانيهم إنسان ذو شأن عظيم. فكان الكفار قد قنطوا، لتردِّيهم وانهيارهم، لدرجة أنهم ما كانوا ليوقنوا أن الدواء الشافي موجود بين ظهرانيهم. وقد ظنوا أنه يجب أن يأتي أحد من الخارج يداويهم من الأمراض ويحقق لهم الرقي والازدهار.

وهذا بالضبط هو حال المسلمين اليوم. يقولون: سينـــزل عيسى عليه السلام من السماء لينتزعنا من حضيض المذلة والتخلُّف، ولكن ليس من الممكن أن يولد بيننا من يقدر على علاجنا من الأمراض. فما أشبَهَهم بالأمم السالفة من هذه الناحية! القنوط ذاتُه والعلاج نفسُه!!

كان العرب شعبًا لا طموح فيهم للرقي القومي، وظنوا أن لا دواءَ لدائهم اللهم إلا أن يأتيهم غريب لنجدتهم. لذا فقد أُخذوا بالدهشة الشديدة عندما أعلن أخٌ لهم من بينهم أنني أنا الذي سوف أعالجكم من دائكم، وأنا الذي سوف أرتقي بكم، وقالوا: كيف يدّعي عملَ المستحيل؟

والأمر الثاني الذي حيّرهم هو ادعاء هذا الرسول بأنه مأمور بتحذيرهم أن ينتهوا عمَّا هم فيه من فاسد الأعمال ويتبعوا الشرع الجديد. والقوم الذين تكون حالهم هذه يستغربون دائمًا عندما يقول لهم الرسول: اقضوا على نظامكم الحالي واستبدلوا به هذا النظام الجديد.

والحق أن هناك تناقضًا صارخًا بين هذين الأمرين اللّذين كانا وراء دهشة الكفار. فمن ناحية كان اليأس والقنوط قد بلغ منهم مبلغًا جعلهم يظنون أنه لن يُبعث من بينهم من يشفيهم من الأمراض، ومن ناحية أخرى كانوا يجادلون الرسول ﷺ عندما يحاول تغييرَ نظامهم الفاسد. هكذا تكون حالة الأمم المنهارة؛ لا يريدون أن يضحّوا بشيء في سبيل نجاتهم، ولا يحركون ساكنًا بأنفسهم، بل ينتظرون أحدًا من الغرباء يأتي ليحقق لهم الازدهار والرقي دون أن يغير من نظام حياتهم القائم شيئًا. إنهم لا يريدون أن يقاسوا في سبيل التعلم مشقةً وعناءً، ولا أن يبذلوا من أجل الرقي جهودًا وتضحيات، ولا أن يتخلوا عن العيوب والمساوئ التي تغمرهم، إنما يقولون: فليَأْتِ آتٍ من الخارج ويهلك عدونا لنملك كل شيء. أوَ لا يفهم هؤلاء أنه لو كان

نظامهم الحالي نظامًا صالحًا لا عيب فيه، لما وُجدوا في قعر المذلة والهوان. فلا بد إذن من القضاء على نظامهم الفاسد هذا قضاءً تامًا لتسير الأمور على ما يرام.

والأمر الثالث الذي كان يثير استغرابهم هو قول الله تعالى لرسوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. أي أعلِن بين الناس أن الذين سوف يتركون هذا النظام الفاسد ويتبعون تعاليمي هم الذين سوف يحققون الرقي والازدهار. مع أن أتباعه ﷺ (أولاً): ما كانوا في نظر الكفار أكثر منهم ذكاء وفطنة، وإنما كانوا يعتبرونهم من أراذل القوم، و(ثانيًا): كانوا يواجهون معارضة شديدة من قبل القوم الكافرين، و(ثالثًا): كانوا يدّعون عمل المستحيل في رأي الكفار، إذ لا يمكن لقوم أن يحققوا الرقي إلا بثلاث: (١) أن يكون العاملون بينهم ذوي فطنة عالية، (٢) وأن يكونوا متحدين، (٣) وأن تكون أهدافهم قابلة للتحقق. ولكنَّ الكفار كانوا يعتبرون المسلمين محرومين من هذه المزايا، لذلك كان التعجب يتملَّكهم فيقولون: كيف سيفوز هؤلاء الضعفاء في مراميهم؟ أنَّى لهم أن يقضوا على نظامنا القائم، ويأتوا مكانه بما هو أفضل منه ظاهرًا وباطنًا، فيصبحوا ملوكًا وحاكمين، ومقربين لدى الله. وقوله تعالى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يؤكد ضرورة تحقيق الازدهار بنوعيه: الروحاني والمادي، كما أشار الله به إلى فوزهم الكامل حيث نسبه إلى الله الذي بيده الفوز بكل أنواعه.

وقوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾. أي قال الكفار عند سماع ذلك: إن صاحبنا يُجيد الكلام أيضًا، حتى يُظْهِرُ الباطل في صورة الحق، ويستغل بكل مهارة ضَعف الفطرة الإنسانية، فيزرع الخوف في قلوب الضعفاء، ويغري أصحاب الجشع والحرص، لينضموا إليه.

هذا الاعتراض نفسه يثيره الكُتاب المسيحيون في هذه الأيام؛ فيقولون: إن محمّدًا ضم إليه العربَ السذج بالتخويف والإغراء. ولكن قول الكفار العرب: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ يكشف زيف اعتراض هؤلاء المسيحيين، ويبين أن العرب مع سذاجتهم المزعومة كانوا واعين ومدركين لمثل هذه الأمور، فكيف إذن انطلى عليهم خداع محمد ﷺ؟ والحق أن قلوب هؤلاء الطاعنين في رسالة محمد قد شابهت قلوب الكفار

الأولين، وإلا فأين هو ذلك الدين الذي يعلن: من صدّق تعاليمي فله الجحيم، ومن كفر بها فله جنات النعيم. الواقع أنه إذا اعتُبر الحديث عن الجزاء لمن يقبلون الحق إغراءً فلن نجد أية حقيقة ليس فيها إغراء. وماذا عسى أن يقول هؤلاء المسيحيون عن سيدنا المسيح عليه السلام الذي وعد تلميذه بطرس بمفاتيح ملكوت السماوات، وأعلن أن كلّ من لا يتبع تعاليمه سوف يُحرم من دخول ملكوت السماء، وقطع للمؤمنين به وعودًا وبشارات بأنواع الجزاء والإنعام (إنجيل متى الإصحاحات ١٤و١٨و١٩).

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

الرب: ربُّ كل شيء: مالكُه؛ مستحقُّه أو صاحبه. ربَّ الشيءَ: جمعه؛ ملكه؛ رَبَّ القومَ: ساسهم وكان فوقهم. رَبَّ النعمةَ: زادها. ربَّ الأمرَ: أصلحه وأتمه. ربَّ الدُّهنَ: طيبَّه وأجاده. رَبَّ الصبيَّ: ربّاه حتى أدرك. (الأقرب)

الله: اسمُ بارئ الوجود (الأقرب)

خَلَقَ: خَلَقَ الأديمَ: قدَّره قبل أن يقطعه. خلق الشيءَ: أوجده وأبدعه على غير مثال سبق. خلق الإفكَ: افتراه. خلق الكلامَ وغيره: صنعه. خلق الشيءَ: ملَّسه وليَّنه. خلق العودَ: سوَّاه. (الأقرب)

السماوات: السماءُ: كلُّ ما علاك فأظلك؛ سقفُ كل شيءٍ وكل بيتٍ؛ رواقُ البيت؛ ظهرُ الفرس؛ السحابُ؛ المطرُ؛ المطرةُ الجيدة؛ العشبُ.(الأقرب)

الأرض: الكرة الأرضية؛ كلُّ ما سفل(الأقرب)

أيام: اليوم: من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ الوقتُ مطلقًا. (الأقرب)

استوى: اعتدل؛ واستوى الطعام: نضج. استوى العود من اعوجاج: استقام.

استوى الرجل: انتهى شبابه وبلغ أَشُدَّه أو أربعين سنة واستقام أمره. استوى على ظهر دابة: استقر. استوى عليه: استولى وظهر. استوى له وإليه: قصده (الأقرب)

عرش: عَرَشَ عرشًا: بَنَى بناءً من خشب. عرش البيتَ: بناه. وعَرَشَ الكرمَ: رفع دواليه على الخشب. العرشُ: سريرُ الملك؛ العزُ؛ قوامُ الأمر؛ ركنُ الشيء؛ وعرشُ البيت: سقفه؛ الخيمةُ؛ البيتُ الذي يُستظل به؛ شبهُ بيتٍ من جريدٍ يُجعل فوقه الثُّمام. (الأقرب)

يدبِّر: دبَّر الأمرَ: نظر في عاقبته وتفكر؛ اعتنى به؛ رتبه ونظمه. دبَّر الوالي أقطاعَه: أحسن سياستها. دبَّر الحديث: نقله عن غيره. دبَّر على هلاكه: احتال عليه وسعى فيه (الأقرب)

الأمر: أَمَرَه: طَلَبَ منه إنشاءَ شيء أو فعله. الأمرُ: طلبُ إحداث شيء (الأقرب)

إذن: أذنَ بالشيءِ: عَلِمَ به. وأذنَ له في الشيء: أباحه له.(الأقرب)

اعبدوا: عَبَدَ له عبادةً وعبوديةً: تألّهَ له. عَبَدَ اللهَ: طاع له وخضع وذل وخدم شرائع دينه ووحّده (الأقرب)

تذكّرون: تذكَّر الشيءَ: فطن به بعد ما نسيه (الأقرب) وتذكَّرَ: قَبِلَ النصح (التاج)

التفسير: من أساليب القرآن أنه إذا نشأ سؤال حول معنى آية ما فإنه يتناول الرد عليه في الآية أو في الآيات التالية، وفي كثير من الأحيان يكون هذا الرد بدون الإشارة إلى السؤال، وهكذا ينشئ القرآن نوعًا من الترابط ما بين أفكار القارئ والمعاني القرآنية، فيشعر القارئ أن القرآن يرد تلقائيًا على كل ما ينشأ في ذهنه من تساؤلات أولاً بأول. والذين يجهلون هذا الأسلوب القرآنيّ يسارعون في مثل هذه المواقف إلى الطعن فيه قائلين بأنه لا ترابط بين آياته ولا ترتيب فيه، مع أن الخلل في الحقيقة واقعٌ في تفكيرهم هم. وهذه الآية أيضًا تتضمن الرد على تساؤل ينشأ من مضمون الآية السابقة.

لقد حملت الآية السابقة بشارةً للمسلمين أنهم سينعمون بالفوز والغلبة، وذلك في وقت كانوا مهدَّدين فيه بأمنهم وأمانهم في عقر دارهم، وهم صامدون حيال أهل مكة

جميعًا. فكان بديهيًا أن ينشأ التساؤل كيف يمكن أن يزدهروا في مثل هذه الظروف غير المواتية؟ فلا ريب أن جميع هذه الوعود والبشارات بالنصر والازدهار خداع باطل. وقد ثار هذا التساؤل فعلاً في أذهان الكفار، ولهذا سمّوا النبي ﷺ ساحرًا: أي الذي يأتي بكلام معسول خِداعًا للناس. فردّ الله تعالى في هذه الآية على تساؤلهم وقال: ليس ضروريًا أن تكون أسباب النجاح دائمًا بادية للعيان منذ أول يوم. إن العالم الروحاني مماثل للعالم المادي، ومما لاشك فيه ولا ريب أن خلق السماوات والأرض تمّ بيد الله ﷻ. فلو كان ضروريًا لمعرفة صدق الدعوة الإلهية أن تظهر أسباب تحققها فورًا وبصورة كاملة للزم أن يكون خلق السماوات والأرض قد تم في الحال. ولكنَّ الأمر ليس كذلك، وإنما قد خلقها الله على ست مراحل، وكل مرحلة منها كانت تساوي ملايين السنين، كما يكشف لنا ذلك علم طبقات الأرض (The Heavens) (ص ٤٩). فكما أن اكتمال خلقها بذرات دقيقة غير مرئية وعلى فترة طويلة جدًا لا يمكن أن يُعَدَّ دليلاً على أن الله ﷻ ليس بخالقها، كذلك هو الأمر بالنسبة للإسلام، فإن أسباب انتصار الإسلام إذا لم تبدُ جليةً منذ البداية فلا يعني ذلك أن انتصاره الكامل أمر مشكوك فيه، أو أنه ليس من عند الله ﷻ. فإن الخَلقَ الإلهيَّ يتم دائمًا بأسباب تبقى خافية عن أعين الناس.

وكلمة ﴿يدبِّر الأمرَ﴾ أيضًا تكشف أن قول الله تعالى ﴿كُنْ فيكون﴾ لا يعني أنه يكمل مشاريعه فورًا وفي لمح البصر دون أن يستغرق اكتمالها مدة زمنية. كلا، بل إن أعماله ﷻ تتم أيضًا بالتدبير.. بمعنى أنه يأتي بالنتائج المرجُوّة بتدبير دقيق خفي لأن "التدبير" يعني إحداث تغيير في الأسباب بحيث تأتي النتائج الطبيعية على ما يرام.

وأشار بقوله (ما مِن شفيع إلا بإذنه) إلى أن الشخص الواصل بالله تعالى لا يقوم ولا ينبعث بنفسه لإصلاح الناس، ولا يمكن لأحد أن يحوز على هذه الدرجة بنفسه، بل الله هو الذي يبعث الأنبياء عند الحاجة. فكيف يمكن إذن ألا يبعث الله ﷻ أحدًا لهداية الناس في هذا العصر المُظلم، ويترك عباده في متاهات لا يهتدون؟

هناك أمور في هذه الآية تحتاج إلى مزيد من الشرح، وإليكم تفصيلها:

أولاً: قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. لا يعني "اليوم" هنا اليوم الشّمسي المعروف.

فيرى مجاهد وابن حنبل وابن عباس وزيد بن الأرقم أن هذا اليوم يساوي ألف يوم عادي (ابن كثير وروح المعاني، سورة الأعراف). فإنهم يرون أن خلقها تم في ستة آلاف سنة. واستدلالهم هذا مبنيّ على قول الله ﷻ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج:٤٨).

وكما سبق أن بيّنت أن "اليوم" يعني الوقت مطلقًا، وهذا هو المعنى المراد به هنا. ذلك أن ظاهرة الليل والنهار إنما تحدث بدوران الأرض حول الشمس، بينما هذه الآية تتحدث عن زمن خلقهما، فما كان الليل والنهار موجودين عندئذ أصلاً، لذلك ليس المراد من "اليوم" هنا إلا الوقت، لا اليوم المعروف المتكون من ليل ونهار. فاستدلال هؤلاء العلماء صحيح في حدّ ذاته، ولكن تحديدهم كلمة "اليوم" في مدة ألف سنة ليس بصحيح. ذلك أن القرآن الكريم يخبرنا أيضا: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج:٥) أي أن اليوم عند الله يساوي خمسين ألف سنة أيضًا. وهكذا تصبح فترة خلق الكون ٣٠٠ ألف سنة. إنه لا يتحتّم على الله ﷻ أن يحدد لنا طول كل نوع من أيامه، فقد يكون بعضُ أيامه مساويًا لملايين السنين كما قد يساوي بعضها ألفًا أو خمسين ألف سنة. والعلم الحديث يخبرنا أيضًا أن خلق السماوات والأرض استغرق ملايين السنين. وهذا ما يؤكده أيضًا كشفٌ رآه حضرة محيي الدين بن العربي رحمه الله (الفتوحات المكية، باب رقم ٣٩٠).

فالحق أننا لا نقدر حتى الآن على تحديد هذه الفترة تمامًا، وكل ما نستطيع قوله هو إن بعض التطورات الكونية استغرق ألف سنة، وبعضها استغرق خمسين ألف سنة، وبعضها استغرق فترة أطول من هذه أيضًا.

وأرى لزامًا هنا ذكر حديث نبوي فيه بعض التفصيل عن عملية خلق الكون. "عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: خَلَقَ الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، فيما بين العصر

إلى الليل" (مسلم صفات المنافقين ، ومسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ٣٢٧). لقد ورد هذا الحديث في النّسائي أيضًا، ولكن برواية رواة آخرين (كتاب الجمعة). ولكن البخاري وبعض المحققين الآخرين يرون أنه ليس مرفوعًا، وإنما رواه أبو هريرة عن كعب الأحبار (ابن كثير).

وقد صدّق سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود ؑ ووثّق أمر ولادة آدم بعد العصر من يوم الجمعة، وقام بناءً على ذلك باستدلال هام (الخطبة الإلهامية، الخزائن الروحانية ج ١٦ ص ٢٤٧).

وقد ذكرت التوراة خلق العالم كالآتي: كانت روح الله ترف وتهتز على وجه المياه، وقال الله ليكُن نور فكان نور. ثم فصل الله بين النور والظلمة، فكان هذا يومًا واحدًا. ثم خلق الله الفضاء فوق ما بين المياه وسمّاه سماءً، وهذا كان يومًا ثانيًا. ثم تجمعّت المياه وظهرت اليابسة فصارت أرضًا، وصارت المياه المتجمعة بحارًا، ثم أنبت الله عشبًا وبقلاً، وهذا كان يومًا ثالثًا. ثم خلق الشمس والقمر والنجوم، وهذا كان يومًا رابعًا، ثم خلق الزواحف والطيور، وهذا كان يومًا خامسًا. ثم خلق البهائم والدواب والحشرات والوحوش، وفي الأخير خلق الله الإنسان على صورته وكان هذا يومًا سادسًا (التكوين: ١).

وقد شـــــرح الله ﷻ الـ﴿ستَّة أَيَّامٍ﴾ بقوله:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ من فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فُصّلتْ ١٠-١٣).

والمراد من قوله تعالى ﴿سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾ هو أن ردّنا هذا بسيط سهل بحيث يمكن أن يفهمه أي شخص عادي كما ويطمئن إلَيه علماء طبقات الأرض.

والمراد من قوله تعالى ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾ أنه تعالى أودع كلَّ سماء طاقاتٍ وأسبابًا تحقق الغاية من خلقها.

وكلمة (ثم) الواردة في قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ لم تأت لبيان ترتيب الأحداث، وإنما هي بمعنى (واو) البيانية جاءت شرحًا لما ذكر من قبل. ذلك أن المذكور بعدها، وهو السماء، كانت قد خُلقت قبل جعل الرواسي وتقدير الأقوات في الأرض.

لقد اعترض البعض قائلين بأن هذه الآية من سورة (فُصّلت) تذكر أن خلق السماوات والأرض استغرق ثمانية أيام لا ستة: خلق الأرض في يومين، وجعل الرواسي والكنوز والأغذية فيها في أربعة أيام، وخلق السماوات السبع في يومين، والمجموع ثمانية. (تفسير الرازي).

وقد رد عليهم المفسرون بقولهم بأن ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ليست أيامًا إضافية أخرى، وإنما هي أربعة بما فيها يومان تم فيهما خلق الأرض، والمراد إن خلق الأرض كان في يومين، وجعل الرواسي والأقوات فيها في يومين، ومجموعها أربعة أيام (الرازي).

هذا الرد من قِبل المفسرين وإن كان صحيحًا بالنظر إلى قواعد اللغة العربية، ولكنه لا يستقيم وفقًا لمعاني الآية كما ذكرت آنفًا، فإنها لا تتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وإنما تتحدث عن ستٍ من مدارج الخلق ومراحله حيث ذكرت أن الأرض خُلقت في يومين أي مرحلتين، ثمً في أربعة أيام أي في مراحل أربع زوِّدت بالكفاءات والقدرات اللازمة لحياة الإنسان وبقائه ورقيه فيها. وإن الآية لا تنفي أبدًا خلق أي شيء آخر بجانب خلق الأرض وكفاءاتها في هذه الفترة الزمنية الطويلة. فخلق السماء في يومين لا يعني أنها خلقت في وقت ما بعد المراحل الست الأولى، بل المراد من ذلك هو أن خلقها على صورة كاملة استغرق مرحلتين ولكنهما لم تكونا منفصلتين عن المراحل الست، وإنما خُلقت في نفس الفترة التي خُلقت فيها الأرض. فالمجموع إذن ست فترات لا ثمان. وإن علم طبقات الأرض أيضًا يؤكد على أن خلق الكون كلّه تم في فترة واحدةٍ (The Heavens). فكانت الأرض والأجرام السماوية كلها تقطع معًا مراحل استكمالها في فترة واحدة، ولا يصح القول إن الأرض خُلقت أولاً ثم جاء دور خلق الأجرام الفلكية أو أنه قد حدث العكس. كلا، بل إن الأمر هو على نحو ما يؤكده القرآن الكريم. إذ إنّه لم يذكر أي فترة منفصلة

زُوِّدت فيها الأجرام السماوية بقدراتها وكفاءاتها.

أما السؤال: كم طالت هذه "الأيام" فأقول في هذا الصدد: إن الله تعالى لم يحدد طولها، لذلك لا نحددهُ نحن، بل إن كل ما نستطيع أن نفعله هو التخمين بناءً على ما ذكره علماء طبقات الأرض من معلومات إن كانت ذات طابع يقيني، أو أن يُري الله أحدًا من عباده كشفًا من الكشوف فيأتي بقول سديد بناء على كشف الله سبحانه، وإلا فلا بد لنا من التسليم بأن خلق السماوات والأرض تم في مرحلتين عظيمتين وأن أمر طولهما في علم الله تعالى.

والحقيقة أن علماء طبقات الأرض والأفلاك يعبّرون عن كل تطور عظيم الشأن بمصطلح Period أي "الفترة" (قاموس أوكسفورد الحديث، كلمة Period)، وما يراد "بالفترة" عندهم هو نفسُ ما أراده القرآن بكلمة "يوم".

يتبين من هذه الآية وغيرها أنه قد جرت السُنَّة الإلهية في خلق الكون أن كل شيء فيه يكتمل بالمرحلة السابعة. يتم خلقه في ست مراحل ويكتمل في المرحلة السابعة.

لقد قال الله ﷻ هنا –مشيرًا إلى دعوة النبي ﷺ– إن هذا العالم الروحاني أيضًا سيكتمل في سبع مراحل. وهذا بالضبط ما قد حدث. ففي المرحلة الأولى من إعلان نبوته ﷺ كانت حالته أشبه بدخان ليس حوله إلا ظلام وضباب، وبدا وكأن بعثته سوف تضر بالعالم بدلاً من أن تنفعه، وسوف تزيده فرقة وحروبًا، وكل دعاويه كانت كالدخان حيث لم يبدُ فيها الثبات.

ثم جاءت المرحلة الثانية حينما بدأ هذا الدخان يتقلص وينكمش، وآمن به ﷺ البعض، وأدرك الناس حقيقة وعظمة دعوته.

ثم جاءت المرحلة الثالثة وأخذت التغيرات تعصف في المجتمع، فكما أن الزلازل تحصل في باطن الأرض كذلك كانت الحال في مجتمعه: هيجان وفوران. واستمرت هذه الزلازل والمحن طويلا.

ثم تلتها فترة رابعة ظهرت فيها جبال الإسلام الرواسي.. أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين. فهذه الزلازل هي التي أظهرت هؤلاء الجبال الإسلاميين، ولولاها لما ظهرت مواهبهم وما حازوا تلك الدرجات العلى.

ثم كانت الفترة الخامسة. وكمـــا أن الأرض اكتسبت قابليةً لإنبات الخضرة والنبات في مرحلة من مراحل التطور، كذلك اكتسبت التعاليم المحمدية في هذه الفترة خضرة ونضارة، وأحس الناس برونقها وبهائها، وبدأت تنتشر في شتى بقاع الأرض.

ثم جاءت الفترة السادسة. وكما أن الأرض صارت فيما بعد صالحة لولادة ذوات الحياة عليها، كذلك اكتسب الإسلام في هذه الفترة حيوية وقوة، وتمكن المسلمون من الدفاع عن أنفسهم وردّ هجمات الأعداء.

وفي الأخير جاءت الفترة السابعة: أي مرحلة التكميل. فكما أن الإنسان خُلق في آخر مراحل الخلق على الأرض وبدأ يتحكم في العالم كله، كذلك منح الله للإسلام في هذه الفترة الأخيرة قوة وغلبة وأخذت شريعته تطبَّق وحُكمه يستتب.

وأشار بقوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ إلى مماثلة أُخرى؛ فكما أن الله تعالى استقر على العرش بعد خلق الكون كذلك رجع الله إلى مقام تنـــزيهي بعد إقامة الإسلام.. بمعنى أنه تعالى قد أناط الرُّقي الروحاني بكل أنواعه بإتباع الإسلام وحده، تمامًا كما بدأت الأمور بعد ما خلق الله الكون تتم آليًا بحسب السنن الطبيعية دون أن يُحدث الله فيها أي تغيير مباشر إلا في ظروف غير عادية.

وثانيًا: قوله تعالى ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وكلمة الشفيع مشتقة من الشَفع. يقال: شَفَعَ يشفع شفعًا العددَ والصلاة: صيَّره شَفعًا.. أي أضاف إلى الواحد ثانيًا، وأضاف إلى الركعة أخرى، يقال: كان وترًا فشَفعه بآخر.. أي قَرَنه به. وناقةٌ شافعٌ: في بطنها ولدٌ آخر يتبعها. (الأقرب)

فالشفع إذن لا يعني ضم الشيء إلى شيء آخر وإن كان مخالفًا ومغايرًا له، وإنما يعني ضم الشيء إلى مثله ومن جنسه. فلا يجوز مثلاً أن يضم أحدٌ الفرسَ إلى الناقة فيقول: شفعتُ الناقةَ بالفرس. فإذا أخذنا هذا المعنى بعين الاعتبار تنحل مسألة الشفاعة، ويتأكد خطأ الذين يطعنون فيها قائلين: بأن الاعتقاد بشفاعة الرسول ﷺ لأمته يشجع الناس على ارتكاب الإثم وعلى التهاون في عمل الصالحات. كلا، فإن الشافع أو الشفيع إنما يعني الذي يضم إلى نفسه مَن هو مثله ومن جنسه. فلا تعني الشفاعة أبدًا ضم الآثمين إلى الصالحين، بل إنها تعني أن من ينصبه الله ﷻ شفيعًا سوف

يجعل من الآثمين صالحين ثم يضمهم إلى جماعات الصلحاء السابقين الكاملين. هذا المعنى ينطبق في هذا العالم.

أما المعنى الثاني فهو متعلق بعالم الآخرة. ففي يوم الحكم الإلهي النهائي عند الآخرة سيكون أناس من الأمة صلحاء إلى حد كبير ولكنهم موصومون بتقصيرات بسيطة تحول دون التحاقهم بالصلحاء الكاملين، ولكن رحمة الله سوف تقرر التغاضي عن تقصيراتهم هذه وإلحاقهم بزمرة الصلحاء الكُمَّل لما بذلوه من جهود صادقة مخلصة لاكتمال روحانيتهم، وعندها يتقدم نبيّ الأمة بإذن الله ﷻ، ليشفع لهم عند الله بأن يتفضل عليهم ويتغاضى عن تقصيراتهم البسيطة، ويدخلهم في عداد الصلحاء.

ولنتذكر جيدًا أن الشفاعة مشروطة بإذن إلهي، كما أنه لن يحظى بنعمة هذا الإذن الإلهي إلا من كان مع الصلحاء بقلبه، ومن سعى جاهدًا ليكون منهم، ولكن رغم ذلك لم تنفك بعض العيوب عالقة بـــه. فمثل هذا الإنسان لا يمـــكن أن تشجعه مثل هذه الشفاعة على ارتكاب الذنوب، بل ستحثُّه أكثر في أن ينال درجة الصلاح الكامل. فلا يجوز إذن – والحال هذه – أن يطعن أحد في مثل هذه الشفاعة.

ثالثًا: قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. لقد اختلفوا في العرش الإلهي، فيرى بعضهم أنه عرش مادي مخلوق، ويقول البعض: لا علم لنا بحقيقته، وكفانا الإيمان به فحسب. (روح المعاني)

ولقد كتب سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام بحثًا مستفيضًا لطيفًا حول العرش، وقال إنه في الحقيقة اسمٌ للصفات الإلهية التنـــزيهية (أي التي ينفرد بها الله ﷻ وحده)، التي هي صفات أزلية أبدية لا تتبدل، وتنكشف من خلال الصفات الإلهية التشبيهية (أي التي لها شبهٌ وانعكاس في أخلاق الإنسان إلى حد ما)، وهذه الأخيرة هي التي تسمّى حاملةً للعرش، بدليل قوله تعالى ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾(الحاقة:١٨).. أي سوف يحمل العرش الإلهي يوم القيامة ثمانية أركان. أي أنَّ الصفات الإلهية التنـــزيهية سوف تتجلى عندئذ عن طريق صفات تشبيهيّة ثمانٍ كما تتجلى الآن في الدنيا بأربعٍ، وهذه الأربع هي: ربّ العالمين، الرحمن، الرحيم ومالك يوم الدين. (ينبوع المعرفة، الخزائن الروحانية ج ٢٣ص٩٨إلى ٢٧٧)

وبما أن الصفات الإلهية تنكشف لنا بواسطة الملائكة فلذلك استخدم الضمير ﴿هُم﴾ بدلاً من ﴿ها﴾ فقال ﴿فوقهم﴾. وكما أن الملوك يعبرون عن جلالتهم وعظمتهم بالجلوس على العرش، فكذلك تجلت عظمته الحقيقية في كونه صاحب العرش، أي باتصافه ﷻ بصفات تنـــزيهيّة لا يشاركه ولا يشابهه فيها الخلق أدنى مشاركة أو مشابهة أبدًا.

يظن البعض أن العرش شيء مخلوق ماديّ، وذلك لفَهمهم الخاطئ لآيات من القرآن الكريم، كقوله تعالى﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(غافر:٨)، ودليلهم أن العرش مادام محمولاً فلا بدَّ أن يكون شيئًا مخلوقًا ماديًا.

والحق أن استدلالهم غير سليم، لأن "الحمل" لا يراد به دائمًا حمل الشيء المادي، بل يُستخدم أيضًا لبيان حقيقة الشيء، كقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ (الأحزاب:٧٣).

والمراد بالأمانة هنا الشريعة، ويعني قوله تعالى﴿ظَلُومًا جَهُولاً﴾ أنه كثير الظلم لنفسه وغير مبالٍ بالعواقب. وحملُه الأمانةَ إنما يعني أن يعمل بالشريعة، ليُظهر بذلك محاسنها للناس. وهكذا فإن حمل العرش يعني هنا بيان حقيقة العرش. ذلك لأنه ليس بوسع الإنسان إدراك الصفات الإلهية التنـــزيهية، اللهم إلا بواسطة الصفات التشبيهية. وهكذا تصبح هذه الأخيرة حاملةً للأولى وتساعد على إدراكها. فنحن نعلم مثلاً أن الله ﷻ جامع لكل المحاسن، ولكن لم يحصل لنا هذا العلم والإدراك إلا من خلال صفاته التي لها علاقة بالإنسان.. ككونه ﷻ ربًا، ورحمانًا، ورحيمًا ومالك يوم الدين، فكلها صفات إلهية، ولكنها صفات متشابهة، إذ يتصف الإنسان أيضًا بأخلاق مشابهة لها وإن كان ذلك في نطاق محدود جدًا، كما أن تجليات هذه الصفات الإلهية المتشابهة تكون مؤقتة، لأنها صفات يتجلى بها الله على المخلوق الفاني. ومع ذلك فلولاها لما تيسّر لنا في الحقيقة أي إدراك ولو ضئيل بكون الله ﷻ جامعًا للصفات الحسنة وكامل المحاسن.

وهناك آية أخرى يقدّمها البعض دليلاً على زعمهم أن العرش مخلوق مادي، وهي

قوله ﷻ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون:٨٨). يقولون: رب العرش يعني خالقه، فالعرش إذًا مخلوق مادي.

ولنعلم أن ربَّ الشيء لا يعني خالقه فحسب، بل يعني صاحبه أيضًا، كما يقولون: رب المال أي صاحبُه. فرب العرش يعني صاحبه.

فكلمة ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ﴾ تعني أن لله ﷻ صفات تنـــزيهية كما أن له صفات تشبيهية، وقـــــد أشار إلى التشبيهـــية منها بذكر خلق السماوات والأرض، كما أشار إلى التنـــزيهية منها باستوائه على العرش.

أما لماذا استخدم "رب العرش" بدلاً من "ذو العرش" أو صاحبه؟ فلنعلم أن في ذلك حكمةً أيضًا. إذ يظن بعض الجهال من الفلاسفة أن الله ﷻ علّةٌ للعلل فقط، وأن صفاته إنما تصدر بصورة اضطرارية تلقائية، دون أية إرادة منه ﷻ. فرد الله ﷻ على هؤلاء بإضافة صفاته (أي عرشه) إلى صفته "الرب" الدالة على التصرف والسلطان، ليُبيّن أن صفاته لا تصدر أبدًا صدورًا اضطراريًا، وإنما تتجلى كيفما تريد لها إرادته المطلقة ومشيئته الحكيمة. فالحق إن هذا الأسلوب القرآني قد جاء دحضًا لاعتراضٍ خطيرٍ، وبيانًا للنظرية الإسلامية في هذا الصدد.

والآية الثالثة التي يستدلون بها على كون العرش مخلوقًا ماديًا، قولُه تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(هود:٨) يقولون: بما أن العرش على الماء المادي فلا بد أن يكون عرشًا ماديًا مخلوقًا. والحق أن الماء هنـــا ليس ماديـــًا، إذ لم يكن له وجود قبل خلـــق السماوات والأرض، وإنما كان جزءًا منها وقد خُلق بعدها. ولو أنهم قالوا بأن العرش وُضع بشكل مادي على الماء المادي بعد خـــلق السماوات والأرض، فهذا أيضًا لن يستقيم، لأننا لا نرى أي عرش موضوع على الماء بل لا نجد آثارًا أو علامات لذلك. إن الله ﷻ حكيم وقول الحكيم لا يخلو من حكمة. فأي جدوى وحكمة من ذكر شيء لا يَمُتّ إلينا بصلة، ولا علاقة لنا به. فمثل هذا العرش المزعوم لا يكشف لنا العظمة الإلهية لأن الله ﷻ جعلنا في معزل عن إدراك حقيقته. فلا الماء هنا مادي إذًا

ولا العرش مادي. وإنما الحق أنه –في لغة الوحي والدين– يعبَّر بالماء عن كلام الله ﷻ. فالآية تعني أن العرش الإلهي موضوع على الكلام الإلهي، بمعنى أن العظمة الإلهية أكبر وأسمى من أن يُدركها العقل الإنساني، إلا أنه يستطيع إدراكها إلى حدٍ ما عندما تأخذ صفات الله التنـــزيهية –من خلال كلامه ووحيه – طابعَ المماثلة والتشابه. ومن أجل ذلك أردف ﷻ ذلك بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾. والعلاقة بين الوحي والصفات الإلهية التشبيهيّة وبين أعمال الإنسان لواضحة بينة، ولكن من ذا الذي بإمكانه أن يزعم أن عرشا ماديا غير مرئي موضوعا على الماء المادي يلعب أي دور في كون أعمالنا حسنة أو سيئة، أو يزعم أن مثل هذا البيان يعود علينا بأي نفع.

ثم إنه لزعم يرفضه العقل والمنطق السّليم أيضا، إذ إنه لمما يتعارض مع العقل تماما أن الله تعالى بعد أن خلق السماوات والأرض احتاج إلى عرش مادي! كلا، بل إن الإله الذي قدر منذ الأزل على أن يحكم الكون دون أي عرش مادي كان بإمكانه أن يحكمه أيضا في المستقبل دون أي احتياج للعرش المادي.

ولو أنهم قالوا بأنه تعالى يتبوأ هذا العرش المادي إظهارًا لجلاله وجبروته وعظمته لقلنا: إنما يتم هذا الغرض إذا كان هناك شيء يستطيع الإنسان رؤيته، وما دام العرش المزعوم غير مرئي، ولا يُرى له أثر ولا معالم، فكيف يتحقق الهدف المنشود إذًا؟

ومما يدل على أن العرش هنا يعني الصفات الإلهية التنـــزيهية قولُ الله تعالى ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: ١١٧) إذ يتبين من الآية أن للعرش الكريم علاقة خاصة بما يُثبت توحيد البارئ تعالى. وبديهيّ أن الدليل الحقيقي الحيوي على توحيد البارئ إنما يتمثل في صفاته التنـــزيهية، ذلك أن صفات الله التشبيهيّة يشاركه ويشابهه فيها أيضا المخلوقُ ولو إلى حدٍ ما، ولذلك نجد ذوي العقول السّاذجة يعانون معاناةً شديدةً في فهم قضية توحيده سبحانه وتعالى.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمنوا وَعملوا الصالحات بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ

شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

مرجع: رجع الرجل يرجع رجوعا ومرجعا: انصرف (الأقرب)

يبدأ: بَدَأَ بالشيء: افتتحه. بدأ بفلان: قدّمه. بدأ الشيءَ: أخذ فيه؛ أو قدّمه في الفعل. بدأ الشيءَ: أنشأه واخترعه. بدأ الله تعالى الخلق: خلقهم. بدأ من أرضه: خرج منها وتغرب. (الأقرب).

الخلق: الفطرة؛ الناس. (الأقرب). والخَلق: المخلوق (المفردات).

يعيد: أعاده إلى مكانه: أرجعه. أعاد الكلامَ: كرره. يقال: فلان لا يعيد ولا يُبدئ: إذا لم تكن له حيلة. (الأقرب)

الصالحات: مِنْ صَلَح الشيءُ يَصلُح: ضد فسد؛ أو زال عنه الفساد. (الأقرب)

القسط: القِسط بالكسر: العَدلُ، وهو من المصادر التي يوصف بها كالعدل، يقال:رجل قسط. يستوي فيه الواحد والجميع. والعدلُ: الحصةُ والنصيب؛ مكيالٌ يسع نصف صاع. (الأقرب)

شراب: كل ما يُشرب من المائعات أي الذي لا يتأتى فيه المضغ، حلالا كان أو حراما. (الأقرب)

حميم: الحميمُ: القريب الذي تهتم بأمره؛ الصديقُ، والجمع أحمّاء. والحميمُ: الماءُ البارد عكس الماء الحار، والجمع حمائم. والحميمُ أيضا: القيظُ؛ المطرُ الذي يأتي بعد اشتداد الحر؛ العَرقُ. (الأقرب).

التفسير: وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ تقديره: وعدكم الله وعدًا حقا. ينبّه الله تعالى في الآية على ألا يغتَرّ الإنسان بالحرية التي يتمتع بها في الظاهر، إذ لا مناص له من الامتثال أمام الله ﷻ، في آخر المطاف.

كما بيّن فيها أن أنبياء الله سيفوزون في آخر الأمر، ذلك أن الله قد خلق الإنسان ليحظى بقربه -جل شأنه- كما صرح بذلك قائلاً: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات: ٥٧) .. أي ليصبحوا عبادًا لي أنا وحدي. وإلى هذه الحقيقة

يشير بقوله هنا ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، ويعلن أن كل هؤلاء الأناس المؤمنين سيتمتعون في النهاية بقربي ووصالي، وهكذا سوف تتحقق الغاية الحقيقيّة من بعث الأنبياء.

ولقوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ مفهومان أيضًا: مفهوم دنيويّ ومفهوم أُخرَويّ. والمفهوم الأول هو أنه تعالى سوف يعيد الإنسان بعد الموت إلى الحياة مرة أخرى. والمفهوم الثاني هو أنه تعالى لا ينفك يخلق أناسًا جُددًا يحفظون جهود الصلحاء الأوائل من الضياع. ذلك أنّ أحدًا لو قام بعمل خير دون أن يخلفه أحد فمن ذا الذي سينتفع من عمله هذا. لذلك أكد الله ﷻ على أنه لا يزال يخلق خلقًا جديدًا، وهكذا ينتفع اللاحقون بما فعله السابقون.

وقوله تعالى:﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ يحتوي على سر عظيم للازدهار الفردي والقومي على سواء. لقد فسّروا عمومًا "العمل الصالح" بمعنى "العمل الحسن" ولكن ليس هذا هو الواقع، بل معناه "العمل الحسن الملائم للموقف". فليس مثلاً من الصلاح في شيء أن يصوم أحد حين خروجه لقتال العدو. إن الصيام عمل حسن لا شك في ذلك، ولكنّه لا يكون عملاً صالحًا في موقف يتطلب الخروج لملاقاة العدو، ولذلك قال النبي ﷺ في إحدى الغزوات: "ذهب المفطرون اليوم بالأجر" (البخاري-كتاب الجهاد)، ذلك لأن الذين صاموا لم يعملوا شيئا وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب ونصبوا الخيام.

والحق أن الازدهار، سواء الفردي أو القومي، لا يتحقق أبدًا بالعمل الحسن وحده، وإنما بالعمل الصالح. ولكنّ المسلمين المتأخرين نَسَوا هذا السرّ، فكانت النتيجة أنه لما كان الإسلام بأمسّ الحاجة إلى جهاد عقلي كبير من قبل أتباعه رأى زعماؤهم الدينيون الكفايةَ في جلوسهم على السجاجيد، قابعين في البيوت، محركين حبات المسابح، متغافلين عن القيام بما لابد منه لتحقيق الرقي القومي. لقد كان من واجبهم عندئذ أن يسعَوا لخلق القوة العملية في المسلمين، وإصلاحِ أخلاقهم، وحثِّهم على تحصيل العلوم الجديدة، وعلى توحيد خط عملهم. ولكنهم لم يؤدُّوا واجبهم هذا، فلم تُغنِ صَلواتهم ولا صيامهم عن الإسلام شيئًا، كما ولم تُنج المسلمين من الهلاك والدمار. ذلك أن الله ﷻ أناط وعد الفوز بالأعمال الصالحة، ولكنَّ أعمال هؤلاء

الزعماء، وإن كانت ضمن ما يأمر به الدين، إلا أنها ما كانت ملائمة للظروف والأحوال. فبما أنهم خالفوا بذلك القانونَ الإلهي تضرروا هم بأنفسهم كما وأساءوا إلى باقي المسلمين.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

ضياءً: الضوء أشد من النور في اللغة العربية، فقد جاء: الضوء لما هو بالذات كالشمس والنار، والنور لما هو بالعرض والاكتساب من الغير. والضياء: مصدرُ ضاء؛ وقيل: الضياء جمعُ ضوءٍ كسَوط وسِياط. (الأقرب)

نورًا: علاوة على ما ذُكر أعلاه من معانٍ للنور فهناك معانٍ أخرى له، فقد ورد: النور: الضوءُ أيًا كان وهو خلاف الظلمة؛ أو شعاعُه (أي شعاع الضوء)؛ المنوِّرُ كقوله تعالى:﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ الذي يُبيِّن الأشياء؛ لقبُ النبي ﷺ؛ الوسمُ، يقال: ما به نورٌ .. أي وسمٌ (وبهاءٌ) (الأقرب) وفي بلادنا أيضًا يقولون في المعنى الأخير: فلان في وجهه نور .. أي آثار بركة وشرف. فقوله تعالى ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يعني جعلها ذات ضياء، وجعله ذا نور.

قَدَّر: قدّر هنا بمعنى قدّر له أي قدر للشمس والقمر منازل (روح المعاني). وقدّر: صيّر وجعل، فالمعنى: جعل كلاً من الشمس والقمر ذا منازل، لأن الضمير (هـ) في (قدّره) يرجع إلى الشمس وإلى القمر أيضًا. والواقع أن الشمس أيضًا في حركة مستمرة، وإن لم تكن تتحرك حول الأرض كما كان القدماء يعتقدون. فقد أكدت البحوث العلمية أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، مع تأكيد العلماء على أن الشمس أيضًا في حركة مستمرة مع كواكبها ضمن إطار مقدّر محسوب، وأن الجزم

في تحديد طول هذه الحركة الشمسية أمر غيرُ يسير، فقد يكون مسار هذه الحركة طويلاً جدًا بحيث لن يقدروا تخمين مدتها ولا حتى في ملايين السنين.

يفصّل: فَصَّلَ الشيءَ: جعله فصولاً متمايزةً. فصّل الكلامَ: بيّنه.وفصَّل: ضدُّ أجمَلَ (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر الله ﷻ في قوله ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أمرًا غاية في اللطف، وهو أن سرعة حركةِ شيءٍ ما تُعرف فقط بقانون النسبة بين الشيء المتحرك وما حوله من الأشياء. وعلى سبيلِ المثال، إذا كنا مسافرين في قطار سريع تكون الأشياء حولنا في العربة متحركة أيضًا معنا بالسرعة نفسها في حين أننا لا نشعر بحركتها، ويُخيل إلينا وكأننا واقفون في نفس المكان. وهذا يعني أن كيفية الحركة وسرعتها إنما تُعرف بالنسبة، ولولا هذا الفارق النسبي لما عرفنا كيفية الحركة. وهذا ما يعلّمنا الله ﷻ بقوله هذا، إننا إنما حددنا للشمس والقمر منازل ليتيسّر لكم العلم بعدد السنين والحساب .. بمعنى أن تدركوا وتشعروا برؤية حركة هذه الأجرام خارج الكرة الأرضية أنه قد مضى عليكم زمان، ولستم حيث كنتم من قبل. فلولا هذا الفارق، أي لولا وجود جرم فلكي متحرك آخر خارج الأرض نراه مرةً في موضع وتارةً في موضع آخر، لما تولد فينا إحساس بما يسمَّى بالزمن أو الوقت. ثم لولا حركة تلك الكرة بحسب قانون طبيعي معين، أو لولا دوران أجرام أخرى حولها طبقًا لنواميس محددة لاستحال علينا تقسيم هذا الإحساس بالوقت بمقادير معينة.

فعلم التاريخ والحساب إذن منوط كله بهذين الكوكبين الشمس والقمر. أحدهما يدور بنفسه، والآخر يدور حوله أجرام أخرى. القمر يدور حول الكرة الأرضية فيمكننا بحركتِه من تقدير الأسابيع والشهور، وأما الشمس فتدور الأرض حولها محاذيةً لها، فنقدّر بذلك الأيام والسنين. كما أن علم الحساب أيضًا ذو علاقة وثيقة جدًا بحركة الأجرام السماوية.

وبذكر "السنين والحساب" نبَّهَنا الله تعالى إلى أمر روحاني لطيف ذلك أن السنين تساعد على معرفة مقدار الجهود المبذولة، وأما الحساب فيساعد على معرفة النتائج. فكل عمل يُعرَف نجاحه وفشله بطريقتين: كم بُذل فيه من جهود، وما هي النتيجة،

وبدون هذين الأمرين لا يمكن معرفة نجاح أو فشل الناس في أعمالهم. فهناك مثلاً شخص ينسج ثوبًا في سنة، بينما ينسجه غيره في ساعتين فقط. ومعنى ذلك أن الأول لا يمكن أن يبلغ شأوَ الثاني. فثبت أن نجاح أحد أو فشله في العمل إنما يُعرف بالنظر إلى ما يوجد بين الجهود والنتائج من نسبة. وكلٌّ من الأمرين ذو علاقة وثيقة بالشمس والقمر كما مرّ آنفًا. وكما أن هذين الجرمين الماديين يساعدان على علم السنين والحساب في العالم المادي، فكذلك هناك شموس وأقمار تمكّننا من معرفة السنوات والحسابات الروحانية. بمعنى أنه عن طريق هؤلاء يتولد لدى الناس شعور بالجهود والنتائج ويدركون قيمة الوقت فيما يتعلق بالأمور الروحانية. والحق أنه بدون الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أبدا أن يتولد شعور حقيقي بالعالم الدِّيني، بل يبقى الناس في غفلة عن الروحانية ومقاييسها تماما، كما هو الوضع في العالم المادي حيث يستحيل على أهله الشعور بقيمة الوقت ومعرفة مقاديره دون الشمس والقمر. انظروا إلى حال منظفي المراحيض• أو غيرهم من الطبقات الدّنيا كيف انمحى في نفوسهم الإحساس بغاية الخلق الإنساني كلية. يعيشون هكذا أراذل منذ آلاف السنين. ليس لديهم أي إحساس بالرقي المادي، ناهيك عن الإحساس بالرقي الروحاني. فإذا قيل لهم: لماذا تعيشون؟ قالوا: هذا هو قدرنا. وكأنهم يعيشون تحت تأثير ليلة مظلمة لا نهاية لها غافلين نائمين.

فالحق أن الأنبياء هم بمثابة الشموس والأقمار للدنيا. يكشفون لأهلها عما يكمن في الفطرة الإنسانية من قدرات وكفاءات هائلة للرقي والتطور. وعلى أيديهم يتلقى الناس علوم العالم الروحاني ويقفون على درجات الرقي الروحاني، فيبذلون الجهود لنيلها ويجنون الثمار. أما بدونهم فلا يقدر أهل الدنيا على تحقيق أي رقي روحاني أبدا.

وقوله تعالى﴿إلا بالحق﴾ يعني أنه لم يخلق السماوات والأرض عبثا دون غاية. فلم

• في القارة الهندية هناك طبقة من الناس لا عمل لهم منذ آلاف السنين إلا تنظيف مراحيض الناس. (الناشر)

يدفعه ﷻ فضولٌ لخلق جرم تلو جرم دون جدوى أو غاية، وإنما خلق كل هذا لهدف عظيم. فلزم إذن وجود شمس روحانية كما أن هناك شمسًا ماديةً.

والمراد من قوله تعالى ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه يبين ويشرح آياته، ولكن لا يمكن أن ينتفع بها إلا الذين يعلمون هذا النظام ويعرفون منازل الشمس والقمر، لأن الذي يجهل هذه التغيرات والاختلافات كيف يتأتّى له العلم بعدد السنين والحساب؟ فالقاعدة أن الإنسان لا يستطيع الانتفاع بشيء يجهله. كذلك لا يستفيد في العالم الروحاني أيضًا إلا الذي يحصّل العلوم الروحانية ويتدبر في حقيقتها.

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

اختلاف: اختلف القومُ: ضدُّ اتفقوا؛ اختلف زيدٌ عمرًا: كان خليفته. (الأقرب) فاختلاف الليل والنهار يعني حدوث كل واحد منهما بعد الآخر.

التفسير: قال ﷻ في الآية السابقة ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذه قال تعالى﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، وهذا الفرق في اختيار الكلمات يرجع إلى أن إدراك منازل الشمس والقمر يتطلب علمًا خاصًا ولا ينتفع به إلا علماء هذا المجال، ولذلك قال﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. أما اختلاف الليل والنهار فظاهرةٌ يعرفها كل واحد حتى منظّفو المراحيض هؤلاء أيضًا، ولكن الانتفاع بها يتوقف على التقوى، وإنما المتقي هو الذي ينتفع من ذلك. ولهذا قال: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ إذ بيّن بذلك أن كلاً من الليل والنهار نافع مفيد، وأن اختلافهما مستمر على الدوام، وأن هذه هي الحال بالنسبة للأمم والشعوب أيضًا. فتارةً يأتي عليهم زمان مظلم كالليل الدامس، وطورًا يلجون زمانًا مشرقًا كالنهار. والأمة التي يخيم عليها الليل دائما لا يمكن لها أن تتقدم وتزدهر، كما أنه ليس من سنة الله أن تتمتع أمة ما بالنهار دومًا، ذلك أن

أعمال الناس لا تكون دائمًا على مستوى واحد، بل كلما مرّ عليهم الزمن واتسعت الشُّقة الزمنية بينهم وبين نبيهم أسدلت عليهم الظلمات ستارها، تمامًا كما يخيم عليهم الليل كلما ابتعدوا عن الشمس المادية، مع أنها موجودة لم تَزُل من مكانها. فينبغي ألا تغترَّ أمة بظاهرة الليل والنهار فتظن أن كليهما قادم لا محالة. إن الرقي والانحطاط ظاهرة لا مناص منها للأمم في العالم الروحاني ومع ذلك يتحتم عليهم أن يبذلوا المساعي ليتخلصوا من الانحطاط ويحققوا الرقي. فمن الخطأ أن يترك الإنسان الكفاح والنضال لاستعادة الحياة لشعبه ظنًا منه أن الليل أمر طبيعي وسيزول تلقائيًا لا محالة. كلا، بل إن المتقين إذا رأوا الليل جدّوا في الكفاح حتى تطلع الشمس على شعوبهم. والنبي أيضًا عندما يُبعث، يرفع النداء قائلاً: افتحوا أبوابكم ودَعُوا الشمس تشرق عليكم، ولا تكتفوا بالقول بأن الانحطاط أمر يلازم الأمم دائمًا. وكأن الله ﷻ يقول هنا: الكسب والسعي يختصان بالنهار كما صرّح بذلك في قوله تعالى﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام:٦١). أي لاشك أن الليل أمر طبيعي وذو نفع للناس، ولكن لا يمكن الانتفاع بما خلق الله في السماوات والأرض بدون النهار. ثم إن معظم أعمال الإنسان ومكاسبه من زراعة وتجارة وغيرهما تتم بالنهار أيضًا. وهذا النهار يتولد من الشمس. فيا من يخاطبهم هذا الرسولُ، عليكم بإنشاء صلة بهذه الشمس الروحانية المتمثلة بشخص محمدٍ ﷺ، كي يبزغ على شعبكم النهار، ويزول عنهم الليل، أما بدون الاتصال بهذه الشمس فلن يتحقق لكم ذلك أبدًا.

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٨﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

يرجون: رجا الشيء: أمّل به؛ خافه. (الأقرب)

لقاء: لَقِيَ يلقى ولاقى يلاقي لِقاءً: استقبله؛ رآه. ولاقى يلاقي لقاءً: قابله. وفي كتاب "المغرب": قد غلب اللقاءُ في الحرب. (الأقرب)

اطمأنوا: اطمأن إلى كذا: سكن وأمن له. (الأقرب)

مأوى: المأوى مصدرُ أوى يأوي. أوى إلى كذا: انضمّ إليه؛ اسمٌ للمكان الذي يأوي إليه (المفردات)

يكسبون: كسبَ الشيءَ: جمعه. كسب الإثمَ: تحمّله. وكسب مالاً وعلمًا: طلبه وربحه. (الأقرب)

التفسير: إنه لمن مزايا وكمالات القرآن الكريم أنه يستخدم كلمات وجيزة ذات معانٍ واسعة جدًا. وبما أن اللغة العربية تُسهِم كثيرًا في تحقيق هذا الغرض فمن أجل ذلك شرّفها الله ﷻ لتكون لغة القرآن الكريم. انظروا إلى هذه الآية التي نحن بصددها فإنها توجز أسباب وقوع الكافرين في العذاب إذ يقول تعالى﴿لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾. وقد سبق في شرح الكلمات أن "الرجاء" له معنيان: الأمل والخوف. وكذلك للِّقاء مفهومان: استقبال الشخص شوقًا وحفاوة؛ أو مقابلةُ الشخص قتالاً وحربًا. والذي يمعن النظر في الفطرة الإنسانية يجد أن الرقي الإنساني بكل صنوفه منوط إما بالخوف أو الرجاء، وأن العمل الكامل الخالص إنما يحصل إما خوفًا أو رجاءً. فبعضهم يعملون آملين في مقابل وجزاء، وبعضهم يعملون خائفين من أذىً وعقاب. وقد خاطب القرآن الكريم بجملة وجيزة الفطرةَ الإنسانية بنوعَيْها. فقال للفطرة الراجية الآملة: يا من تعملين رجاءً في مقابل تتقاضينه، لماذا لا تَجِدين الأمل والشوق للقائنا، فتعملين بما يتطلبه هذا الأمر. إذا فقدت الأمل فسوف تقعين في هُوة سحيقة من التأخر والتخلف، بدلاً من التقدم والازدهار. وبالكلمات نفسها وفي الوقت نفسه يخاطب الفطرةَ الخائفة قائلا: يا من تعملين خوفًا من أذى تتوقعينه، لماذا لا تجدّين في العمل الطيب خشية عقابي لكي تفوزي بالنجاة؛ فأنت أمام محن وبلايا تفوق تحملك. وهذه هي عظمة القرآن فباستخدام كلمة وجيزة شفى غليل الفطرة الراجية والفطرة الخائفة معًا.

وبقوله تعالى ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ يوضّح وجهة النظر الإسلامية حول الرقي المادي. فالإسلام لا ينهى عن الرقي المادي، وإنما يُحذر من: **(أولاً)**: أن يرى الإنسان الكفاية في المكاسب الدنيوية فقط، ويخلو قلبه من حب الله ﷻ.

(ثانيًا): أن يكف عن التفكير في أي رقي روحاني بعد أن نال الرقي المادي، ويسكن للدّنيا ويتوقف عندها. وقد سبق أن شرحنا أن الاطمئنان الوارد في الآية يعني السكون وترك الحركة. فالمطمئن من ظن أنه قد نال بغيته المطلوبة ووصل إلى غايته المنشودة، فيتوقف عن التقدم إلى الأمام، ويتقاعس عن السعي لمزيد من الرقي راضيًا بما ناله. الواقع أن الرضا صنفان: أولهما أن يرضى الإنسان بما نال، مع طموحه وسعيه إلى كسب المزيد، والثاني أن يرضى بما كسب دون التفكير في السعي للمزيد. وهذا النوع من الرضا هو الذي شجبه الله ﷻ هنا بقوله: ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾، فقال: إن الذي يطمئن ويرضى بما كسب من مُتَع الدنيا، متغافلاً عنا، متناسيًا الرقي الروحاني الذي ينفعه في الآخرة فهو الملام والمجرم عندنا، ولا بأس بمن يحقق الرقي المادي دون أن يصاب بهذه العيوب. ذلك أن الترقيات المادية من نعم الله ﷻ أيضا، فهو الذي علّمنا بنفسه الدعاء: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، فالرقي المادي الذي يساعد المؤمن على الرقي الروحاني هو من النعم الإلهية، والدعاء لإحرازه من واجبات الإنسان.

وقد زاد الموضوع إيضاحًا في الجملة التالية حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، إذ بيَّن أن هؤلاء الذين يجلبون عليهم سخطنا هم ممن ينهمكون في الدنيا بحيث يبدءون في ازدراء كلام الله واحتقار رسله وشرائعه، ويتعامون عنها، وهكذا يغلقون في وجوههم أبواب الهداية. ذلك أن صدأ قلوبهم إنما يزول بالهداية الإلهية، ولكنهم يزعمون أنهم أسمى من أن يتبعوها، وبالتالي لا يبقى أي أمل في اهتدائهم في المستقبل أيضًا.

وهناك أمر آخر جدير بالذكر هنا وهو أن الله تعالى قد ألقى هنا الضوء بأسلوب رائع لطيف على حقيقة الإثم وعقابه، حيث بيّن أن الإثم الحقيقي الذي يعاقب عليه الإنسان هو "ما يكسبه". وكما سبق في شرح الكلمات فإن "الكسب" يعني إتيان

الأمر عمدًا وقصدًا، وجَمْع الشيء أيضا. فأشار باستخدام كلمة ﴿يكسبون﴾ إلى أمرين:

الأول: أن الآثم من يتهافت على قذارة المعصية عمدًا وقصدًا، أما إذا صدرت عن الإنسان سيئةٌ ما خطأ أو نسيانا فلن تُعد إثمًا في الحقيقة، ولن يُعتبر مرتكبها آثما حقيقيًا في مصطلح الشرع الإسلامي.

والثاني: يلزم لاعتبار الشخص آثمًا حقيقيًا أن يجمع الإثم أي أن يرتكبه على التوالي والتواتر، أما إذا لم يرتكبه بشكل متتالٍ ومتواتر وإنما صدرت منه المعصية–ولو عمدا– ولكنه بادر إلى إبداء الندامة والتوبة عنها وتركها فلن يكون هو أيضا من الآثمين. ذلك أن "الكسب" يتضمن معنى الجمع والتواتر، وبناء على ذلك فإنما الآثم المستوجب للعقوبة في الشرع الإسلامي هو من ارتكب الجريمة عمدًا وأصر على ارتكابها غير تائب عنها.

وقد شرح الله هذا الأمر في آية أخرى أيضًا إذ قال ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم: ٣٣) أي سوف يصفح الله عن الذين يجتنبون المعاصي الكبيرة والعيوب الواضحة الفاضحة، اللهم إلا أن يقعوا فيها مرة ثم يقلعوا عنها نهائيا، فان ربك لذو مغفرة واسعة.

وأما العقوبة فقال عنها: ﴿مَأْوَاهُمُ النُّارُ﴾، والمأوى – كما مر آنفًا – هو المكان الذي يلوذ به الإنسان. ويتعجب المرء كيف أن الله تعالى يسمي النار هنا مكانًا يلوذ به هؤلاء العصاة، ولكنه يُدرك بقليل من التدبر أن الله تعالى قد وضّح بهذه التسمية حقيقة العقوبة الإلهية. فإن عقاب الله لا يهدف في الواقع إلى إيذاء العاصي وإنما إلى علاجه وشفائه. وكما أن الإنسان يكره في بداية الأمر الأذى الذي يصيبه عند العلاج ولكنه يرغم نفسه على تحمله وقبوله حينما يدرك أنّ هذا خير له في عاقبة أمره، كذلك حقيقة العذاب الإلهي عندما تنكشف على العصاة تماما فسوف يعتبرون النار التي يُلقون فيها مأوىً لهم: أي ملاذا ومنجىً من العذاب الحقيقي الذي هو سخط الله والحرمان من قربه سبحانه وتعالى. فباستخدام "المأوى" صرّح أن العقاب الإلهي ليس للإيذاء وإنما هو وسيلة للتطهير، وهو الوسيلة الوحيدة لتطهير العصاة ونجاتهم.

وقد أطلق على عذاب الآخرة اسم النار أيضا لأن العالم مجموعة لنوعين من الظواهر: نوري وناري. فالتعلق بالله تعالى يهدي الإنسان إلى النور الذي يجلب له الفرحة وقرة العين، وأما التهافت على الدنيا فيدفعه إلى النار. وبما أن السيئة تؤدي إلى النار لذلك أُعدَّ لمرتكبها مكانٌ مشابهٌ لها.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

تحت: "تحت" مقابل لفَوْقَ. و"تحت" يُستعمل في المنفصل، و"أسفل" في المتصل، يقال: المال تحته، وأسفله أغلظ من أعلاه(المفردات) وقد يُستعمل "تحت" بمعنى أسفل. والتُحوتُ: أراذلُ الناس والأتباع والخدم. وفي الحديث: "لا تقوم الساعة حتى يظهر التحوت" (كنـــز العمال، القيامة). أي لن تقوم القيامة حتى يتقوى الفقراء والعمال ويستولوا على الحكومات. وزمن اقتراب القيامة هو زمن المسيح الموعود عليه السلام فالحديث يشير إلى الحركة البولشوفيكية، ومعناه أنه لن يظهر المسيح الموعود إلا عندما يتغلب العمال وأصحاب الحرف على الرأسماليين ويستولون على الحكم ويصبحون ملوكًا وحكامًا.

ونظرًا إلى هذا المعنى فإن قوله تعالى ﴿مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ يعني أن تلك الأنهار سوف تكون ملكا لهم وتحت تصرفهم، لأن أعمالهم كانت أيضا من عندهم. فلن يضايقهم فيها أحد كما يحدث في هذه الدنيا حيث يسلب موظفو مصلحة الري أصحاب الأراضي مثلاً، أو يجبون منهم الضرائب للحكومة. كلا، بل ستكون هذه الأنهار ملكًا لهم.

النَّعيم: يقولون عمومًا عن كلمة النعيم بأنها جمع نعمة، وهذا خطأ، وإنما معناها: العطية؛ (الأقرب) والنعيم أيضًا: النعمةُ الكثيرة (المفردات).

التفسير: لقد بيَّن الله هنا أن الهداية الحقيقية إنما تُكتسب بالإيمان، وأن العمل وحده لا يجدي فتيلا إذا لم يصلُح القلب معه. فلو كان أحد عازما على السرقة مثلاً دون أن يتمكن منها فإنه لن يُعد أمينا. كذلك لو خاف أحد في الحق غيرَ الله فإنه وإن لم يسجد لهذا المخوف سجودًا ظاهريًا فلن يُعَدَّ من الموحدين الصادقين.

هناك بعض الجهلة الذين يزعمون أن الإسلام لا يؤيد ولا يحض على الأعمال الصالحة، وإنما يرى الكفاية في التركيز على الإيمان. هذا ليس صحيحا أبدًا. إن ما يؤكد عليه الإسلام هو أنه يجب على المرء–إلى جانب العمل– تزكيةُ القلب وتطهيره أيضا. إذا لم يكن المرء ذا قلب طاهر ولا يتفق باطنُه مع عمله الظاهر فلن يجديه الإيمان. وأي عاقل هذا الذي يرفض الحقيقة الناصعة أن الطهارة الحقيقية إنما هي طهارة القلوب والأفكار. إذا تطهر القلب وصفا فمن المحال ألا تتبعه الأعمال. يمكن أن يأتي المرء بأعمال تتعارض مع ما في قلبه من عقيدة –خوفا من الناس– ولكن لا يمكن أبدا أن يغير ما في قلبه من أفكار وعقائد خشية منهم، إذ لا قدرةَ ولا سلطان لأحد على ما في قلوب الآخرين، بل إن القلوب أسمى وأعتى من أن يسخرها أحد وإن كان من الجبابرة الطغاة. ومن أجل ذلك أناط الله سبحانه وتعالى نجاة الإنسان بالشيء الذي تحت تصرفه وسلطانه هو وحده، ولا أحد يمكن أن يتدخل فيه.

وأشار بقوله ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ أيضا إلى أن الجزاء يكون بحسب الإيمان بمعنى أنه من الممكن أن يتساوى اثنان في العمل الظاهر، ولكنهما يتفاوتان في نيل الجزاء نظرًا لما في القلوب من إخلاص وحب للعمل. وهذه حكمة عظيمة. وقد قال النبي ﷺ لأصحابه عن أبي بكر ﷺ إنه يفضُل عليكم لما في قلبه. كما نجد في الدنيا أيضًا أن البعض يكون أكثر صومًا وصلاة من غيره، ولكنَّ هذا الأخير يكون أوسع منه موردًا للأفضال الإلهية. وإن مرجع ذلك إلى ما في القلب. فالذي يكون أكثر طهارةً وأصدقَ إخلاصًا ينال أجرًا أكبر على عملٍ أقلَّ في الظاهر. ذلك أن أعماله كلها تصبح في الواقع عبادةً لله تعالى، لأن أعماله الدنيوية في الظاهر تكون أيضا من أجل الله تعالى، ولأن الشفقة على خلق الله تكون هي الدافع وراء كل حركة وعمل منه.

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

دعوى: الدعوى تأتي بمعنى النداء يقال: دعاه دعاء و دعوىً: ناداه (الأقرب).

تحية: التحية السلام يقال حيّاه تحيةً: سلّم عليه بقوله: سلام عليك؛ البقاءُ؛ والسلامةُ من الآفات؛ المُلك، وذلك أنهم في الجاهلية كانوا إذا تقلّد أحدهم الإمارةَ والملكَ قالوا: نال فلان التحيةَ أي التحية المختصة بالملوك وهي قولهم: أبيت اللعن (أي وقاك الله مما يعرضك للطعن والهزيمة). والتحية من الله الإكرام والإحسان (الأقرب)

سلام: السلام اسمٌ من التسليم؛ الاستسلامُ للانقياد والطاعة. والسلام اسم من أسماء الله لسلامته من النقص والعيب والفناء. (الأقرب)

التفسير: تذكر الآية (أولاً) أن المؤمنين عندما ينالون النعم في الآخرة سَيُسَبِّحون بصورة عفوية﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، بمعنى ربنا أنت منـــزه من كل عيب وبريء من كل نقص. (وثانيا) أنهم سوف يتبادلون تحية "السلام عليكم"، أو يتلقون من الله تعالى تحية السلام. (وثالثا) أنه سوف يكون آخر كلامهم: الحمد لله رب العالمين.

وأما نداؤهم ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ بمجرد وصولهم الجنة فذلك إنّما يكون لأن حقائق الأشياء ستنكشف عليهم عندئذ. مما لا شك فيه أن المؤمن يسبح ربه هنا في الدنيا أيضا، ولكن هذا التسبيح يكون عن اعتقاد لا عن تجربة. إذ إنه يسبّح ربه مثلاً عندما يرى قشر فاكهة مع أنه قد يساوره الظن أن لا فائدة من هذا القشر، أو حينما يجد حشرة قد وصلت إلى فراشه دون أن يدرك الحكمة من وراء وجودها هناك، أو حين يرى في البرية أعشابا ذات أشواك وبدون أشواك دون أن يعرف الحكمة في ذلك. فبما أن القياس يؤدي بنا في هذه الدنيا إلى الاعتقاد بأننا ما دمنا نجد حِكَمًا إلهيّةً في

بعض الأشياء فلا بد من وجودها في أشياء أخرى وإن لم ندركها، كما أنّ كلام الله الحق يؤكد لنا براءة الله من كل عيب ونقص.. فلذلك كله نحن نؤمن بوجود حِكم في آلاف الأشياء التي لم نطلع على الحِكَم الموجودة فيها، و نردد التسبيح عند رؤيتها. ولكن التسبيح الذي سوف نردده في الآخرة سيتم عن بصيرةٍ وخبرة. هنالك سوف يتبين لنا تماما أن كل شيء في الدنيا مهما حقُر، وكل حادث مهما ضَؤُلَ كان وراءه سبب وهدف، وكان له وقع وتأثير فيما كان يحصل لأهل الدنيا من رقي أو انحطاط وما كان يلحق بهم من نفع أو ضرر. ولما كانت أعمالنا التي نقوم بها في الدنيا سوف تتجسد لنا في الآخرة فلا بدَّ أن تنكشف عندئذ لكل واحد منا حقيقة كل أمر خفي من هذا العالم المادي وسوف نقر، بناء على علم وبصيرة، أن كل شيء بل كل حركة في الدنيا كانت لهدف وغاية، فلن يلبث أن يندفع هاتفًا ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

ثم إن كلّ ما يصيب الإنسان من أذىً وضرر في الدنيا إنما سببه هو عدمُ اطلاعه على حقائق الأشياء. فإن الزرنيخ مثلاً سُمٌ فيه شفاء من الأمراض، ولكن الذين لا إلمام لهم بعلم الطب قد يتعرضون للأذى إثر تناولهم كمية منه دون علم ودراية. أو خذوا النار مثلاً فإنها تنفع في إعداد الطعام، ولكن الصبي الجاهل بمواصفاتها قد يعبث بها ويضرّ نفسه. وباختصار فإن أنواع الأمراض مرجعها الجهل بحكمة الأشياء وحقائقها. أما في الجنة فكل الحقائق سوف تنكشف وكل الحِكَم سوف تتجلى، ولذلك سينعمون فيها بسلامة حقيقية، لأنهم بمعرفة حِكَم الأشياء سوف يتفادون أضرارها، ويتخلصون من المصائب والآفات، وعليه فإنهم بعد انطلاقهم التلقائي بالتسبيح عن علم وبصيرة لدى انكشاف حقائق الأشياء عليهم في الآخرة لن يلبثوا أن يقولوا: هذا المكان سلام في سلام. ذلك أنهم بسبب إدراكهم حقائق الأشياء إدراكا كاملا سوف يتجنبون استخدامها الخاطئ وسينتفعون بها بطريق سليم.

وبما أن السلام والأمان سيسودان في الجنة فسيبادرون إلى حمد الله أيضًا قائلين:الحمد لله الذي شَرَّفَنا بهذه الدرجة حيث أحرزنا المحاسن والكمالات جميعًا فلا

تأتي أعمالـــنا إلا بنتائج طيبة فحسب.

ولو سُئلتُ: لماذا قال هنا ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يكتف بقول ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ﴾ فإنه يفي بالغرض أيضا، فالجواب: إن زيادة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كانت لأسباب مختلفة منها أن الاطلاع على حِكم جميع الأشياء وإفادة الآخرين بها إنما هو ما يخص الله تعالى وحده العالِم بضرورات كل عالَمٍ من العوالم. فلو عانى أحد مثلاً من الحرارة العالية في بلد حار واشتكى من أذاها فإنما يشتكي لأنه لا يعلم أن تلك الحرارة ذات نفع كبير لآلاف من الأشياء الأخرى. ولكن الذي يدرك ذلك هو رب العالمين، الذي له علاقة وثيقة بكل شيء، والذي يسد حاجات كل الموجودات. فالمؤمنون عندما يطّلعون في الآخرة على حقائق كل الأشياء وحكمها يعلنون ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي لا جرم أنه ما كان لنا أن نعرف حقائق الدنيا بعلمنا المحدود وإنما رب العالمين الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة، هو وحده قادر على أن يحيط بعلمه حقيقة كل شيء. فالحمد لله رب العالمين.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

استعجال: استعجله: حثّه؛ أَمَرَه لأن يعجل؛ طَلَبَ عجلته ولم يصبر إلى وقته. ومنه: "مر فلان يستعجل" أي يكلف نفسه العجلة؛ واستعجل فلانا: سبقه وتقدمه. (الأقرب)

الخير: هو وجدان الشيء على كمالاته اللائقة؛ المال مطلقا؛ الخيل؛ الكثيرُ الخيـــرِ.

(الأقرب)

قُضِيَ: قَضَى إليه الأمر: أنهاه وأبلغه (الأقرب) قضى إليه الحديثَ: أسمعه إياه، وقضى إليه الشيءَ: أوصله إليه. فالمراد من (قُضِيَ إليهم أجلهم) أُوصِلَ إليهم أجلُهم أي موتهم.

أجل: الأجلُ: مدةُ الشيء ووقته الذي يحل فيه، يقال: ضربت له أجلاً (الأقرب).

طغيان: طَغِي يطغى وطغى ويطغِي طُغيانا وطِغيانًا وطغىً: جاوز القدرَ والحد.طغى الكافرُ: غلا في الكفر. طغى فلان: أسرف في المعاصي والظلم. طغى الماءُ: ارتفع. (الأقرب)

يعمهون: عَمِهَ الرجل: تردد في الضلال، وتحير في منازعة أو طريق. وقيل: العَمَهُ أن لا يعرف الطريق فهو عامِهٌ وجمعه عُمّهٌ، وعَمِهٌ للمبالغة وجمعه عَمِهون، يقال: عَمِهَ في طغيانه وتعامَهَ. وعن الزمخشري: العَمَهُ كالعَمى غير أن العَمى عام في البصر والبصيرة والعَمَهُ خاص بالبصيرة، فلا يقال: أَعْمَهُ العين. (الأقرب).

فمعنى قوله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هو أنهم مترددون في طغيانهم وغَيّهم وسوف يبقون هكذا وأنهم متحيرون في أمرهم على الدوام.

التفسير: لقد اختلف المفسرون كثيرا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ فقال بعضهم معناه: لو عجل لهم الشر كما هم يطلبون الشر لقُضي عليهم وهلكوا (الكشاف). ولكن هذا المعنى لا يستقيم مع العقل والمنطق، إذ لو كانت كلمة (الخير) هنا بمعنى (الشر) كما يفسرونها، لاستخدَمَ الله هنا كلمة الشر لا الخير.

إن الصعوبة التي تواجه المفسرين تكمن في أنهم يقولون: ما دام الناس يطلبون من الله الخير فكيف يمكن أن يقابلهم بالشر، وإنما لا بد من أن يقابلهم بالخير والإنعام طالما يريدون هم خيرًا.

الواقع أنهم قد وقعوا في هذه المشكلة لأنهم لم يتدبروا كما ينبغي في كلمتي الخير

والاستعجال، فلو أنهم أخذوا (الخير) بمعنى المال مطلقًا لحُلت المشكلة، لأن الآية ستعني عندئذٍ: أن هؤلاء الذين يجمعون الأموال الدنيوية في عجلة وانهماك متناسين ربهم، ولو تعجل ربهم أيضا في عقابهم على جريمتهم هذه لقضى عليهم فورًا، ولكنه تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى صوابهم ويتوبوا ويصلحوا ما بهم إذا أرادوا. وهذا المعنى مستقيم لا اعتراض عليه. فمن كان جَمعُ الأموال هو جلّ اهتمامه في هذه الدنيا فإنّما يثير غضب الله عليه، دون أدنى شك.

كما يمكن أن تفسَّر الجملة بمعنى آخر وهو: أن الله يستعجل الناسَ بالخير ويسبقهم في المعاملة بالخير والحسنى، ولو أنه سارع مثلهم بالشر والعذاب لقُضي عليهم وانتهى أمرهم، ولكنه يستعجلهم في أمر الخير فقط بينما يعاملهم على مهل في أمر العذاب. وفي هذه الصورة سيُعتبر الضمير (هم) في ﴿اسْتِعْجَالَهُم﴾ في حالة المفعولية، وأما عند اختيار المعنى الأول فسيعتبر الضمير في حالة الفاعلية. وكلا الاعتبارين جائز وصحيح بحسب قواعد اللغة العربية. ولو أخذنا بالمعنى الأول فسيعني قوله تعالى ﴿اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ أن هؤلاء لا يجدون الفرصة للتوجه إلى الله تعالى لشدة انهماكهم في جمع مُتع الدنيا في عجلة وسرعة. فالذي يكون على عجلة من أمره لا يبالي بأحد مطلقا، ولو حاول غيره لفت نظره إلى شيء آخر لما اكترث بقوله.

هذه الآية جاءت في الواقع ردًا على تساؤل نشأ في خَلَد الكفار بأن محمدا ﷺ إذا كان نبيًا صادقًا فلماذا إذن لا يعذبنا الله ويقضي علينا؟ فقال الله تعالى: نعم، سيأتي العذاب حتمًا، ولكنّا نمهلكم عسى أن يقبل الحق من كان من نصيبه قبوله.

ولقد ذكرتُ من قبل أن من أساليب القرآن أنه يحذف السؤال في معظم الأحيان مكتفيًا بالإشارة إليه في الجواب، وهذه الآية خير مثال لذلك، فهي صريحة الدلالة على أن قول الله ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ﴾ وما يليه من الآيات ردٌ على تساؤل الكفار: لماذا لا يقضي الله أمرنا بعجلة؟ وبقوله ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وضح بأننا لو عجلنا

في صبّ العذاب عليهم للبثوا في طغيانٍ وعَمَهٍ بسبب هلاكهم على الضلال. ولكن ليس هذا هو دأبنا، إنما نريد هدايتهم، فلا نؤاخذهم على الفور لننقذ من يمكن إنقاذه.

وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

المسرفين: أسرف مالَه: بذَّره؛ وأسرف في كذا: جاوز الحدَّ فيه وأفرط؛ أخطَأَ؛ جهلَ؛ غفلَ (الأقرب).

التفسير: هذه الآية تتحدث عما يطرأ على الإنسان من أحوال مختلفة عند الصدمة. فقوله تعالى ﴿لِجَنْبِهِ﴾ إشارة إلى الخرور والسجود جزعًا وهلعًا، لأن الإنسان إذا أُصيب بصدمة شديدة تخاذلت رجلاه و لم يَقوَ على الوقوف فيسقط. كذلك قوله تعالى ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ إشارة إلى الفزع والقلق البالغين، لأن الفاجعة تقيمه مرة وتقعده أخرى.. فلا يهدأ له بال في أي حال، ولا يقر له قرار. وليس ضروريا جلوسه أو قعوده بالمعنى الحرفي.

لقد بين الله هنا أن هؤلاء يلجّون من ناحية في قولهم: لماذا يعذبنا الله على تكذيبنا لهذا الرسول إذا كان من عنده حقًا، ومن ناحية أخرى تراهم لو مسهم شيءٌ من العذاب رفعوا عقيرتهم فزعًا وهلعًا ونفد ما عندهم من صبر وجلد.

وفي قوله تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ ذَكَرَ عادة للكفار ليعلمنا

أخلاقا إسلامية حيث ينصحنا أننا حين نستعين بأحد فيجب ألا ننصرف عنه إلا بعد الاستئذان منه وبعد أن نشكره على صنيعه، لأنه من اللؤم البالغ أن يستنجد الإنسان بأحد ثم ينصرف عنه دون أن يشكره على معروفه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يتضمن عدة دروس في الأخلاق: الأول: أن لا يطعن الإنسان في نية أحد. فهنا يصرح الله تعالى أنهم يفعلون ما يفعلون لأن أعمالهم تبدو لهم جميلة وحسنة، فإنه ﷻ عَدَّهم من المسرفين ومع ذلك لا يطعن في نياتهم بل يقول: لقد فسدت رؤيتهم واختَلَّت عقولهم، فتراءى لهم أعمالهم حسنة. أوَليس غريبًا وعجيبًا رغم هذا التعليم القرآني -أن نجد بين المسلمين من إذا اختلفوا مع إخوانهم في الرأي اختلافا ضئيلا بسطوا فيهم ألسنتهم وهاجموا نياتهم؟!

وقد يتساءل هنا أحد: ما دامت عقولهم مختلة فلماذا يعاقَبون إذن؟ والجواب أن سبب عقابهم مذكور في الآية نفسها. إنه تعالى لا يقول إن كل إنسان تُزيَّن له أعماله فيراها حسنة جميلة، بل يقول إن المسرفين أنفسهم قد أتوا بأعمالٍ مسرفة غير معتدلة فكانوا هم المسئولين عن عواقب هذا الإسراف، رضوا به أم لا، ولذلك لن ينجوا من العقاب.

والدرس الثاني هو أن عذر النية الطيبة ليس مقبولا في كل حال، بل يعاقَب المرء أحيانا على جريمته وإن لم يقصد الشر لأحد، كما تذكر الآية، فإنها تعلن عقابهم مع التسليم بصحة نيتهم. ويحدث هذا عندما تكون أعمال الإنسان نفسُها قائمة على فساد نيته أو يكون الإنسان قادرا على تغيير مساره السيّئ ولا يغيره. فمثلاً عدم العلم بالشيء عذر مقبول، ولكن إذا كان عدم العلم هذا بسبب تكاسل المرء فيصبح عذرًا غير مقبول ويعاقَب صاحبه حيث يقال له: لماذا تكاسلت و لم تجتهد لتحصيل العلم.

وفيما يتعلق بالنواميس الطبيعية فلا اعتبار فيها للنية أصلاً، فإذا تناول أحد السم – أيا كانت نيته– مات لا محالة. أما القوانين والأحكام الشرعية فإنها تأخذ النية في

الاعتبار إلى حد كبير.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

القرون: واحدة قرن، ولها عدة معان منها: كلُّ أمة هلكت فلم يبق منها أحد؛ الوقت من الزمان؛ أهلُ زمان واحد؛ أمةٌ بعد أمة. وقرنُ الشيطان وقرناؤه: أمته المتبعون لرأيه، أو قوته وانتشاره أو تسلطه. (الأقرب)

التفسير: منذ بدء الخليقة لا تزال تهلك أمة بعد أمة ويموت شعب بعد شعب، ولا ينحصر ذلك في مثال أو مثالين حتى ينساها الناس، ومع ذلك فما أشدَّ غباءَ وحمقَ تلك الأمم التي تتباهى برقيها وتزهو بثرائها، متناسية وقت دمارها، رغم توفّر هذه العبر وتكرارها.

هناك بعض القوانين الإلهية التي تتضح من الآية ومنها:

الأول: إن العذاب الإلهي إنما ينـــزل بالظالم، وإنه لا ينـــزل ما لم يُمارِس الظالم ظلمًا، لأنه تعالى يصرح هنا أنه لم يدمِّر أي أمة إلا بعد أن أصبحت ظالمة... أي أنها أهملت إما النواميس الطبيعية أو الشرائع الإلهية.

والثاني: أن الأمة الظالمة أيضا لا تعذَّب ولا تُهلَك ما لم يُبعث إليها رسول يحذرها من عاقبة أخطائها ومعاصيها، لأنه تعالى يقول إننا إنما أهلكنا القرون الأولى بعد أن صاروا ظالمين، وبعد أن أرسلنا إليهم رسلهم، ولكنهم لم ينصاعوا لإنذارهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أيضا تأكيد لما سبق بيانه من أن

الله تعالى يريد أن يرحم عباده ولا يريد أن يعذبهم، إذ يصرح أننا عندما نرى شعبًا ما واقعًا في المعاصي نبعث إليهم رسولا من عندنا رحمة بهم وشفقة عليهم لكي يتفادوا بإتباع نبيهم عواقب سيئاتهم، ويرثوا نعمنا وأفضالنا، ولكنهم يرتكبون الجريمة النكراء وهي معارضة نبيهم، وبالتالي يجلبون عليهم العذاب.

والعجيب أن الناس في عصرنا هذا يعترفون بألسنتهم بنـــزول العذاب في الأرض أنواعا ومع ذلك لا يقرّون بمجيء نبي من الله تعالى.

والعذاب نوعان طبيعي وشرعي. والعذاب الشرعي مشروط بأمرين: أن يصبح الناس ظالمين فاسدين، وأن يُبعث نبي. وأما العذاب الطبيعي فهو خال من هذين الشرطين، فكلما أصاب الضعف أمةً من الناحية المادية وتغافلت عن الأخذ بأسباب الرقي المادي هلكت وبادت. فسبب هلاكهم إذن هو الضعف المادي لا فقدان الحب الإلهي.

ويمكن معرفة العذاب الشرعي بعلامات غير عادية: أن ينـــزل العذاب مصحوبًا بأشراطٍ ومعالِمَ لا تتوفَّر أبدًا في العذاب الطبيعي: كأن يكون الناس قد أُخبروا به قبل وقوعه عن طريق نبوءات وإنذارات، أو يحدث انقلاب هائل غير عادي في السنن الطبيعية البادية لنا. فمثلاً تبدأ فجأةً سلسلةٌ من الزلازل المتكررة، أو تجتمع في زمن واحد شتى المصائب والآفات من أمراض وأوبئة وقحط ومجاعة، وإذا حصل ذلك فلا مناص عندئذ من الاعتراف بأن هذه التغيرات الهائلة عذاب إلهي ولا بد من أن نبيًّا قد بعث للدنيا.

أما العذاب الطبيعي فيقع في العالم عموما، ولذلك يجب أن لا يقع أحد في فخ بعض المشككين الذين يقولون: إن الأمة الفلانية جاءت في عصر كذا، وذهب مُلكُها، فأي نبي كان بعث عندئذ؟ لأننا يمكن أن ندحض موقفهم هذا بقولنا: تعالوا وأثبِتوا لنا أن العذاب النازل عليهم كان غير طبيعي، وأنه لم يبعث حينئذ نبي، فلن يستطيعوا إثبات ذلك أبدًا.

ولنعلم أن من شروط العذاب الشرعي أن ينـــزل على قرن أي على أمة كاملة، لا على بعض أفراد منها، لأن نـــزول العذاب على أفراد أو مجموعة من الأفراد ظاهرة تتكرر في كل زمن، فإنه يمكن أن ينـــزل حتى في عصر نبي وعلى أفراد من جماعته.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

خلائف: جَمع خليفة، وهو: من يخلف غيره ويقوم مقامه؛ السلطانُ الأعظم الذي ليس فوقه إمام.(الأقرب)

التفسير: هناك سؤال يطرح نفسه: لماذا قال الله لهؤلاء الخلفاء ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في حين أن أعمال شعب ما تؤخذ بالاعتبار حين يجعله الله خليفة لشعب هالك، وأن أية أمة لا يمكن أن تكون خليفة لأمة أخرى ما لم تكن أحسن منها عملاً، لأن هذا هو الداعي لإهلاك الأولين واختيار الآخرين؟ نعم يمكن أن تكون الأمة الهالكة أعلى كعبًا في بعض المجالات الهامشية، فقد تكون مثلا أكثر حذقا ومهارة من هؤلاء في فن البناء والعمارة، ولكن من المحال أن يتخلف هؤلاء عن الأوائل في المجال الذي صاروا خلفاءهم فيه. إذن فكيف يصح قول الله لمن جعلهم خلفاء: سوف ننظر أعمالهم؟! والجواب: أن الأعمال تنقسم إلى قسمين: أعمال يستحق بها الإنسان الفوز بنعمة ما، وأعمال أخرى لا بد من القيام بها حفاظًا على تلك النعمة في يده. فمثلا نجد أن كثيرا من الطلاب المتفوقين في الدراسة، يفشلون عند مواجهة مشاكل الحياة العملية. هذه هي حال الأمم والشعوب أيضا. فهناك أمم يُضرب بها المثل في العمل والتضحية قبل أن تحقق العز والجاه، ولكنها سرعان ما تستسلم للكسل والهوان بعد نيل الحكم والملك.

والسبب الثاني لما ورد في قوله تعالى ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هو أن الأعمال

الإنسانية نوعان: العمل الصالح؛ والعمل المحافظ على العمل الصالح. فالمراد من هذه الفقرة القرآنية إننا جعلناكم خلفاء في الأرض لما فيكم من محاسن ذاتية وأعمال صالحة، والآن سوف نرى كيف تقومون بأعمال تضمن دوام هذه الحسنات والصالحات فيكم. والحق أن القيام بأعمال تحافظ على الأعمال الصالحة أصعب بكثير من القيام بالأعمال الصالحة نفسها. وما هلكت الأمم الغابرة إلا لأنها كانت تكافح وتناضل من أجل الرقي ولكنها لم تسعَ كما ينبغي لاستمرار ذلك الرقي وبقائه. يحافظون على تقواهم هم، ولكن لا يولون اهتمامًا كافيًا لإصلاح أخلاق الأجيال فيهبط مستوى الحسنات فيهم حتى لا يبقى في أيديهم إلا الكلمات دون المعاني والقشور دون اللُباب. وبما أن هذا التغير يحدث في بطءٍ تدريجيّ من جيل إلى جيل، فلا يفطن له أحد، فتنهار الأمة كلها في هوة الظلام الدامس والخراب المدمِّر.

فالله تعالى يلفت الأنظار إلى هذه الحقيقة ويقول:سنرى إلى متى ستحافظون على خلافتكم. ولو أن المسلمين أولوا هذه النصيحة الحكيمة العظيمة الانتباهَ لما لاقوا هذا المصير المحزن.لقد أتى عليهم زمن أهملوا فيه واجب توعية أجيالهم وتربيتهم تربية صالحة، فغلبت عليهم محبة أولادهم بشكل خاطئ؛ أو أنهم لم يأخذوا الحيطة والحذر في أمر الزواج، فتزوّجوا بنسوة غير مؤهلات لتربية ذريتهم تربية إسلامية، وكانت النتيجة أن ذلك الصرح العظيم الذي رفعه النبي ﷺ وأصحابه بأيديهم المباركة خرّ على قواعده وخوى على عروشه. فإنا لله وإنا إليه راجعون! هذا وإني أُبشِّر هؤلاء القوم الذين اصطفاهم الله اليوم لإظهار الإسلام وازدهاره أنهم إذا ما راعوا في المستقبل هذا التوجيه الربّاني وأولوه العناية الكافية فإنّ فرصةَ إحداث انقلاب عظيم لصالح الإسلام في العالم قائمة، إن شاء الله تعالى.

ولقد نبّه النبي الكريم ﷺ إلى هذا بقوله:"كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته" (البخاري،الأحكام). أي أن كل إنسان ليس بمسؤول عن نفسه فحسب، بل إنه مسؤول عمن هو في كفالته أيضًا، كما أن الله تعالى لن يؤاخذه على ما اقترفه من

أعمال هو فقط، بل إنه سيسأله أيضًا عن كيفية قيامه بتربية وتوعية من كانوا في رعايته وكفالته. فلن تُغني عن الإنسان طهارة نفسه هو فقط، ما لم يكن جادًّا في تطهير الآخرين من حوله.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

١٦

شرح الكلمات :

تُتلى: تلا الكلام تلاوة: قرأه (الأقرب).

لا يرجون لقاءنا: (راجع شرح الكلمات للآية ٨).

ما يكون لي: أي لا يمكنني.

تلقاء: اسم من اللقاء ويُتوسع فيه فيُستعمل ظرفًا لمكان اللقاء والمقابلة فيُنصب على الظرفية ويقال: توجَّهَ تلقاءَ النار وجلس تلقاءَ فلان أي حذاءه (الأقرب) وعندما تضاف إلى النفس فتعني معنى (عند). فالمراد (من تلقاء نفسي) أي من عند نفسي.

التفسير: لقد وردت كلمة (بينات) هنا حالاً لـــ (آياتنا)، مع العلم أن القرآن الكريم قد استخدم كلمة (بينات) صفةً لما يقدمه الله من آيات ومعجزات أو كلام بواسطة أنبيائه عليهم السلام. ذلك أن الآيات نوعان: نوع يسمى آيات فقط، ونوع آخر هو آيات بينات. فكل ذرة من الكون هي في الحقيقة آية إلهية، لأنها تقف دليلاً عقليًا على وجود خالقها، ولكنّ هذا الدليل نستنتجه بقياسنا نحن ولا تخبرنا الذرة

بنفسها أنها خُلقت لتحقيق هذا الغرض. أما ما يظهر بواسطة الأنبياء من آيات فيعلن الله عنها قبل ظهورها أنها تستهدف الدلالة على الأمور الغيبية وأن غايتها الحقيقية إنما هي التدليلُ على وجود البارئ ﷻ وإظهارُ صدق الأنبياء وتبيانُ حقيقة الصفات الإلهية، والتأكيدُ على البعث بعد الموت. فبما أن الله تعالى يصرح عند ظهورها أنها شاهدة على الأمور الإيمانية الغيبية لذا سمّاها آيات بينات بعكس الآيات الطبيعية الموجودة في الكون. وعلى سبيل المثال، فإن ظاهرة تفشي الأوبئة هي آية أيضًا، ولكنّ الوباء الذي ينبئ به النبي قبل تفشيه مذكّرًا القومَ أن ظهوره سيكون تصديقا له، فهو ليس بآية فحسب وإنما هو آية بينة، لأنها تبين وتحقق غاية ظهورها بطريق أفضلَ وأوضح مما يبينه الوباء الطبيعي العادي.

عندما يرى ويسمع المنكرون هذه الآيات البينات من القرآن الكريم لا ينتفعون بها وإنما يشرعون في المطالبة بأمرين: الأول: أن يا محمد، ائتِ بقرآن بدلاً من هذا، والثاني: أو غيّر على الأقل بعضَ ما ورد فيه من أمور. يقول الله تعالى: إن مطالبهم هذه ترجع إلى ما أصاب قلوبهم من تحجر وما علاهاَ من صدأ. فإنهم على رؤية الآيات لم ينتفعوا بها، وبهذا ثبت أنهم لا يقدمون مطالبهم بقصد الانتفاع بها وإنما خلت قلوبهم من حب الإيمان فلا يقصدون إلا الاستهزاء والسخرية والشر، ليمحوا بذلك ما تركته هذه الآيات البينات من وَقع في قلوب العامة من الناس. ذلك أنه يتضح جليًا من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أن قلوب بعض الناس كانت قد لانت ومالت إلى الإيمان برؤية هذه الآيات مما أثار قلق أئمة الكفر، فلجئوا إلى إثارة مشاعر القوم من جديد ضد النبي، وأخيرًا تنكروا لهم بزيّ المصالحين المسالمين. والحق أن الفطرة الإنسانية تحب السلم والصلح، وإذا ما دُعيتْ إلى التصالح غضّت الطّرف في أحيان كثيرة عن أهمية المبادئ المتنازَع عليها، مركّزةً على فكرة أن الصلح خير ولو على حساب بعض المبادئ. إن معارضي الأنبياء ينتهزون ضعف الفطرة الإنسانية هذا، داعين النبي إلى طريق وسط. فيطالبونه أن ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ بمعنى أنّك شخص

مرجوّ تصلح لأمور عظامٍ، ولكن لا تُقدِّم أمام القوم منهجك الجديد، بل عليك أن تقودهم عاملاً بنظرياتهم وآخذًا بأفكارهم هم، ولو فعلت ذلك سرنا وراءك، وبهذا الأسلوب لن تحدث فتنة في الأرض ولا فساد، ولن تحصل فرقة بين الأخ وأخيه. أما إذا لم يعجبك هذا فهناك اقتراح آخر: أن احذفْ من تعاليمك ما يجرح مشاعر الشعب كمكافحة الشرك ومحاربة الطقوس الشعبية.

وأئمة الكفر هؤلاء يدركون حقّ الإدراك عند طرح هذه الاقتراحات أن النبي لن يرضى بها في أي حال، الأمر الذي سيلهب مشاعر الشعب ضده مرة أخرى، فيقولون: ما أضيق هذا الشخص صدرًا وما أشده تطرفًا إذ لا يتخلى عن بعضٍ من أفكاره توحيدًا للشعب وجمعًا للشمل والكلمة. هؤلاء ينسون تماما أنه مما لا شك فيه أن الشعب شيء عزيز والبلد أيضا شيء عزيز، ولكنّ الحقائق أعزّ منهما، ولا يَعون أبدًا أنّ ما أصابهم من نكسة وزوال كان سببه رفضُهم لهذه الحقائق. فما الجدوى إذًا من صلحٍ يدفع الإنسان إلى إخفاء الحقائق التي هي في الحقيقة قوام رقي الأمم وملاك ازدهارها، وما الفائدة من سلمٍ ينحرف بالأمة بعيدًا عن سبيل الفلاح؟!

آه! إن هذه الفكرة الفاسدة ترسخ دائما في أذهان الأمم المندفعة إلى هوة الزوال والانحطاط. يريدون إحراز الرقي والتقدم دون أي تغيير في نظامهم القائم. إنما دأبهم دومًا ضد المصلحين والأنبياء أن يُولُوا الأولوية للصلح القومي على أي شيء آخر، مع أنه لا شيء أشدّ زيفًا واستحالةً من أن ينعقد صلح حقيقي في أمة منهارة متردية. لقد صرّح القرآن بهذا الأمر بقوله: ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾، ومع ذلك لا ينفكون يلقون باللائمة كلها على الأنبياء قائلين: إنَّ هؤلاء هم السبب في كل هذه الفرقة والفتنة والفساد. يبغون باسم الصلح القومي إخفاء الحقائق، الأمر الذي لا يرضى به أحد من أهل الصدق والسداد، وهذا يتيح لأعداء الحق فرصة لإثارة عواطف القوم ضد النبي. هذا ما يحدث بالضبط بين المسلمين اليوم، والأسف كل الأسف على أنهم رغم هذا التصريح القرآني لا يشعرون بما يفعلون وبما صاروا إليه. رحمهم الله!

يأمر الله تعالى هنا رسوله أن يرد على اقتراحات أئمة الكفر ويقول لهم: كيف أغيّر هذا التعليم الإلهي من تلقاء نفسي وأنتم تعلمون أنني لم أدّعِ أبدًا أن هذا التعليم من بنات أفكاري ونتاج عقلي. لو كانت المسألة خاصة بفكري لَحقَّ لكم أن تطالبوا بإخضاع عقل فرد واحد لعقول الشعب كله، ولكن الحق أن هذه الوصفة وصفة إلهية ولا يمكن تغييرها أبدًا بخطأ موهوم فيها. نعم، هناك طريق وحيد لإحداث تغيير فيها ألا وهو أن تغيروا ما بأنفسكم.

وقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يتضمن إشارة لطيفة إلى أن التعليم الإلهي ينـــزل بحسب حالات البشر، وأنه هو الوصفة المثلى لأمراضهم، لذلك يقول النبي: لو غيرتها بنفسي لحصلت خسارة فادحة، لأن هذا هو التعليم الوحيد القادر على إصلاح أنفسكم، فتغييره لن يجدي نفعًا بل إنّه ضار أيما ضرر.

وتعني هذه الفقرة أيضا أن ما تجدونه في الوحي من أنباء هلاككم ودماركم، تكرهونها وتقترحون حذفها وتغييرها، فإنها سوف تُلغى وتزول تلقائيا حينما تغيّرون ما بأنفسكم وتصلحون حالتكم، عندها ستصبحون الوارثين لأنباء تبشر بالرقي والازدهار وتعد بالغلبة والفلاح. وهكذا فكأنّما يقول لهم: لا سبيل لتغيير هذه الأنباء المنكرة عندكم إلا أن تتغير حالتكم هذه، أما أنا فلا أملك خيار تغييرها من تلقاء نفسي.

كما تعني هذه الجملة أنني لا أستطيع تغييرها بنفسي ما لم يغيرها الله تعالى، لأنني إنما أتبع ما يوحى إلي من لدنه.

وهنا ينشأ سؤال: هل يقوم النبي بأي عمل دون إشارة الوحي الإلهي؟ والجواب: إنه يعمل بالوحي وبدون الوحي أيضًا. وعندما نقول إنّه لا يقوم بأي عمل إلا على ضوء الوحي فإنما نعني بذلك أنه يذوب في حب الله ويتفانى في طاعته لدرجة أنه لن يقوم بأي عمل دون وحي ربّاني. بيد أن الله نفسه يأمره بأن يقوم ببعض الأعمال

مستخدما عقله الموهوب من لدنه تعالى. فبما أن الله بنفسه يحضه في وحيه على أن يستمر في استنباط بعض المسائل باسترشاد العقل والفراسة، لذلك فإنّه يستخدم فراسة عقله أيضًا في بعض الأمور. وبناء على ذلك يمكن القول إنه لا يعتمد على استنباط المسائل بعقله وإنما يتبع الوحي الإلهي فقط. ولكنه يقوم بالاستنباط بعقله فعلاً –ولو بأمر من الله– فلذا يمكن القول أيضا إنه يعمل على ضوء ما يمليه عليه عقله.

ولكن لا يستقيم أبدًا الظنّ أنّ كل ما يفعله أو يقوله النبي إنما مصدره الوحي الإلهي فقط، وإلا فكيف نفسّر ما يصدر عن الأنبياء من أخطاء اجتهادية في بعض الأحيان؟ سوف نضطر عندئذٍ للاعتقاد الباطل بأنه يخالف، والعياذ بالله، الوحيَ الإلهي أحيانا. إذ كيف نُفسر مثلاً، مع هذا الاعتقاد الخاطئ، قولَ الله تعالى لرسوله الكريم عندما أذن لمن جاءوه ليستأذنوه بأن يتخلفوا عن الخروج معه لغزوة تبوك ﴿عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(التوبة:٤٣). فهل نقول بأن الرسول ﷺ أذن لهم بالقعود في البيوت مخالفًا الوحيَ الربّاني؟

وقد يكون للجملة معنى آخر أيضا وهو: أن الكفّار قد طالبوا الرسول ﷺ هنا بتغيير القرآن نفسه وكانت جملة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أيضا في صدد الوحي القرآني فقط، والمراد: أن كل ما أقوله مما يخص القرآن الكريم إنما أقوله بناءً على الوحي الإلهي، ولا دخل لي فيه أبدًا، فلا أستطيع تغييره ولو تغييرًا بسيطًا.

كما أن هذه الجملة تمثّل أيضا ردًّا مفحمًا للّذين يزعمون أن كتابة البسملة في مستهل السور القرآنية، أو تدوينَ القرآن بالترتيب الحالي، أو تسميةَ سوره بهذه الأسماء، كل ذلك كان بأمر من الرسول وليس من الله تعالى. فالله تعالى يعلن هنا أنّ كل ما يفعله الرسول فيما يخص القرآن إنما يفعله بناءً على وحينا.

وقد زعم البعض الآخر: لا شك بأن الرسول ﷺ كان يتبع الأوامر الإلهية بخصوص القرآن، ولكن صحابته قاموا من تلقاء أنفسهم بتعديلات وتغييرات فيه.

ولكن العقل السليم يرفض هذا الزعم كليةً، لأنه ما دام الرسول ﷺ لم يُمنح هو

حقَّ التبديل في القرآن فكيف سيشرّع ذلك للصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. إنهم ما كانوا ليتجاسروا على فعل ذلك ما لم يصبحوا مرتدين ضالين، والعياذ بالله.

وقد قال بعض الكتّاب المسيحيين الذين يطعنون في القرآن بأن محمدًا ﷺ قد حاول بقوله ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ التهربَ من مواجهة الأسئلة التي اهالت عليه من قبل الكفار عندما نُسخت آيات من القرآن، حيث اكتفى بقوله لهم: لست أنا المسئول عن النسخ ، بل كل ما يأتي في القرآن إنما يأتي بأمر إلهي (تفسير ويري للقرآن).

والحق أن هذه الفكرة فكرة فاسدة زائفة تماما، وهذه الجملة لا تُثبت وجود النسخ في القرآن كما زعموا، بل على النقيض من ذلك فهي تصرح أنه لم يكن هناك أي نسخ في القرآن قط. ذلك أن الكفار ما كانوا ينوون تصديق القرآن إذا ما تم فيه تغيير أو تعديل، كلا، وإنما كانوا يهدفون بذلك الكيد برسول الله ﷺ. فلو رضخ لمطالبهم لقالوا: انظروا هذا القرآن إنّه ليس كلامًا من لدنه تعالى كما يزعم محمد، وإنما هو من اختراعه وافترائه، ولذلك تجدونه يتلاعب به كيفما يشاء. ولكنه حين عارضهم و لم يذعن لمطالبهم و لم يغير فيه شيئًا أثاروا العامة ضده قائلين: انظروا إلى هذا الشخص المتعنت، إنه لا يريد التعايش مع القوم في صلح واتحاد. فلو كان القرآن عرضةً للنسخ والتغيير كما يزعمون لما كان الكفار بحاجة إلى مثل هذا الاحتيال والمكر، وإنما كان يكفيهم أن يعترضوا على ما حصل فيه من نسخ وتغيير. فالحق أن هذه الفقرة ليست دليلا على وجود النسخ في القرآن، بل على العكس فإنها تنفي زعم النسخ فيه في أي وقت كان.

ومن غرائب القدر أن واضعي هذه الروايات قد اختلقوا روايات أخرى تقول: كانت في القرآن آية كذا أو سورة كذا وفُقدت فيما بعد، ولكنهم لم يهتدوا لوضع روايات تقول: كانت في القرآن آية كذا فنُسخت ونـــزلت مكانها آية كذا!!

وليس المقصود من جملة ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أنه لولا خوفي من أن يصيبني عذاب عظيم لغيـــّرت في القرآن الكريم. كلا، لأن كلمات الآية لا تقول: أخاف أن يصيبني العذاب بفعل ذلك، وإنما تقول: لو فعلت ذلك فسيأتي (عذاب يوم عظيم) و"عذاب اليوم العظيم" يعني عذابًا قوميًا يحل بالشعب كله، إذ يكون عظيمًا واسع النطاق وذا آثار باقية في هذا العالم. فالآية إذن إشارة إلى أن التعليم النازل من عند الله تعالى يكون ذا نفع عظيم للناس، وبه يُناط رقيُّهم وتقدمهم، ولو أن أحدًا أحدث فيه تغييرا أو تعديلا لأَخَّر الشعب والبلد عن موكب التقدم وقرّب إليهم دمارهم. فلا خير في تغييره وتعديله بل الخير في تطبيقه وتنفيذه. ومثال ذلك أن يصف الطبيب وصفة لمريض فيقول له المريض: لن أتناول هذه الوصفة العلاجية إلا إذا غيّرت الدواء الفُلاني فيها، فيرد الطبيب عليه قائلاً: إنّني أخاف أني لو غيّرتُه لسبب لك ضررًا، ولا يعني الطبيب بقوله هذا: لولا خوفي أنا من الأذى لغيرته، بل كل ما يعنيه هو أنه لن ينفعك إلا هذه الوصفة كما هي.

قُل لَّوْ شَاءَ اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

لا أدراكم: دَرَى الأمرَ يدري دَرْيًا ودِرايةً: علِمه. أدرى به إدراء: أعلمه. (الأقرب)

فقد لبثت: لبثت بالمكان يلبث لَبثًا ولُبثًا ولِباثًا: مكث وأقام (الأقرب). و"قد" إذا دخلت على الماضي صيرته ماضيا قريبا. فالمعنى أنني قد أقمت بينكم باستمرار إلى ما

قبل نبوّتي و لم أغب عنكم في هذه الفترة .

التفسير: قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ﴾. أي يا من تطالبونني بتغيير القرآن أخبروني شيئًا: لو كان في تغيير القرآن نفع، وكان استبداله كعلاج روحاني لكم بعلاج آخر مفيدًا، أما كان حريًا بالله تعالى أن يصف لكم منذ البداية العلاج الناجع؟ وما الداعي لإعطائكم هذا العلاج عديم الجدوى؟

هذه الجملة تمثل ضربة قاضية على نظرية النسخ في القرآن. ذلك أن النسخ إنما يكون في الأحكام والتعاليم لسبب واحد، ألا وهو أن بعض التعاليم تنفع في ظروف معينة ولا تنفع في ظروف أخرى، فتمس الحاجة إلى غيرها، أما إذا بقيت الظروف على ما هي عليه ونُسخ مع ذلك حكم وتعليم لأدّى هذا إلى الاعتقاد بأن ذلك التعليم لم يكن مفيدًا في حدّ ذاته، وكان عرضه على الناس خطأ. وإلى هذه الحقيقة نفسها قد أشار الله هنا وأمر رسوله أن يقول لهم: ألا ترون أنه لو كان هذا التعليم عديم الجدوى بالنسبة لكم، بينما يوجد هناك تعليم آخر قادر على إصلاحكم، لما عرضت عليكم هذا التعليم بأمر إلهي ولما أنـــزله الله لكم، بل لأتى لكم بغيره.

وقوله تعالى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يقدم معيارًا رائعًا لمعرفة صدق أي مدّعٍ بالنبوة، بل إنه يمكِّننا من معرفة أي إنسان على حقيقته شريطة ألا يطبَّق هذا المعيار على نحوٍ خاطئ.

لقد نبّه الله رسوله هنا إلى أن يعرض على الكفار صورة حياته التي عاشها بينهم قبل دعوى النبوة أو نـــزول القرآن كشهادة على صدقه، فيقول لهم: لقد عشتُ تلك الفترة بينكم مثالا فريدا للطهر والصدق وليس بين حياتي السابقة وبين دعواي أي فاصل زمني غبتُ فيه عن أنظاركم لتظنوا أنني قد فسدت في فترة الغياب تلك. وما دمتم تسلّمون وتعترفون بأنني عشت طوال عمري بينكم كإنسان صادق بار حتى سميتموني "الصدوق الأمين" فكان ينبغي أن أنال نعمة وفضلا كجزاء على صالح أعمالي، بدلاً من أن أصير فجأةً مفتريًا ماكرًا. إذ كيف يمكن لمن كان بالأمس أصدَقَ

إنسان بين القوم أن يصبح في ليلة وضحاها أكذب مخلوق على وجه الأرض، لأنه لا أحد يكون أكذَبَ ممن افترى على الله كذبًا، وكيف يمكن لمن لا يكذب على الناس أن يتجاسر على الافتراء على الله ﷻ؟

الواقع أن الفطرة الإنسانية لا يحدث فيها على العموم أي تغيير مفاجئ، سواء إلى الخير أو إلى الشر، وإنما يحدث ذلك تدريجيًا وعلى فترة طويلة من الزمن. وكلمات الآية تصرح بأن النبي ﷺ ما غاب عن قومه في أية فترة قبل دعواه، بل كانت حياته كلها كتابا مفتوحا أمام شعبه. فالله تعالى يخاطب هنا أعداء رسوله ويقول: إنكم تعزون إلى رسولي أشنع نوع من الكذب.. وهو الافتراء على الله، ولكنكم لا تشيرون إلى أي فترة من حياته كان قد تعوَّدَ فيها على الكذب، بل على النقيض من ذلك، تعترفون أنه عاش قبل دعواه بين ظهرانيكم دون أن يغيب عنكم، وكنتم تسمونه صدوقًا أمينًا طوال تلك المدة، فكيف تسيغ لكم أحلامكم أن تقولوا عمّا أتاكم به من تعاليم أنه نتاج افترائه واختراعه.

وصرّح سبحانه بقوله ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ بأن لا قيمة لما يثار ضده من اعتراضات بعد دعوى النبوة، لأن مخالفة الرأي تُؤدي دومًا إلى العداوة والاعتراض. ولِنعم ما أدرك الإمبراطور الرومي هرقل هذه الحقيقةَ، فإنه لما أمر أبا سفيان أن يدلي بشهادته عن سلوك النبي ﷺ سأله:كيف كان هذا عندكم قبل ادعائه النبوة؟ "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول"؟ (البخاري، بدء الوحي)

وبيّن بقوله تعالى ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أن كل ذي عقل سليم لن يقبل الزعم أن الإنسان يمكن أن يتخلى فجأة عمّا تطبّع عليه به منذ زمان. كما ويُثبت علمُ النفس أنه من المحال أن يحدث تغيير مفاجئ غير عادي في شخص إلا لأحد السببين: الأول: أن يتعرض لحادث إصابة في المخ فتعطل إثرَه ذاكرتُه، فتفسد أخلاقه أو تصلح، والثاني: أن يتغير الإنسان كلية بشكل مفاجئ بتأثير انقلاب روحاني عظيم؛ كأن يصاب بصدمة شديدة في الحياة تدفعه إلى اليأس والقنوط، فيميل إلى الشر كلية؛ أو أن

تنكشف عليه حقيقة من الحقائق السامية الروحانية فيرغب في الخير كليةً. أما بدون هذين السببين فلا يمكن أن يتغير الإنسان تغييرًا مفاجئًا غير عادي، وإنما يتغير تدريجيا بصورةٍ عاديّة. ولكن الثابت من التاريخ أن النبي ﷺ لم يتعرض قبل دعواه لأي حادث من هذا القبيل قط، سواء من الناحية البدنية أو الروحانية. فكان متعوّدًا حتى قبل النبوة بفترة طويلة، على العبادة منفردًا منقطعا عن الدنيا، وما كان قانطًا من أهله أو وطنه، وإنما كان مواسيًا لهم، حريصا عليهم، جاهدا في سبيل فلاحهم ورقيهم. فمن المستحيل إذًا أن يقال إن هذا الذي كان بالأمس نموذجا مثاليا للطهر والصدق قد أصبح اليوم أكذَبَ شخص على وجه الأرض.

ولقد استدل بهذه الآية مَن أَقامه الله في هذا العصر إمامًا مهديًا ومسيحًا موعودًا عليه السلام، على صدق دعواه، ولكن المؤسف أن يلجأ معارضوه إلى نفس المعاذير الركيكة الواهية التي قدّمها أعداء النبي ﷺ (ستارة قيصرية، الخزائن، ج ١٥، ص ٢٨٣). ليت هؤلاء القوم فكّروا أن هذا الرجل الذي كان قبل دعواه أكبَرَ ناصر للإسلام ورمزًا للصلاح والصدق، وذلك بشهادة من أصبحوا فيما بعد أَلدَّ أعدائه؛ ليتهم فكّروا كيف يمكنه أن يفسد فجأة ويبدأ بالافتراء على الله كذبا؟!

وإليكم بعض الشواهد التاريخية على ما يسوقه القرآن هنا كدليل على صدق النبي ﷺ:

١) جاء في الحديث: "عن علي أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنّا لا نكذّبك ولكن نكذّب ما جئت به "(الترمذي، كتاب التفسير، سورة الأنعام)

ويتضح من هذا أنه حتى بعد إعلانه ﷺ دعواه لم يجرؤ معارضوه على أن يطعنوا في سيرته قبل الدعوى، وإنما كانوا في بداية دعواه يرتدعون عن نسبته إلى الكذب.

٢) وهناك شهادة من النضر بن الحارث–وهو أحد التسعة المتآمرين على قتل النبي ﷺ–؛ كانت قريش تتشاور مرة قبل موسم الحج وتقول: سوف تحضر القبائل للحج من خارج مكة، فماذا نقول لهم عن محمد؟ فأشار عليهم أحدهم سنقول: إنه كذاب

ساحر. فوقف النضر في حماس وقال: لقد كان محمد فيكم غلامـــــاً حـــــدثًا، أَرْضاكـــــم فـــيكم، وأصدَقَكم حديثًا، وأعظَمَكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشيبَ، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر. والله ما هو بساحر. (الشفاء ص٥١)

هذه الرواية تتحلى بعدة مزايا ولطائف منها: (أولاً) إنها تتناول الحديث عن حياة النبي ما قبل دعواه، أي من الشباب إلى الكهولة دون الحديث عن صغره، إذ لا أحد من العقلاء يعترض على أفعال أحد في الصغر. (ثانيًا) إنها تذكر بالتفصيل أخلاق النبي وخصوصياته. (ثالثًا) إنها شهادة شخص تآمر فيما بعد على قتل النبي ﷺ ومات على كفره. (رابعًا) إنها تكشف لنا مدى ما كان لأخلاق النبّي من تأثير عظيم في قلوب القوم، حيث يتفوه أحدهم – وهو جالس في بيته – بكلام حلو لا يخرج في الحقيقة إلا من فمِ شخصٍ كأبي بكر ﷺ .. أعني قوله: "لا والله ما هو بساحر". يبدو أن الأخلاق النبوية الفاضلة كانت آخذة بمجامع قلبه عندئذ بحيث خفف ذلك من عداوته فاضطر للاعتراف بالحقيقة على الملأ.

٣) وجاءت شهادة السيدة خديجة رضي الله عنها تقول: "كلا، والله، ما يخزيك الله أبدا. إنك لتَصِلُ الرَحِمَ، وتحمل الكَلَّ، وتَكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (البخاري ، بدء الوحي)

وهذه الشهادة على طهارة أخلاقه ﷺ هي من زوجته المطهرة، والزوجة هي أفضل شاهد على أخلاق زوجها.

٤) وهناك رواية عن أبي سفيان ﷺ أن هرقل الرومي جاءته رسالة من النبي ﷺ يدعوه فيها إلى الإسلام. فبعث رجالَه بحثًا عن أحد العرب ليخبره عن أحوال هذا المدعي. فأرسل إلى أبي سفيان في ركب من قريش كانوا تجارًا بالشام، ودعاهم إلى مجلسه. فأدنى أبا سفيان منه وجعل أصحابه وراءه، وقال لهم إنني سائل هذا الرجل عن هذا المدعي، فإن كَذَبَني في شيء فكذِّبوه فورًا. فسأله هرقل فيما سأل: "فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟ فقال: لا". (البخاري، بدء الوحي).

وفي رواية أن أبا سفيان قال: لقد حاولت أن أدسّ في شهادتي شيئًا من الكذب ولكني خفت أصحابي أن يكذبوني (البخاري، بدء الوحي).

٥) ومنها أن الله تعالى لمّا أمر نبيّه بقوله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ جبلاً اسمه "أبو قبيس" ونادى القوم. فلما اجتمعوا حوله قال: أرأيتم، لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدِّقيّ؟ قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقًا.(البخاري، التفسير، الشعراء)

ويعرف المطلعون على معالم مكة وأحوالها أن سؤال النبي هذا كان سؤالا عجيبا ومحرجا لهم، لأن الوادي الذي سألهم عنه وادٍ ترعى فيه مواشي القوم، وكان من المحال أن يختفي فيه جيش من الفرسان، ومع ذلك أجابوه بنعم، سوف نصدقك في هذا المستحيل أيضا. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أنهم ما كانوا يرونه صادقًا فحسب بل وكأن نسبة الكذب إليه محال عندهم.

٦) وهناك شهادة أخرى من عدو لدود آخر، هو أمية بن خلف الذي قال:"والله ما يكذب محمد إذا حدّث". (البخاري، المناقب).

لقد بسط بعض من الكتّاب المسيحيين ألسنتَهم بالطعن في هذه الآية، ومنهم القسيس "ويري" وهو صاحب تفسيرٍ للقرآن الكريم. فقد اقتبس مما قاله المستشرق الإنجليزي"سيل" في ترجمته للقرآن الكريم تحت هذه الآية ما يلي: لقد عشتُ كلّ هذه السنين بين ظهرانيكم، لم أتعلم فيها على يد أحد، ولم أجالس عالمًا، لم أقرض شعرًا، ولم أُلقِ خطبةً، فكيف تزعمون إذَنْ بعد أن بلغت المشيب، أن هذه العبارات القرآنية هي مما كتبته يداي هاتان".

وبعد إيراد هذه العبارة من ترجمة "سيل" للآية يعلق عليها ويري معترضًا:

أولاً: أليس مما يثير استغراب المرء أن يتربى ويترعرع محمد وعليٌّ معًا في بيتٍ واحد، ومع ذلك يتعلم علي ويبقى محمد أميًا؟

ثانيا: كيف يمكن أن نسلّم بأن محمدًا لم يعرف القراءة والكتابة رغم ممارسته عملاً

هاما كالتجارة لسنوات طويلة؟

ثالثا: مما لا شك فيه أن محمدًا كان يعرف هذا الفن في الأيام الأخيرة من حياته إذ جاء في الحديث أنه قد أمر معاوية وهو أحد كتاب وحيه أنِ اكتُبْ "الباء" سويةً، وأبرِزْ أسنان السين!

رابعًا: لقد أمر محمد قبل وفاته بإحضار القلم والدواة، مما يدل على أنه كان يبغي كتابة شيء، وهنا ينشأ سؤال: من أين تعلم فن الكتابة؟ يقول المفسّرون: إنّ الله علّمه القراءة والكتابة بالوحي، ودليلهم على ذلك الآيةُ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. فالمفسرون أنفسهم يعترفون بكون محمد عارفًا بهذا الفن. غير أني أرى أن الآية لا تدل على تلقيه هذا الفن عن طريق الوحي الإلهي كمعجزة، كما لا تدل على أنه كان جاهلا به قبل نـــزول هذه الآية.

خامسًا: ويستمر القسيس ويقول: ولو استدل أحد على كون محمد جاهلا فنّ الكتابة بوجود كتبةٍ عنده، فهذا أيضًا ليس بدليل مقنع، لأن الاستعانة بالكتبة كان عادة شائعة بين كبار علماء زمانه.

ثم يثير ويري سؤالا: إذن فمن أين أتت الفكرة بأن محمدا كان يجهل القراءة والكتابة؟ فيرد هو على سؤاله بنفسه قائلا: الواقع أن سبب ذلك هو أن القرآن وصف محمدا بكلمة (النبي الأُمّيّ)، فاغتر المسلمون بها وظنوه أميًا بالمعنى الشائع في هذه الأيام، مع أن القرآن إنما أطلق هذه التسمية عليه، لأن اليهود كانوا يسمون العرب أميين. "فالنبي الأمي" معناه إذن نبي غير إسرائيلي أو غير يهودي، لا غير متعلم.

ثم يستطرد ويري ويقول:"إن شيوع هذا الفهم الخاطئ لكلمة (النبي الأمي) ساعد كثيرًا على انتشار دين محمد، لأن الناس اعتبروه دليلا على كون القرآن كلاما إلهيًا معجزًا، مع أنّ إلقاء نظرة شاملة على حياته الأولى تؤكّد على أنه كان ملمًا بفنّ القراءة والكتابة منذ صغره". (تفسير ويري، تحت الآية).

هذا ملخص ما أثاره ويري من اعتراضات وشكوك، وفيما يلي الرد عليها:

لقد سبق أن ذكرت أن الآية لا تتحدث عن كون النبي ﷺ عارفًا القراءة والكتابة أم لا، بل تلفت الأنظار إلى حياته الطاهرة قبل دعواه،كما هو ظاهر من السياق. فما كانت مطالبة الكفار منه أن يغير الكتابة الظاهرة للقرآن، وإنما أن يغير تعاليمه ومبادئه. وإن الله تعالى لم يردّ على مطالبهم هذه بقوله: إن رسولي لا يعرف فن القراءة والكتابة، وإنما قال: لو شاء الله لما عرض عليكم محمد هذه التعاليم، بل لم ننـــزلها أصلاً. فالآية لا تتحدث عن قدرته على الكتابة أو عدمها، كما أن الكفار لم يعترضوا بأنه يكتب هذه التعاليم بيده حتى ينفي الله عن رسوله تهمة كتابة القرآن بيده، وإنما كانوا يطالبونه بتغيير التعاليم القرآنية، حتى إذا غيّرها بنفسه ثبت كذبه وظهر افتراؤه، وأما إذا لم يحرِّفها حرّضوا عليه شعبه قائلين: انظروا إلى هذا المدعي، إنه لا يريد أن يضحّي لأجل القوم بأمر بسيط. فما دامت الآية لا ترمي إلى ما ذهب إليـــه القسيـــس فقد بطـــل

الاعتراض تلقائيا.

ولو سلَّمنا جَدَلاً أنها تعني ما يزعمه القسيس من أمر القراءة والكتابة فمع ذلك تبقى اعتراضاته واهية وأدلته زائفة كما سنبين فيما يلي:

أولاً: لا قيمة ولا وزن لدليله الأول: "أليس غريبا أن يتربى ويترعرع محمد وعليّ معا في بيت واحد، ومع ذلك يتعلم علي بينما يبقى محمد أميًا"؟

الواقع أن قوله هذا يدل على جهله الفاحش بالتاريخ إذ يعرف كل من له إلمام بسيط بالتاريخ الإسلامي أن الفرق بين سنّ سيدنا محمد وعلي يبلغ ٢٩ سنة. فالزعم أنهما تربيا معًا في بيت واحد لزعمٌ يرفضه العقل والتاريخ، ولا يرضى به إلا القسيس ومن كان على شاكلته ممن يجهلون التاريخ الإسلامي.

لقد وُلد علي بن أبي طالب حينما كان سيدنا محمد ﷺ متزوجًا بالسيدة خديجة رضي الله عنها. كان قد انتقل من بيت عمه أبي طالب إلى بيتها، وكانت قد وضعت كل ما تملك من أموال وثروات في يده الكريمة ﷺ، فكان يُعدُّ من أثرياء القوم. فادعاء

القسيس مرفوض عقليا وتاريخيا. بل الأغرب أن التاريخ يشهد على عكس ادعائه، إذ الثابت تاريخيا أنه ليس سيدنا محمد الذي تربّى وترعرع مع علي في بيت أبيه أبي طالب، وإنما هو عليّ الذي تربّى في بيت الرسول ﷺ. فالنبي عندما رأى فقر عمه أخذ عليًّا إلى بيته هو فشبّ عنده. (حلي الأيام في خلفاء الإسلام ج١ ص١٩٦).

فإذا كان علي ﷺ قد تعلم هذا الفن منذ الصغر فإنما ذلك بسبب تربية النبي له. ولا يمكن لعاقل أن يقول: ما دام محمد قد ساعد عليًّا على تعلم هذا الفن فكيف يمكن ألا يعلِّم أبو طالب ابن أخيه محمدًا الكتابة والقراءة؟ والواقع أن تعليم الصغار يتوقف على الظروف السائدة في كل زمان ومكان، ويتوقف على ميول المربي وأفكاره. ومحمد وعليّ يختلفان اختلافًا كبيرًا من ناحية الظروف والمربين. فقد كان النبي ﷺ يحب العلم ونشره، فقام بتعليم علي ﷺ. ولكن جدّ النبي وعمه لم يرغبا في تعليم الصغار بسبب ظروف وعادات عصرهما، فلم يحاولا تعليم النبي ﷺ. وقد بلغ ولوع النبي بالعلم والتعليم درجة أنه حثّ عديدا من الصحابة على تحصيل العلم في سنٍّ متقدمة جدا، حتى إن عمر ﷺ تعلّم العبرانية في المدينة وقد بلغ سنًا متقدمةً.

ثانيا: قال ويري: كيف مارس محمد عملاً هامًا كالتجارة إذا هو لم يكن يعرف القراءة والكتابة؟

هذا الاعتراض نابع أيضا عن قياسه حالات الزمن النبوي بالحالات الراهنة في أوروبا، مع أنه يوجد هناك حتى في زمننا هذا في البلاد الآسيوية أمثلة كثيرة لأناس غير متعلمين يمارسون أعمالاً تجارية ضخمة. والثابت تاريخيا أن أهل مكة ما كانوا يجيدون كثيرا القراءة والكتابة وما كان فيها إلا بضعة أشخاص ملمّين بهذه المهارة (تاريخ الأدب الجاهلي، الفصل الرابع) بيد أنه كان فيها مئات التجار وأرباب القوافل التي تخرج قافلة تلو الأخرى. فالقول بأن كل من خرج منهم تاجرا كان عارفا بالقراءة والكتابة قول باطل وخاطئ وقياسٌ مع الفارق.

ومما يدحض زعم القسيس أيضا روايةٌ تخبرنا أن السيدة خديجة ﷺ كانت ترسل

مع النبي ﷺ في أسفاره التجارية عبدًا لها اسمه ميسرة وقد كان رجلا متعلما.

ثالثا: قال القسيس إنه ورد في الحديث أن محمدًا أمر كاتبَ وحيه معاوية أن يتقن كتابة الباء والسين مما يؤكد أنه كان يعرف الكتابة.

وجوابنا الأول: إن هذه الرواية ليست فيما يبدو من الروايات الموثوق بها، ذلك أن العباسيين كانوا يعادون الأمويين، فوضعوا في زمن ملكهم روايات عديدة ليوهموا فيها الناس بأن الأمويين ما كانوا يرغبون في العلم والثقافة كما أَنَّهُم لم يكونوا ذوي فطنة وذكاء.

وأما إذا اعتبرنا الرواية حديثًا صحيحًا فإنها مع ذلك لا تحقق غرض القسيس. ذلك أن الإنسان الذي ما كان له في الحياة لفترة طويلة أيُّ عمل إلا هداية الناس ونصحهم وإملاء القرآن على الكَتَبَة لا يمكن أن يصعب عليه التمييز بين الباء والسين، وبالتالي سيوجه كاتبه لإتقانهما، ولا يشترط لذلك أن يكون ملمًا بهذا الفن. فمن الممكن أن يكون أحد الصحابة قد تباطأ أمام النبي مرةً في قراءة ما كتبه معاوية من الوحي، فسأله عن سبب التأخير، فأجاب: لا أستطيع قراءة المكتوب أمامي لأن الباء هنا ليست طويلة بما يكفي، أو أن أسنان السين ليست بارزة واضحة. فأدرك بذلك النبي ﷺ أن الباء يجب أن تكون منبسطة طويلة وأن السين يجب أن تكون بارزة الأسنان، وبناء على ذلك أمر النبي ﷺ كاتبه معاويةَ بإتقان الحرفين كي لا يشتبه الأمر على القارئ. ففي بلادنا مثلاً يقول الرجل أحيانًا لزوجته وهي تخبز: اجعلي الرغيف مستديرا فإنه ليس مستديرا. فهل يستنتج أحد من قوله هذا أنه خبَّاز ماهر إذ يرشد زوجته في هذا الفن. كلا فلا دليل إذن في الرواية على ما يزعمه القسيس.

رابعا: يقول القسيس: إن محمدًا كان قد أمر بإحضار القلم والدَّواة قبل وفاته، مما يدل على أنه كان يريد كتابة شيء ما، وبهذا فهو كان يعرف فن الكتابة.

إن استدلاله هذا باطل أيضًا، لأن النبي ﷺ في حياته النبوية كان يأمر دائمًا صحابته بإحضار القلم والدَّواة، عندما أراد إملاء الوحي القرآني، فكيف يثبت من ذلك أنه

كان ملما بهذا الفن ؟

خامسا: إن آية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ لا تدعم زعم القسيس. ذلك أن كلمة القراءة لا تعني دائمًا قراءةَ عبارةٍ مكتوبةٍ فحسب، بل تعني أيضا ترديد ما يقول الغير. فمثلاً إذا كان هناك أحد يجيد قراءة القرآن وإن كان كفيفا فيقولون أيضًا: إنه يُحسن القراءة. فاستدلالهم من قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ لا يستقيم بأي شكل أبدا. والثابت من حديث صحيح أن جبريل لما قال للنبي ﷺ عند بدء الوحي: ﴿اقْرَأْ﴾ ما وضع أمامه أية عبارة مكتوبة، وما كان جبريل يقصد بقوله هذا: اقرأ العبارة الموضوعة أمامك، وإنما يعني: ردِّدْ ورائي ما أقرأ عليك.

سادسا: أما قول القسيس: إن الناس انخدعوا بقول "النبي الأُمي" فهو أيضًا قول عجيب. أليس من المحيِّر والمدهش الزعمُ أن الناس لم يدركوا رغم عيش النبي بينهم دون انقطاع، ما إذا كان مُلمًّا بالقراءة أم لا، ولكنهم علموا بورود كلمة النبي الأمي علم اليقين أنه جاهل بفن القراءة والكتابة.

إننا نسأل القسيس: من ذا الذي انخدع بكلمة الأمي؟ هل هم أولئك الذين عاشوا مع النبي أم الذين جاءوا بعدهم؟ فلو قيل: من عاش معه، قلنا: كيف انخدعوا بهذا الوصف مع أنهم رأوه بأم أعينهم يقرأ ويكتب كما يزعم القسيس؟ ولو قيل: لقد انخدع الذين جاءوا بعدهم، قلنا: إنما دليلكم على أن وصف "النبي الأمي" هو الذي أدىّ بالناس إلى الاعتقاد الخاطئ أنه يجهل فن القراءة والكتابة، ومع ذلك أتى بمثل هذا الكتاب العظيم، فاعتبروه -بسبب هذا الاعتقاد الخاطىء- معجزة. في حين أن المعجزة القرآنية عُرضت أول ما عرضت في زمن الصحابة، وسؤالنا: إذا كانت كلمة "النبي الأُمي" هي الخدعة التي جعلت الناس يعتبرون القرآن معجزة محمد، فكيف يمكن للصحابة أن يعتبروه معجزة محمدية مع علمهم أن الرسول ملم بهذا الفن؟

وسؤالنا الثاني هو: إن العرب قد أسلموا والنبي ﷺ حي يرزق، وهم الذين كانوا في الحقيقة قادرين على إدراك الإعجاز القرآني من ناحية اللغة العربية الراقية، فما

كانوا لينخدعوا بخدعة "النبي الأمي" وحدها إذا كان القرآن خاليًا من الإعجاز اللغوي. وأما الذين جاءوا من بعدهم من العجم فما كانوا في الحقيقة قادرين على إدراك محاسن اللغة العربية إلا ما شذ وندر. فكون القرآن معجزةً في لغة الضاد أو عدمه كان سواءً عندهم وما كانوا لتنطلي عليهم خدعة "النبي الأمي" كما يزعم القسيس. فأين إذًا أولئك الذين انخدعوا بها وأساءوا فهمها، فظنوا خطأً أن القرآن معجزة مع أنه في الحقيقة ليس كذلك؟

لاشك أن كلمة "أمّي" باللغة العربية تعني أصلاً من لا يعرف الكتابة والقراءة، نسبةً إلى الأم، لأن الكتابة والقراءة مكتسبة، فهو على ما ولدته أمه من الجهل بالكتابة (الأقرب). غير أني أرى أن هذه التسمية ترجع إلى ما في الطفل من براءة وطهارة، إذ إنه يولد طاهرًا بريئًا من المساوئ، وبهذا المعنى أُطلقت الكلمة أيضًا على النبي ﷺ. أما اليهود فكانوا يطلقونها على العرب على سبيل الاحتقار معيِّرين إياهم بالجهل والغباء. فهل يقبل أيُّ عاقل أن القرآن لم يستخدم الكلمة بمعناها الأصلي وإنما بالمعنى الذي كان الأعداء يطلقونها على العرب احتقارًا لهم وازدراء بهم. ولنفترض أن القرآن كلام محمد وليس بكلام الله تعالى، ومع ذلك فهل يُعقل أن يطلق النبي ﷺ على قومه وعلى نفسه هذه التسميةَ التي كان أعداؤهم يطلقونها عليهم تحقيرًا وتشنيعًا ؟!

سابعا: قال القسيس: لو قال أحد: كان محمد لا يعرف الكتابة ولذلك كان عنده كَتَبَةٌ يكتبون وحيه، فهذا أيضا ليس بدليل مقنع، لأن الاستعانة بالكتبة كانت عادة شائعة بين كبار علماء زمانه.

إن هذا خطأ تاريخي فاضح من القسيس. يبدو أنه قرأ حادثا كهذا من العصر العباسي وقاس به الحالة السائدة في زمن النبي وأتى بهذا الاستنتاج الخاطئ. الحق أنه لم يكن بين العرب في زمن النبي ﷺ علماء كهؤلاء، كما لم يكن عندهم أي كتبة. وما يزعمه القسيس أمرٌ لم يستطع المؤرخون المسيحيون إلى الآن أن يبرهنوه ولو بمثال واحد من التاريخ، و لم يقدروا على أن يثبتوا أنه كان عادة شائعة في

ذلك العصر. كان في مكة عندئذ عالم واحد فقط هو ورقة بن نوفل، كما يذكر التاريخ، ولكنه كان يكتب بنفسه، و لم يستخدم أي كاتب (البخاري: بدأ الوحي).

فالأسف كل الأسف على أن التعصب دفع هؤلاء الكتاب المسيحيين لاختلاق أمورٍ زائفة من عند أنفسهم ليعرضوها على أنها حقائق تاريخيّة !!

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

افترى: فرى الشيءَ فَرَيًا : قطعه وشقه . افترى عليه بالكذب: اختلقه (الأقرب).

لا يفلح: أفلح الرجل: فاز وظفر بما طلب . أفلح بالشيء: عاش به. أفلح زيد: نجح في سعيه وأصاب في عمله (الأقرب).

مجرمون: أجرم: أذنب؛ عَظُمَ جرمه. وأجرم عليهم الجريمة: جنى. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا حقيقتين هامتين: أولاهما؛ أنه لا يمكن أن ينجو من العذاب بحسب القانون الإلهي اثنان: الأول: من اختلق الكلام من عند نفسه وعرضه على الناس على أنه كلام إلهي، والثاني: من ناصب العداء لمن يأتي بكلام من الله.

والحقيقة الثانية هي أن المفترين على الله كذبا لا يفلحون أبدًا في مرامهم، بمعنى أن الهدف الذي يذكرونه لبعثتهم لا يتحقق، وأن التعليم الذي يعرضونه للعالم لا يُكتب له الانتشار .

إن القرآن الكريم في معظم الأحيان قد ذكر الافتراء الذي يعاقَب صاحبُه مقرونًا بكلمة الكذب، مع أن الافتراء وحده جريمة نكراء. وأرى أن الحكمة من وراء

استخدام هذا الأسلوب القرآني هي أنه لو افترى أحد على الله تعالى بأمر صحيح حق فلربما لا يعاَقب بالجريمة المذكورة هنا، وإن عُدّ من المجرمين وعوقب بعقوبة أُخرى لا محـــالـــة. فعلى سبيل المثال قد يـــدّعي شخص أن الله تعالى أخبره بالرؤيـــا أن محمدًا ﷺ رسول صادق. فلو أنه لم يرَ أي رؤيا في الحقيقة فسيُعَدُّ مفتريًا، وإن لم يكن افتراؤه كذبًا، بل هو حق، ولا ضرر في افترائه على الناس، وإنما كَذَبَ كذبةً تخص ذاته، وجاء بعمل دمّر به تقواه هو، فلذلك لا يعاقَب بالعقوبة المذكورة في الآية، بل يلقى من العقوبة ما يلقاه أي كاذب عادي آخر.

ولنتذكر أيضًا أن الله ﷻ قد قال هنا: إن المفتري لا يفلح في هدفه، ولم يقل: إن المفتري لا يمكن أن يجمع حوله فريقًا من الناس أو أنه لن يزدهر ازدهارًا ماديًا. كلا، بل من الممكن تمامًا أن يجمع حوله طائفة من الناس أو أن يحقق ثراءً ماديا. ذلك أن لا أحد من المدّعين يقوم لمجرد جمع زمرة من الناس حوله، وإنما يذكر كل واحد منهم هدفًا روحانيًا من نشر شرع جديد أو تجديد شرع قديم، فما لم ينجح في نيل هدفه الحقيقي هذا فلن يعدّ مفلحًا. وهذا مقياس عظيم لمعرفة صدق المدّعين أو كذبهم، ولا يمكن أن يستغله أي كذاب، كما أنه يبرئ الصادقين منهم مما يثار ضدهم من طعن واعتراض. فمثلاً قُتل النبي يحيى عليه السلام، ولكن هذا لم يخلّ بهدفه شيئًا، ولم يقدح في كونه مفلحًا، لأن غاية بعثته كانت تتمثل في أن يعرِّف الناس بالمسيح ويمهد السبيل لتصديقه. وقد نال غايته هذه رغم قتله حيث كان حضرته بمثابة عالمٍ برزخي بالنسبة للأمة اليهودية، وقد بُعث إليهم ليهيئ النفوس لقبول المسيح عليه السلام، وقد حقق غاية بعثته هذه حيث بدأ اليهود فعلاً بانتظار ظهور المسيح بينهم، وقام كل أتباع يحيى بتصديق المسيح حتى لم تعد له جماعة مستقلة، بل كلهم انضموا إلى جماعة المسيح عليهما السلام.

وكما ذكرت آنفًا فإن هذا المقياس يكشف زيف وكذب المتنبئين الكذابين، ومثال ذلك زعيم البهائيين "بهاء الله". فلنفترض أنه كان في الحقيقة قد ادّعى النبوّة، وليس

الألوهية، وأن عدد أتباعه وصل إلى مئات الآلاف، فإنه مع ذلك لن يُعَدَّ صادقًا بهذا الدليل. ذلك أن غاية بعثته كما بيّن هو بنفسه هي أن يبرهن على أن الشريعة الإسلامية ناقصة ومنسوخة، وأنه قد جاء مكانها بشرع جديد؛ الشرع البهائي. ولكن لم تتحقق له هذه الغاية في أي بيت ولا في أي يوم، بل على العكس من ذلك فقد ازداد إقبال الناس على القرآن الكريم، حتى بدأ كثير من الأوروبيين يصدقون القرآن الكريم اليوم وقد كانوا بالأمس القريب يكذبونه ويكفرون به. فالشريعة الإسلامية التي جاء البهاء لإلغائها ونسخها على حد زعمهم تنال كل يوم رضًا وقبولاً لدى الناس، ولكن شريعته هو قد طُويت بيد النسيان. ولو أن أميركا كلها اعتنقت البهائية فلن يُعتبر البهاء أيضًا مفلحًا ما لم تنتشر شريعته وتتوطد في العالم كلّه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

دون: نقيضُ فوق؛ أسفل؛ أمام؛ وراء؛ فوق؛ غير؛ الشريف؛ الخسيس (الأقرب).

تنبئون: النبأ: الخبر. وفي الكليات: النبأ والإنباء لم يردا في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأن عظيم (الأقرب).

سبحانه: سبحان الله: أي أبرئ الله من السوء براءةً (الأقرب).

يشركون: أشرك بالله: جعل له شريكًا (الأقرب).

التفسير: الواقع أن الباعث الحقيقي على الإشراك بالله إنما هو الجهل بغاية خلق

الإنسان، وأن المشرك يسيء الظن بالله وبنفسه هو. ذلك أن أساس الشرك إنما هو الزعم الخاطئ أننا لا نستطيع الوصول إلى الله دون وسيط، كما أنه هو سبحانه وتعالى لا يقدر على أن يصل إلينا إلا بوسيط. والإسلام يعارض هذا الزعم بكل شدة. إنه لا يسمح للإنسان أن يسيء الظن بخالقه، كما لا يسمح له بالقنوط من القدرات الكامنة في النفس البشرية. لقد خلق الله العباد ليصلوا إليه ولا يرضى أبدا أن يحول دونه ودون العباد أحد كائنا من كان.

وقوله تعالى ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ يحتوي على دحض لطيف لعقيدة الشرك حيث ذكر أنه لو كان هناك في السماوات أو الأرض شفيع معين من قبل الله يتوسط بينه وبين العباد لجاء الإعلان عن تعيينه من قبل الله لا من جانبكم أنتم، كما تنشر الحكومات اليوم أسماء موظفيها الكبار في دورياتها الرسمية. ولكن العجيب أنه بدلا من أن يخبر الله بتعيين وسيط من عنده تهبّون أنتم لتعلنوا للناس أن فلانا قد صار شريكا وسيطا لله تعالى، في حين أن كافة الأنبياء –ولا يتعدى منصبهم منصب حامل خبر من واحد إلى آخر– يتم تعيينهم دائما من قبل الله تعالى وبإعلان منه. فما بال هؤلاء الذين تروهم شركاء لله في ملكوته تنصبونهم بأيديكم، دون أن ينهض على وجودهم أي دليل من الوحي والإلهام؟ وكأنكم أول من يعرف تعيين هؤلاء الشركاء، فتقومون بدوركم وتخبرون الله بذلك! تأخذون حجرا وتنصبونه في مكان وتسمونه إلهًا، أو تختارون إنسانًا، هذا الكائن الحقير الضعيف، وتعزون إليه قدرات وصفات تخص الله تعالى وحده في الحقيقة!!

وقد ذكر هنا كلاً من السماء والأرض لأنهم زعموا أن هناك آلهة في السماء وأخرى في الأرض.

ووضّح بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أنه لا يليق بالإله الكامل الصفات والمحاسن أن يخلق الإنسان لغاية معينة، ثم يعرقل سبيله إلى تحقيق غايته بشتى العقبات التي لا يجد لتذليلها هديا سماويا، وكأنه تعالى بنفسه يبطل عمله ويفسد

خطته. إن لله بريء من مثل هذه العيوب وأسمى من هذه النقائص.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

أمة: الأمة: الجماعةُ، الجيلُ من كل حي، الطريقةُ، الدينُ، الحينُ، القامةُ (الأقرب)

اختلفوا: اختلف: ضد اتفق. اختلف زيد عمرا: كان خليفته، جَعَله خلفَه؛ أخذه من خلفه. واختلف إلى الخلاء: تردد إليه. (الأقرب)

كلمة: الكلمة: اللفظُ كلٌّ ما ينطق به الإنسان (الأقرب)

قُضي: قضى بين الخصمين: حكم وفصل (الأقرب)

التفسير: للآية عدة معانٍ منها:

الأول: لقد هدينا الناس في بداية الأمر إلى طريق سليم واحد، ولكنهم انحرفوا عنه فيما بعد وفسدوا.. أي أننا خلقنا الإنسان مجبولاً على الرشد والهداية وأخبرناه بالصراط السويّ، ولكنه انحرف عنه واتجه إلى الضلال.

ونتوصل بهذا المعنى إلى الحقيقة بأن الله تعالى إنما خلق الإنسان من أجل الهداية، ولذلك دلّه على سبيل الرشد والهدى، ولو أن الله تعالى خلقه لإلقائه في جهنم للأبد -كما يظن البعض لسوء فهمهم الآيات القرآنية (تفسير ابن جرير)- لوجّهه منذ البداية إلى طريق جهنمي، فإذا انحرف عنه أدخله الجنة!

الثاني: إن توحيد الناس إنما يتم دائما بواسطة الأنبياء. إننا نرسل إليهم نبيًا فيهديهم إلى الصراط السوي، ولكنهم يختلفون فيما بينهم بعد فترة، ولولا قضاؤنا منذ البداية

أن لا نعذب قوما إلا بعد الإنذار والتحذير لقضينا على هؤلاء المختلفين. ولكنا نرسل إليهم بحسب هذا الوعد نبيًا آخر، فيتحدون مرة أخرى، ثم يشرعون بعد فترة في الاختلاف من جديد، وهكذا.

ولنتذكر،نظرًا إلى هذا المعنى، أن الذي يشتِّت هذه الوحدة الحاصلة بواسطة الأنبياء إنما يدفع الدنيا إلى هوة الهلاك، ولذلك فإنه يستحق أشد العذاب.

الثالث: إن الناس دومًا يسلكون سبيلاً واحدًا هو معارضة أنبيائهم. فكما أنَّ الناس في الماضي عارضوا رسلهم وصدّوا عنهم، هكذا نرى دأبهم أيضًا. ولولا قضائي أنني ما خلقت الناس إلا لنيل الهداية وأن رحمتي فاقت غضبي لقضينا أمرهم وقطعنا دابرهم منذ زمن بعيد.

وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

الغيب: كل ما غاب عنك؛ ما غاب عن العيون (الأقرب)

التفسير: في قوله تعالى ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وردت كلمة (من ربه) وصفًا للآية والمراد: لولا أُنـــزلت عليه آية بينة، لأن الآية النازلة من عند الله تكون آية بينة.. أي أنها تشير بنفسها إلى غاية نـــزولها وكأنها آية تتكلم بنفسها.

لقد دأب معارضو الأنبياء منذ القدم على ترديد كلمة واحدة: ما نـــزلت عليهم أية آية. ومما يثير الدهشة أنه رغم استهلال هذه السورة بقوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾كان ولا يزال أعداء الرسول ﷺ يقولون: ما نـــزلت على محمد أيـــةُ آية!

وهذا يؤكد أن رؤية الآيات ليس بوسع كل إنسان، وإنما تتطلب رؤيتها عيونًا ترى بخشية ربها، وإلا فكيف ساغ لهؤلاء القوم حتى بعد نـــزول الآيات أن يظلُّوا مُصرّين على مطالبتهم قائلين: يا ليت نـــزلت معه آية. وفي زمننا أيضا كان ولا يزال المشائخ المعارضون لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام يرددون الكلام نفسه أمام الناس: هل تظنوننا مجانين حتى نرفضه رغم نـــزول الآيات معه؟ ويتناسى هؤلاء أن أعداء النبي ﷺ أيضا ما كانوا فاقدي العقول إذ لم يصدقوه، بل إن العائق نفسه كان حائلاً دون تصديقهم إيَّاهُ..أي خُلوُّ القلوب من خشية الله، فعميت أعينهم فلم يبصروا الآيات النازلة عليه.

وليكن معلومًا أن الآية تكون بمعنى العذاب إذا طالب بها الكفار، إلا أن يصرّحوا بمرادهم من الآية، فيعني قولهم هذا: لماذا لا ينـــزل الله علينا العذاب إذا كان محمد نبيًا صادقًا.

ويتضح من قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ﴾ أنه ليس ضروريا لمعرفة صدق الأنباء الإلهية أن يحدَّد بالضبط موعد تحققها، وإلا لما قال الله لنبيه أن قل لهم: إن العلم بموعد نـــزول العذاب هو عند الله وحده، بل أخبرهم بموعده عند سؤالهم عـــنه. ولـــــكنه اكتفى بقوله: العلم بموعده عند الله، وعندما يحين نـــزوله تتجلى عليكم الحقيقة تلقائيًا.

فالآية تتضمن درسًا للذين يعتقدون أن الأنباء الغيبية يجب أن يحدَّد موعد تحققها، فعليهم أن يصححوا تفكيرهم وموقفهم من الأنباء. عندما يقع أمر عظيم غير عادي بناءً على النبأ الإلهي بحيث لا يمكن أن يسمَّى صدفةً فيجب ألا ينكر تحققه كل إنسان ذي فطرة سليمة، بحجَّة أنّه كان المفروض أن يتحقق النبأ في وقت كذا أو كذا، لأن مثل هذا التصرف لا يدل إلا على تعنته وعناده.

وقوله تعالى ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ يشتمل على ردٍّ لطيف على مطالبة الكفار بالعذاب، حيث يقول الرسول: إني أنا الذي يجب أن يضيق ذَرعًا على تأخر العذاب،

لا أنتم، إذ تجعلونني أنا المسكين عُرضة لعذابكم وعدوانكم كل يوم. فلماذا تتعجلونه، بدلاً مني. أنتم قابعون في بيوتكم مطمئنين، بينما أتعرض أنا للتعذيب والإهانة، ولا يُسمح لي بالخروج من عتبة بيتي، ورغم هذا كله فأنا مطمئن متمسك بأهداب الصبر، وأمَّا أنتم فإنَّكم قلقون بسبب تأخر العذاب. أيها الحمقى، طالما أنا المضطهد أنتظره صابرا فلماذا يصعب عليكم انتظاره؟!

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

أذقنا: ذاق المكروه: نـــزل به فقاساه. أذاقه: صيّره يذوق. والذوق يكون فيما يُكرَه ويُحمد. (الأقرب).

ضرّاء: الضرّاء: الشدةُ، النقصُ في الأموال والأنفس، الزمانةُ (أي العاهة)، وهي اسم مؤنث من غير تذكير (الأقرب)

مكرًا: المكر: الخداعُ، جزاءُ المكر، سُمّي به كما سمّي جزاء السيئة سيئةً مجـــــازًا علـــــى سبيل مقابلة اللفظ باللفظ، مَكَرَ الله فلانا: جازاه على المكر. وقيل: المكر صرفُ الإنسان عن مقصده بحيلة، وهو نوعان: محمود يُقصد فيه الخير ومذموم يقصد فيه الشر (الأقرب)

التفسير: قال الله من قبل (في الآية رقم ٢٠) لقد سبق قضاؤنا أننا خلقنا الناس لأجل رحمتنا، وأننا عملاً بقرارنا هذا نعاملهم دائما بالرحمة. وفي الآية التالية لها قال: إن الناس يطالبون رسلنا بالعذاب، ولكنا لا نتعجل في إنـــزاله عليهم بل ننـــزله على

مهل، لكي يهتدي منهم من كان له نصيب من الهدى. وقال في هذه الآية: لا ننـــزل العذاب على مهل فحسب، بل لا ننـــزله دفعة واحدة، وإنما نصيبهم بقسط منه ثم نرفعه لكي يدركوا أن تكذيب الرسل يعرّض الإنسان للعذاب، وأن العذاب قادم لا محالة عليهم وبالتالي يرتدعون عن سلوكهم المشين ويكفون عن الظلم والعدوان. ولكن أصحاب الطبائع الشريرة لا يبالون بهذا النصح والإنذار، وإنما دأبهم أن يرتدعوا قليلاً عند نـــزول العذاب، وما أن نخففه عنهم حتى يستأنفوا التنكر لآياتنا ورسلنا من جديد. والحق أننا أشد منهم عذابًا وأسرع منهم مكرًا، ولكنا نؤجله عمدًا، فلا أعمالهم خافية علينا حتى نعجل بالانتقام منهم خوفًا من نسياننا إياها، كما أنّهُ لم يضق بنا الوقت لإنـــزال العذاب عليهم بحيث نخاف أننا إذا لم نعاقبهم في وقت معيَّن فلن نقدر على عذابهم في موعد لاحق. كلا بل إننا لقادرون على ضربهم في أي وقت نشاء، كما لا تخفى علينا منهم خافية وإن أخفوها.

كما تبين الآية أيضا أن من فطرة الإنسان أنه إذا أَنعم الله عليه برحمةٍ من لدنه ظن أنه سيعيش على الدوام دائما في راحة ورخاء، مع أنه لو فكر –وهو في هذا اليسر والرخاء– في ساعة العسر والبلاء ودبّر لها، لنال راحة أطول ورخاء أكثر.

ومن المؤسف أن المسلمين لم يعوا هذا الدرس القرآني أيضا، فكان مآلهم هذا الذل والهوان، بل إنهم لا يعملون به اليوم، إذ لا يحافظون على أموالهم وثرواتهم بحكمة وتعقّل، بل يبذرونها تبذيرًا، أو يبخلون بها وقت الإنفاق، والنتيجة في الحالتين واحدة: الهلاك والدمار.

إن الآية تحمل أيضًا ردًا على تساؤل الكفار السابق: إذا كان محمد صادقًا في دعواه فلماذا لا يأتينا بالآية أي بالعذاب؟ فأجاب الله فيها: لقد أنـــزلنا صنوفًا من العذاب، ولكننا نردفه برحمة منا عملاً بسنتنا المستمرة، ولكنكم سرعان ما تنسون العذاب لشقاوة قلوبكم وتأخذون في المطالبة به من جديد.

وإنه لمما يبعث على الأسف أن المسلمين اليوم مصابون بهذا الداء أيضا. تحل بهم

آفة بعد آفة وتنتابهم كارثة تلو كارثة، ولكن ما أن يكرمهم الله تعالى بين محنة وأخرى بساعات من الرحمة وفق سنته مع جميع المخلوقات إلا ويعودون إلى غفلتهم السابقة دون التفكير في سبيل النجاة مستقبلاً.

وبيّن بقوله ﴿قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أن مكائدهم لن تأتي بالنتائج المنشودة، لأن كيدنا أسرع نتيجةً من كيدهم، فكل ما يكيدون به نرتب عليه عواقبه أولاً بأول، وكلما دبّروا مكيدة قابلناها بما يحبطها ويفشلها. أما إذا كدنا نحن بهم كيدًا فسوف تظهر نتائجه قبل أن ينتبهوا إليها.

هناك من يعترض: لماذا يُطحن الأبرياء في رحى العذاب عندما يحل بالظالمين؟

الواقع أن هؤلاء المعترضين لا يرون الوجه الآخر من الصورة، كيف أن الله تعالى -من أجل هداية زمرة من الناس- يمنح الأمان لآلاف من الأشرار. أما وقوع بعض الأبرياء في الأذى مع الظالمين فذلك لأن الناس ذوو طباع مَدَنية يفضّلون العيش معًا فيتأثر بعضهم من بعض، ولا بد أن يتقاسموا إلى حد ما أفراحَهم وأتراحَهم. ولذلك فعندما يحل العذاب بالظالمين يصاب جيرانهم الأبرياء أيضا ببعض الأذى.

لقد نسب الله هنا الرحمة إلى نفسه دون الضراء. ذلك أن النعمة تنـــزل بمحض رحمة الله تعالى، وأما الأذى فيترتب على أعمال الإنسان نفسه.

وبقوله تعالى ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أشار أيضا إلى أننا ننـــزل عليهم النعم ونصنع بهم الجميل، ولكن هؤلاء يتنكرون لصنيعنا ويحاربوننا بنعمنا. نمدّهم بالأموال وغيرها فيستخدمونها لمحاربة رسلنا ومخالفة تعاليمنا.

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ

الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

يسيّر: سار: ذهب في الأرض. سيّره: جعله سائرا (الأقرب).

الفُلك: السفينة يذكّر ويؤنّث (الأقرب)

عاصف: عَصَفَ الزرعَ: جَزَّه قبل أن يدرك. عصفت الريحُ عصفًا وعصوفًا: اشتدت. العاصفُ: المائلُ من كل شيء.(الأقرب)

ظنّوا: الظّن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويُستعمل في اليقين والشك. (الأقرب)

أُحيط: أحاط بالأمر: أحدق به من جوانبه. وأُحيط به: دنا هلاكه. (الأقرب)

الدين: هو الجزاءُ والمكافأة؛ الطاعةُ؛ الذلُّ؛ الحسابُ؛ القهرُ والغلبة والاستعلاء؛ السلطانُ والملك والحكم؛ التدبيرُ؛ اسمٌ لجميع ما يُعبد به الله؛ الملةُ؛ الورعُ؛ القضاءُ (الأقرب) وهناك معانٍ أخرى للكلمة تركناها لعدم انطباقها هنا.

التفسير: لقد صرّح في الآية أنه تعالى يواصل بدوره إنـــزالَ فضله أو عقابه، ومن ناحية أخرى يستمر الكفار بدورهم في شرورهم وقت الرخاء والراحة أو في توبتهم الناقصة عند الضيق والعقاب. ولكنهم لا يفكرون -للأسف- أنه كما تتحول الريح الهادئة الطيبة إلى إعصار مدمّر، كذلك فمن الممكن تماما أن ينقلب الفضل الإلهي عليهم إلى عذاب مهلك. فنبّههم إلى ما يمرون به من ظروف وطوارئ في البر والبحر، ولبيان ذلك ضرب لهم مَثَلَ سفرهم على مياه البحر، لكون الماء ذا علاقة بالوحي الإلهي، وقال: فكما أن الريح الطيبة في البحار تأخذ شكل الطوفان المدمّر أحيانا، كذلك يمكن أن يحدث مع الكفار، فلذا يجب ألا يغتر أعداء الأنبياء هؤلاء عندما

يمهلهم الله تعالى برفع العذاب عنهم، فلا يظنوا خطأً أنه قد رُفِعَ وزال عنهم إلى الأبد، بل عليهم أن يخشوا أن يكون وراء هذا الهدوء المؤقت عاصفةٌ هوجاء.

كما بيّن الله ﷻ أنه عندما يصيبكم العذاب تلين قلوبكم وتستكين مستيقنةً أن لا قِبل لكم بمكر الله وكيده، وتَعِدون الله وعودًا عريضة بالتوبة والإصلاح، ولكن هل تبقون بعدئذ على هذه الاستكانة والخشوع؟ هذا ما يرد عليه الله في الآية التالية.

لقد استخدم في بداية الآية ضمائر الخطاب واستبدل بها ضمائر الغائب فيما بعد. لماذا؟ الواقع أن في ذلك إشارةً إلى أمر لطيف للغاية وهو أن ضمائر الخطاب في البداية كانت تشمل المؤمنين والكفار معًا، لأن الله تعالى قد خلق أسباب الرحلات البرية والبحرية للناس كافة، سواء المؤمن فيها أو الكافر، ولكنّ فريقًا منهم يتجه بعد ذلك إلى الكفران بهذه النعمة، فلذا بدّل الضمائر فيما بعد مشيرًا فقط إلى الفريق الكافر بالنعمة، وقال: عندما تجري بهم السفن على مياه البحار يأتون بهذه الأعمال المتضاربة، حيث يتوبون إلى الله وقت الشدة متضرعين، ثم بعد الفوز بالنجاة يولّون عنه مدبرين.

فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

يبغون: بغاه يبغي بغيًا وبُغاء وبُغية وبِغية: طلبَه. بَغَت الأَمَةُ: زنت. وبغى فلان: عدا عن الحق واستطال عليه وظلمه (الأقرب)

متاع: المتاع: كلُّ ما يُنتفع به من الحوائج كالطعام والبزّ وأثاث

البيـــــت والأدوات والسلع؛ وقيل: المتاع في اللغة كلُّ ما يُنتفع به من عروض الدنيا كثيرِها وقليلها سوى الفضة والذهب، وعُرفًا كلُّ ما يلبسه الناس ويبسطونه. وقال في الكليات: المتاع والمتعة: ما يُنتفع به انتفاعا قليلا غير باقٍ، بل ينقضي عن قريب. وأصل المتاع ما يُتبلغ به من الزاد (الأقرب)

التفسير: لقد بين هنا أنكم ترجعون إلينا عند حلول الشدائد، وتسلكون سبيل البغي والفساد مرة أخرى عندما نرفعها عنكم، دون التفكير أن وبال غيّكم وتمردكم سيكون عليكم. ذلك ليبيّن أن أحكام الشرع ليست بضريبة حتى يظن الإنسان أن تهرّبه منها يخلصه من المصيبة، وإنما يأمره الله بها لينجو بالعمل بها من الهلاك، فتهرُّبه منها لن يضر إلا نفسه. والحق أنه عندما يكون فرحًا فخورًا على تمكنه من الهروب منها فإن مستقبله يبكى عليه لما ينتظره من مصير تعيس. فكلمة ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾ تشير إلى أن الإسلام لا يعتبر الشرع لعنة، بل رحمة ربانية، وأن الله تعالى إنما يأمر الناس بما ينفعهم، ففرارهم من إتباع الأوامر الإلهية لن يؤدي إلا إلى هلاكهم هم، شأنهم في ذلك شأن المريض الذي يخالف أوامر الطبيب، فهل تؤدي مخالفته له إلا إلى زيادة مرضه وتفاقم آلامه؟.

وبقوله تعالى ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ردّ على سؤال هام: لماذا نرى أحيانا أناسا يخالفون الشرع ويعارضون الأنبياء ومع ذلك يحققون رقيًا ماديا ويجنون مُتع الدنيا؟ فقال: هناك أعمال وممارسات يجد الإنسان متعة عند القيام بها، ولكن عندما تظهر عواقبها بعد حين يجدها وخيمة مهلكة، فمثلا يتناول المريض في بعض الأحيان طعامًا ضارًا بصحته ومع ذلك يجد في أكله متعةً ولذةً، ولو أنه تضرر فور أكله لامتنع عنه، ولكنه يدرك بفداحة خطئه فيما بعد عند اشتداد مرضه وآلامه.

كما أشار الله ﷻ -بتسمية الأموال الدنيوية متاعا- إلى أن أموال الدنيا وأسبابها إنما هي بمثابة الزاد، وكما أن المسافر إذا أضاع زاده تضرر وهلك كذلك فمن بذّر أمواله فيما لا يحقق غاية خلقها ووجودها تضرر وبقي محروما من تحقيق غاية خلقه،

ألا وهي اللقاء بالله والوصال به جل شأنه.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

مَثل: المَثَل: الشِّبهُ والنظير؛ الصفةُ؛ الحُجةُ؛ الحديثُ؛ القولُ السائر. (الأقرب)

اختلط: اختلط: امتزج واختلط الجَمَل: سمن؛ واختلط الظلام اعتكر (أي واشتد). (الأقرب)

الأنعام: واحدها: نَعَم؛ وهي: الإبل والشاة؛ وقيل: خاص بالإبل. قال أبو عبيدة: النَعَم الجمال فقط، ويؤنّث ويذكّر. وقيل: الأنعام: ذوات الخف والظلف وهي الإبل والبقر والغنم. وقيل: يُطلَق الأنعام على هذه الثلاثة، فإذا انفردت الإبل فهي نَعَمٌ، وإن انفردت الغنم والبقر لم تُسَمَّ نَعَمًا. (الأقرب)

زُخرف: الزُخرف: الذهبُ؛ كمالُ حُسنِ الشيء. والزخرف من الأرض: ألوان نباتها. (الأقرب)

حصيدًا: حَصَدَ الزرعَ: قطعه بالمنجل. الحصيد: المقطوعُ بالمنجل؛ المستأصَلُ.

لم تغنِ: غني بالمكان: أقام به. وغني فلان: عاش (الأقرب)

التفسير: في هذه الآية تمثيل؛ يقول الله تعالى إن مَثل الحياة الدنيا ومتعها كمثل الماء، فكما أن الماء ينـــزل من السماء، وبه تنبت الأرض الخضرة أصنافا وألوانا، منها ما يأكله الناس ومنها ما تأكله الحيوانات الأخرى. وبرؤية هذه النباتات الخضرة النضرة يظن الإنسان أن كل هذا حدث بجهوده ومهارته، وبدلاً من أن يقول: هذا من فضل ربي، يظن أنه هو القادر على إحياء هذه الأرض.. عندها يأتيهم أمر الله أي نحيطها بالعذاب الذي يدمرها تدميرًا كاملاً، فلا يستطيع هذا الذي يزعم أنه قادرٌ على إحيائها بجهوده ومهارته أن يحميها من العذاب. كذلك حال الأمم، فإذا أصابهما داء الكِبْر والتباهي تراها قد آذنت بالهلاك والدمار.

لقد شبّه الله هنا كلامه بالماء. ذلك لأنه عند نـــزول الكلام الإلهي تقع في العالم انقلابات عظيمة، وتُخترع العلوم والمعارف صنوفًا وأنواعا، كما حدث لدى نـــزول القرآن الكريم، حيث نبغ من بين المسلمين علماء أفذاذ في جميع المجالات من أولياء ومحدثين وفلاسفة وغيرهم، حتى أتى على المسلمين زمان ظنوا أنهم قادرون على العلوم كلها وأنهم قد حصّلوها بمهاراتهم فقط، عندها أمسى هؤلاء العباقرة الأفذاذ أذلة مهانين في العالم. الحق أن هذه التغيرات الهائلة إنما تقع بسبب العامل نفسه الذي يُبعث من عند الله ﷻ ، ولكن عند اختفائه عن الأنظار يشرع الناس في الظن أن هذا كله إنما حدث بفضل جهودهم ومهارتهم.

وأما قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فاعلموا أن الفِكْر معناه حفظ ما يوجد بين أحداث الماضي من ترابط وتعلق. فالمعنى: إنما ينتفع من الهدي الإلهي مَن هُم واعون دومًا لأحداث الماضي ويعتبرون بها. وأما الذين ينسونها فلا ينتفعون من الهداية السماوية.

كما وتتضمن الآية إشارة إلى أن كل أُمة – مهما كانت قريبة العهد بنبيّها – لا يزال فيها الأشرار يعيشون مع الأبرار، ولكنها لا تهلك ما دام أبناؤها يخشون الله تعالى ويتوكلون عليه، وأما إذا أخذ داء الكِبْر والغرور يتفشى فيها هلكت وبادت. فلا

تقاوموا نبيكم، لأن معارضته دليل على الغرور، والمغرور هالك لا محالة.

وتذكر الآية أيضا أنه ما من كلام ينـــزله الله تعالى إلا ويختلف فيه الناس. فمنهم مـــن يراه خيرًا ومنهم من لا يرى فيه أي خير. ولكن الواقع أن الله تعالى لا يريد بإنـــزاله إلا أن يظفر عباده بأتّباعه بالدار التي ينعمون فيها بالراحة الحقيقية والسلام الحقيقي.

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

السلام: (قد سبق شرح معانيها تحت الآية ١١). والسلام أيضا من أسماء الجنة (الأقرب).

التفسير: يكون المتوكل على الله والمطيع الكامل له في حال ثابت دائم، لأن كل شيء في الكون يبغي سلامته، وكل الناس يدعون لبقائه، لأنه مصدر نفع عظيم للعالم.

والسلام معناه الطاعة أيضًا، فمعنى الآية أن الله تعالى سوف يبوِّئ عبده هذا مقامَ الطاعة والانقياد.. أي يأخذه من حال الطاعة إلى مقام الطاعة حيث يبقى دائمًا مطيعًا منقادًا له ﷻ.

والسلام يعني الجنة أيضا، فالمعنى أنه تعالى يجعله وارثًا لجنته.

والسلام اسمٌ من أسماء الله الحسنى، فالمعنى أنه تعالى يأخذه إلى داره.. أي يشرّفه بلقائه ووصاله ﷻ.

وقوله تعالى ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني أن الله تعالى يحقق لعبده هذا فوزًا سريعًا، ذلك أن الصراط المستقيم يكون أقصر الطرق وأسرعها إلى الغاية

المنشودة. وهذا يُسمّى موهبةً وهو مقام الأنبياء والأولياء. يدعو البعض ليأتوا إليه، ويذهب بنفسه إلى البعض الآخر، ويأخذهم إليه.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

الحُسنى: ضدُّ السوءى؛ العاقبةُ الحَسَنة؛ النظرُ إلى الله؛ الظفرُ؛ الشهادةُ (الأقرب)

يَرهَقُ: رَهِقَ الرجل رَهَقًا: سَفِهَ؛ رَكِب الشرَّ والظلم؛ غشِيَ المحارمَ؛ كذب؛ عجل. ورَهَقَ فلانًا : غَشِيَه ولحقه، يقال: رهقت الكلابُ الصيدَ؛ وقيل: دنا منه سواء أخذه أو لم يأخذه (الأقرب)

قتر: القَتَرُ: الغَبرة (الأقرب) والقترُ: الدخانُ الساطع من الشواء والعود ونحوهما (المفردات)

ذلة: ذَلَّ البعيرُ يذلّ ذُلاً: ضدُّ صعب، يقال: ذَلَّتْ له القوافي: سهلت (الأقرب) ويسمّى الشخص ذليلاً لأن الناس يجدون الظلم به أمرًا سهلاً.

التفسير: قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى﴾ يعني أن المؤمنين سوف يلقون مصيرًا حسنًا، ويحققون الفلاح أنواعًا، لأن الله تعالى سوف يَشحَذ قواهم ويبارك في سعيهم.

وقوله تعالى ﴿وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ يعني أنه تعالى سوف يشرّفهم بوصاله، ويحفظهم من أي ذلٍّ وهوان، ولن يرتعبوا من الآخرين.. أي أنهم لن يقلّدوهم كالعبيد المهانين الأذلين، بل سوف يهب لهم الله من المزايا ما يجعل الناس يقتدون بهم هم.

وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

عاصم: عصَم الشيءَ: منعه؛ حفظه (الأقرب)

قِطَعًا: جمعُ قطعة، وهي الحصة من الشيء (الأقرب)

خالدون: خلد بالمكان وإلى المكان: أقام به. (الأقرب)

التفسير: لقد صرّح الله تعالى هنا بعدة أمور:

الأول: أنه يجزي على الحسنة جزاءً مضاعَفًا، ولكنه يعاقب على السيئة بمثلها دائمًا، ولا يزيد عليها.

والثاني: أن الذين يخالفون التعاليم الإلهية يُحرمون من الهمم العالية، ويبقون مقلِّدين لغيرهم، فاقدي الجرأة على الإقدام والقدرة على الاختراع، ويرون أن الرقي كلّه في تقليد الغير. لا يفكّرون ولا يأملون أبدًا أن بوسعهم قيادةَ الآخرين وجَعْلَهم تابعين لهم.

والثالث: أن مثل هذه الشعوب المنهارة المتردية لا تستطيع بنفسها الخروج من الحضيض، بل هي بحاجة إلى مساعدة خارجية، ولكن حيث إنها قد أغضبت ربها فتُحرم من المساعدة الخارجية أيضًا.

والرابع: أنّه لا بد من انكشاف السيئة وافتضاح الظالم في آخر المطاف. وقد أخبر تعالى بذلك أن العالم أيضا سيطَّلع على مساوئ هذه الشعوب، فإذا كانوا لا يرتدعون عن ارتكاب المعاصي والمظالم إرضاءً لخالقهم، فيجب أن يفكروا على الأقل أنهم يعرّضون أنفسهم للفضيحة أمام الدنيا.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

مكانكم: مكانك: اسمُ فعلِ أمرٍ بمعنى اثبُتْ (معجم النحو للدقر)، فالمعنى: الزموا مكانكم واثبتوا فيه.

زيّلنا: زيّله: فرّقه. (الأقرب)

التفسير: إن الله تعالى يتحدث هنا عن ذلك الاجتماع العظيم الشأن الذي سيكون وسيلة لانكشاف الحقائق كلها في آخر المطاف، وإن كان إدراكها سهلاً على الإنسان إذا استخدم العقل الموهوب من الله تعالى.

ولنعلم أن الآية تتحدث هنا عن أولئك "الشركاء" الذين اتخذهم الناس شركاء لله سبحانه تعالى دون أي علم منهم بذلك مثل الملائكة، كرشنا، رام شندرا، عيسى والإمامين الحسن والحسين، وسيد عبد القادر الجيلاني وغيرهم عليهم السلام. فالآية تصرح أن هؤلاء الشركاء سوف يُشهدون اللهَ على جهلهم بما اقترفه الناس باسمهم من الأعمال الوثنية البغيضة، ويقولون للمشركين ﴿فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

وقوله تعالى ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يبين أيضًا أنه سوف يتَّضح يوم القيامة بأن هؤلاء القوم الصلحاء بريئون تمامًا مما فعله المشركون بهم وبسيرتهم، وأن الطوائف الوثنية التي اتخذتهم آلهةً كانت طوائف كاذبة في دعاواها.

ما أروَعَ المشهدَ الذي يصوِّره الله تعالى هنا.حيثُ يقول: سيأتي يوم يُحشر فيه الناس جميعًا، ثم يُقالُ للشركاء والمشركين: لا تبرحوا أماكنكم بل اثبتوا حيث أنتم واقفين. سوف يُؤمرون أولاً بالوقوف في أماكنهم، ثم يتم الفصل بينهم، ذلك ليُتيح

الله لهم الفرصة لإثبات دعواهم، وَعند انكشاف الباطل الذي اقترفوه سوف يبرّئ الله ساحة أولئك الصلحاء الذين أشركوهم كآلهة مع الله وهم لا يعلمون، فيفصلهم عن المشركين، فيعلنون بفرح وسرور براءتَهم من الذين أشركوهم بالله سبحانه وتعالى.

ولو قيل: إذا كان المراد من الشركاء هنا فقط من أشركهم الناس بالله ظلمًا دون علمٍ منهم، فلماذا لم يذكر هنا الشركاء الذين ينشرون الأفكار الوثنية؟ والجواب: إن ذكرهم مندرج في كلمة المشركين نفسها، لأنهم أيضا مشركون، وإنما ترمي الآية بهذا الأسلوب إلى إبطال دعوى معارضي الرسول ﷺ بأن أنبياء الله وأولياءه السابقين كانوا مؤيدين لعقيدتهم الوثنية، فردّ الله عليهم: ما هو دليلكم على دعواكم هذه؟. هؤلاء ما كانوا مؤيدين للشرك، وإنما هو قولكم بأفواهكم الذي لا أساس له.

فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٣٠﴾

التفسير:

هذه الآية هي أحد الأدلة على وفاة سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، إذ نعرف منها أن حضرته سوف يبقى إلى يوم القيامة جاهلاً بما اقترفه أتباعه من أعمال وثنية، إذ يتخذونه شريكًا لله سبحانه وتعالى. فكيف يمكن للمسيح عليه السلام – إن كان لا يزال حيًّا وسيرجع إلى الدنيا مرة أخرى وسوف يرى أعمال أتباعه النصارى – أن يقول لله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. (المائدة: ١١٨)

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

تبلو: بلاه يبلو بلاءً وبَلوًا: جرّبه واختبره (الأقرب)

مولى: المولى: المالِكُ؛ المُعتِقُ؛ الصاحبُ؛ القريبُ؛ الحليفُ؛ الوليُّ؛ الربُّ؛ المنعمُ؛ المحبُّ (الأقرب)

الحقّ: ضِدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضيّ؛ العدلُ؛ المِلك؛ الموجودُ الثابت، اليقينُ بعد الشك؛ الموتُ (الأقرب)

ضلّ: ضَلَّ يَضِلّ: ضِدُّ اهتدى. ضلّ فلان عن الطريق: لم يهتدِ إليه. وضل الرجل في الدين ضلالاً وضلالةً: ضدُّ اهتدى. ضلَّ الفرسُ: ذهب عنه. وذهب عني كذا: ضاع. وضل الماء في اللبن: خفي وغاب. وضلّ فلان فلانًا: نَسِيَه. ضلّ الناسي: غاب عنه حِفظُ الشيء. ضل عملُه: عَمِلَ عملاً لم يعُد عليه نفعُه. (الأقرب)

التفسير: لقد وضّح المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية أن حقيقة كل شيء – بكل تفاصيلها – لا تنكشف في هذه الدنيا، وإنما ستتجلى حقيقة الأشياء كلها بصورة كاملة واضحة في الآخرة فقط، ولهذا سيصدر هنالك القضاء الأصلي من قِبل المالك الحقيقي، وبسبب انكشاف كل أمر على الجميع هناك لن يلجأ الناس إلى الكذب أبدًا، لأنهم لن يستطيعوا خداع أحد بالكذب، لأن كل واحد يكون مطلعًا على الأمر الواقع.

وبقوله تعالى﴿مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ أشار إلى معظم ما ذكرناه آنفا من معانٍ لهذه الكلمة. كما نبّه العباد قائلا: إلى أين ستتجهون مُعرضين عن هذا الإله العادل، القائم بذاته، المنعم عليكم، وأَنَّى لكم أن تَفِرُّوا من عذاب هذا القدير القائم الثابت منذ

الأزل.

أما قوله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فَلَهُ معنيان، الأول: أنهم سوف ينسون أعمالهم، لأن الإنسان إذا أدرك خطأه حاول نسيانه. والثاني أنهم لن تغني عنهم أعمالهم شيئًا.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

التفسير: هناك آيات معدودة جدًّا من القرآن الكريم التي أشاد بها المفسرون المسيحيون، وهذه الآية واحدة منها. يكتب القسيس "ويري" فيقول: إن هذه الآية تحتوي على أدلةٍ قوية على عقيدة التوحيد، ومثل هذا التعليم القرآني كان سببًا كبيرًا في نجاح الإسلام وانتشاره (تفسير ويري للقرآن).

والعجب كلّ العجب أن هؤلاء القسيسين الأفاضل يُدْلون بهذا الاعتراف الواضح بفضل الإسلام من ناحية، ومن ناحية أخرى وفي الوقت نفسه يعزون رقيّ الإسلام إلى السيف والإغراء حينًا، وإلى التعاليم الأخلاقية المنحطة -على حدّ زعمهم- حينًا آخر.

لقد نبّه المولى ﷻ العبادَ هنا إلى أن رزقهم إنما يأتي من السماء والأرض كلتيهما، بمعنى أن الرزق الآتي من مصدر واحد فقط لا يكفيهم. فمثلا لو نـــزل المطر غزيرًا متواليًا، ولكن حُرمت الأرض القدرةَ على الإنبات فلن يجدي المطر شيئًا، أو لو أن المطر انقطع لمدة طويلة فلن تغني الأرض الخصبة شيئًا. كذلك هو الطبع البشري، فإن الإنسان لن يكفيه العقل وحده لضمان هدايته الروحانية، وإنما مَثل العقل الإنساني

كمثل الأرض العطشى، فما لم يَرتوِ العقل بماء الوحي الإلهي فإنه لن يقدر على إخراج النبات الروحاني الذي يغذي الروح. فكيف يمكنهم إذًا أن يدّعوا القدرة على الوصال بالله تعالى بعقولهم وحدها دون إتباع وحيه الذي أنـــزله على رسوله الكريم. إن للعقل نفعه دون شك، ولكنّ شأنه شأن العين، فكما أن العين وحدها لا تقدر على الرؤية بدون الضوء من مصدر خارجي كالشمس، كذلك فإن العقل وحده لا يستطيع التوصل إلى النتيجة الصائبة بدون نور الوحي السماوي.

ثم سأل ﷻ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ﴾.. أي أنَّه لَو كان السمع والبصر مِلْكًا لأحد بينما كانت هداية الناس مسؤولية كائن آخر لَحقَّ لكم أن تحتجوا بقولكم: إن هذا المسئول لم يبالِ بأداء واجبه إذ لم يهيّئ للسمع والبصر الروحانيين ما ينفعان به. أما إذا كان الذي وهب لكم السمع والبصر هو نفسه المسئول عن هدايتكم أفليس من الحماقة والغباء أن يُظن أنه خلق لكم هاتين الحاستين، ولكنه تركهما عاطلتين و لم يهيئ وسيلةً تساعدكم على الانتفاع بهما.

ثم يقول: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.. أي من ذا الذي يُخرج الأبرار من صلب الأشرارَ والأشرار من ذرية الأبرار، ويُخرج الأحياء من الأموات ويأتي بالعكس أيضا. تُلقون في الأرض البراز كسمادٍ وهو شيء لا حياة فيه، ولكن يخرج به زرعٌ خَضِرٌ، كما ترون الزرع الخَضِر يموت ويصبح هشيمًا، أو يصير برازًا عندما يأكله الناس والحيوانات. وما دمتم ترون عملية خروج الأحياء من الأموات، والأموات من الأحياء، فكيف تتوقعون من الله تعالى أن يتعجَّل عِقابَ الناس بكفرهم دون أن يمنح لهم فرصةً للتوبة والصلاح. فإذا كان الشيء الميت في الظاهر تعود فيه آثار الحياة فلماذا تستبعدون أن تتفجر من قلب ميت عينُ الحياة الروحانية في وقت من الأوقات. وما دام هذا الاحتمال واردًا فلماذا لا يمنحهم الله مهلةً لكي يُحييَ منهم من كان له في الحياة الروحانية نصيب.

ثم يتساءل الله تعالى ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾.. أي من ذا الذي يشرف على إدارة النظام

الكوني؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾. قل: أوليس عجيبًا أن يقوم هذا المشرف على تدبير الكون بتدميره وتخريبه بيده، كما تزعمون؟ هل المشرف على شيء يصنعه أو ماكينة يديرها.. ترونه مهتمًا بسلامة هذه الأشياء أم يدمّرها ؟ كلا، لا أحد من العقلاء يُقدم على تدمير ما يملكه وإنما يسعى للانتفاع به ما استطاع إليه سبيلاً. فلماذا يعجّل الله إذًا بتدمير صنعته الكونية هذه التي تتجلى بها قدرته وعظمته، وإنما ينبغي أن يسعى لإنقاذها من الدمار بدلاً من تدميرها بيديه.

وهذا ردّ على اعتراض الكفار أنه ما دام الله قد أنذرنا بالهلاك فلماذا لا يحقق إنذاره هذا على الفور.

الاتقاء معناه: اتخاذ الشيء سترًا وجُنَّةً احتماءً من الأذى. وبناءً عليه فالمراد من قوله تعالى ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ هو: لماذا لا تدخلون في الحماية الإلهية رغم مشاهدة هذه السنن الربانية مع أهل الصدق والحق. وما دمتم ترون في السنن الإلهية كلها أن كفة الرحمة والتَّمهُّل راجحة على كفة الغضب والعقاب أفلا ينبغي لكم أن تنتفعوا برحمته الواسعة وتسعوا للتصالح معه ﷻ، بدلاً من أن تُلحّوا في مطالبة إنـــزال العذاب عليكم.

تدبروا هذه الآية، وانظروا ما أروعَ ترتيبَها. ففي أَولها ذَكَرَ الله الرزقَ الذي هو سبب استمرار الحياة. ثم تحدث عن السمع والبصر وهما مدار العقل والفهم. ثم ذكر الموت والحياة وهما رمز للقوة العملية التي تلي العقل أهميَّةً. وأخيرًا ذكر التدبير الذي تمس إليه الحاجة بعد البدء في العمل، لأن التدبير معناه: إقامة نظام سليم لتنسيق شتّى الأعمال. وباختصار فقد ذكر الله هنا الوسائل الأربع التي لا بد منها لتحقيق غاية الخلق الإنساني، وذكَرَها بحسب درجاتها الطبيعية.

ثم قال مستفهمًا: أليس من الغباء الظنُّ أن يهب الله تعالى للإنسان حياة، ثم يخلق فيه شعورًا، ثم يزوده بقوة للعمل، ثم يخلق فيه نظامًا لتنسيق الأعمال، ثم بعد كل هذا الخلق المدهش يتخلى عنه دون أن يهديه ويعلّمه كيفيَّةَ استغلال هذه الأسباب والقوى

لتحقيق هدف سامٍ نافع؟ إنَّ مثل هذا العَبَث لا يمكن أن يجيزه كلُّ ذي عقلٍ سليم. فالذي خلق هذه القوى الأربع لا بد أن يحدد لها غاية سامية، وعليه فإنه لا يعقل أبدًا أن الله الخالق يترك عباده بدون هداية ولا يُشرّفهم بوحيه وإلهامه، أو أن يهلكهم قبل أن يتيح لهم الفرصة للهداية. لو كان الله يريد هلاكهم بالعذاب على عجل دون أن يمهلهم فلماذا خلق هذا النظام المتناهي في الدقّة واللطافة والروعة؟

إن هذه الآية تحتوي على دحض للشرك أيضا، حيث تقول: ما دمتم تسلّمون بكون الله تعالى رازقًا للإنسان، خالقًا لما فيه من القوى، مالكًا للحياة والموت، ومدبِّرًا للنظام الكوني أجمعه، فما هو برهانكم على قولكم بأنَّ كذا وكذا من الأمور هو من عمل شركاء الله. إذا كان الله سبحانه وتعالى لا يزال يقوم بهذه الأعمال كافَّةً منذ الأزل، فكيف تُعزى بعض هذه الأعمال إلى كائنات أخرى؟ وإذا كان الله هو مخرج الأحياء من الأموات، فكيف تقولون بأن مولودًا كذا هو هبة من شريك آخر لله تعالى؟ وَلماذا لا يقال: إن الذي يهب الأولاد عمومًا هو الذي وهبنا هذا المولود أيضا؟ مع العلم أن إخراج الحي من الميت لا يعني أن الحياة يمكن أن تتولد في الواقع من شيء ميت حقًا، وإنما يدور الحديث هنا عن خروج الحياة من أشياء تبدو ميتة أوّل وهلة.

فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

الضلال: الهلاكُ؛ الفضيحةُ؛ الباطلُ؛ ضدُّ الهدى (الأقرب)

التفسير: هنا قال ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾، ومن قبل (في الآية ٣١) قال ﴿مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾. ذلك أن الحديث هناك كان عن الجزاء والعقاب، وأما هنا فعن تكميل مدارج الخلق الإنساني، فكانت الصفة الإلهية الملائمة هنا هي صفة "الرب"، لأن معناها: الذي يخلق

الشيء ويوصله إلى درجة كماله. فالآية تكملة للآية السابقة إذ تقول: إن هذا الإله الذي يربّي الإنسان طورًا فطورًا حتى يصل إلى كماله، إذا أعرض عنه الإنسان واتجه إلى إلهٍ غيره فلا شك في أنه أحمق وغبيّ.

وقد جاء بكلمة (الحق) وصفًا لـــ (ربكم) ليبيّن أن الأرباب نوعان: ربٌّ يقوم بالتربية ولكنه ربٌّ فانٍ وتربيته ناقصة، وربٌّ آخر حقيقي قائم بذاته وهو أسمى من أن تصل إليه يد الفناء، وتربيته هي التربية الحقيقية الكاملة. فالله تعالى ليس ربًّا فحسب، بل هو رَبٌّ أزلي أبدي، وَلا يمكن أن يكون أحد أَكثر منه كمالاً ولا أحسَنَ منه تربيةً. فهل يعني التوجه إلى ربٍّ غيره إلا الهلاك والدّمار.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

الكلمة: اللفظُ؛ كلُّ ما ينطق به الإنسان مفردًا كان أو مركّبا. (الأقرب)

فسقوا: فَسَقَ الرجل فِسقًا وفسوقًا: تَرَكَ أمرَ الله؛ عصى وجار عن قصد السبيل؛ خَرَجَ عن طريق الحق. وفَسَقَت الرُطَبة عن قِشرها: خرجت. (الأقرب)

التفسير: يقول: كما أنه من الثابت والمؤكد أن ليس دون الحق إلا الضلال والهلاك، كذلك قد جرت السُّنة الإلهية عن الفاسقين -أي المارقين من الدين- أنهم لا يؤمنون.

إن الآية لا تعني أبدًا بأن الله يحرم البعض من الإيمان، وإنما تَنصُّ صراحةً على أنَّ القانون الإلهي يقضي بأن من سار على طريق الخطأ ازداد ضلالاً، ومن سار على طريق الصواب ازداد صلاحًا. والحق أنه لا بد من هذا القانون إذا كان للخلق الإنساني غاية وإلا لَعَمَّتِ الفوضى العالم ونال الظالمون درجات عليا في الحياة

الروحانية، وأصبح الصالحون في عداد الضالين. الذي يُعرَض عليه الدَّليل تلو الدليل، ثم لا ينفك سادرًا في رفضه وغيّه.. كيف يُستساغ أن يهديه الله قسرًا؟ كلا؛ إنه لا يهدي أحدًا قسرًا، ولا يُضلّ أحدًا جبرًا. نعم، إذا غيّر الإنسان ما في قلبه تغيرت المعاملة الإلهية معه تلقائيًا.

فانظروا كيف أنَّ كلامَ الله القرآنَ يفيض محبةً وحنانًا. إنه أولاً يعرض على الإنسان البراهين العقلية على صحة تعاليمه، ثم يذكّره بنبرة ملؤها الحب والرقة بإصلاح حاله.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير: لقد ساق القرآن هنا برهانًا عظيمًا على بطلان عقيدة الشرك بالله، ولكن الناس عمومًا لم ينتبهوا إليه. يقول الله تعالى: إن القدرة على خلق الأشياء تثبتُ من القدرة على إعادة خلقها من جديد، وإلا لادَّعى كل شخص أنه هو خالق الأشياء. فمثلا لو ادَّعى أحد اليوم وقال: أنا الذي خلقت الكون، لفنّدنا ادعاءه بقولنا: حسنًا، تعالَ فاخلقْه أمامنا مرة أخرى. يقول الله تعالى: إننا لا نقدّم الخلق الأول كدليل على قدرتنا على الخلق والإيجاد فحسب، وذلك كيلا يزعم أحد أن عيسى أو غيره كان أيضًا شريكًا لنا في عملية الخلق، وإنما دليلنا هو أننا قادرون على إعادة هذا الخلق من جديد.

والمطالبة بإعادة الخلق تحقق هدفين:الأول: أنه يتم بذلك اختبار المدّعي الكاذب فورًا؛ والثاني: أنه يؤكد على أزلية الخلق الإلهي. فنعلم مثلاً أن الغلال لا تزال تنبت من الغلال منذ القدم، فلو ادعى أحد اليوم بأنه هو الخالق لها قلنا له: هذه الغلال لا

تزال تنبت من الغلال منذ القدم، وأما أنت فقد وُلدت البارحة فكيف نعتبرك خالقًا لها. إنَّ الآلهة الباطلة محدودٌ زمنها، وأما النواميس الإلهية فأزلية قديمة، فكيف يمكن أن تكون الآلهة الباطلة المحدودة الزمن خالقةً لهذه الظواهر القائمة منذ الأزل بحسب قوانين طبيعية محددة.

ولذلك سألهم أحد: من الذي يتولى عملية الخلق وإعادته؟ فإن قالوا: الله، فسيكون سؤالنا: ما دام الله قد قدّر لعملية الخلق سننًا محددة منذ الأزل ولا تزال الموجودات تتكون وفق هذه السنن، فكيف يثبت تدخُّلُ شركاء لله من آلهة باطلة في عملية الخلق، بل وما الداعي لذلك يا تُرى؟

كما تشير الآية إلى أن المَلِك الأزلي الذي خلق هذه السلسلة غير المتناهية من الكائنات كيف يمكن أن يفوّض أمر هدايتها إلى غيره، أو يقوم بهداية قوم معينين ويحرم الآخرين منها؟ لو كان صاحب الخلق الأول هو غير من يعيد الخلق باستمرار لأَمكنكم القول بأن الخالق الأول قام بهداية الأولين، ولكن المشرف على إعادة الخلق بالتناسل لم يحفل بهداية الآخرين. ولكن ما دام الذي خلق أولاً ثم الذي أشرف على استمرار الخلق وإعادته ربًا واحدًا فكيف يمكن أن يهدي الأولين ويحرم المتأخرين من الهدى.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّيَ إلا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

يَهِدِّي: فعل مضارع من باب الافتعال من (الهدى)، أصلُه يهتدي. اهتدى يهتدي اهتداءً. مُطاوعُ هَدَى. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى: إذا كان الله لا يهدي الناس فهل شركاؤكم هم الذين يهدونهم. لو كانوا هم الهادين لحق لكم القول بأن الله قد فوّض إليهم أمر الهداية، ولكن هل يمكن أن تأتوا بمثال واحد على نـــزول شرع أو تعليم من قِبل صنم أو إله من آلهتكم الباطلة؟

إنه لعجيب حقًّا أنه رغم الانتشار المتزايد للعقائد الوثنية في العالم، إلا أنه لا يوجد ولا كتاب واحد يدّعي أنَّه هداية للناس وأنه نـــزل بوحي من أحد هذه الآلهة أو الأصنام. لقد اخترع الوثنيون الأكاذيب أنواعًا وألوانًا، ولكن لم يدّعِ أحد منهم بوجود مثل هذا الكتاب ولو ادعاءً كاذبًا. فكيف يرفض المشركون – والحال هذه – نـــزولَ الهدي من عند الله تعالى؟ إن الذي خلق العباد لا بدَّ أن يدبّر أمر هدايتهم.

كما وفنّد هنا الوثنية مرة أخرى إذ قال: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّيَ إلا أَن يُهْدَى﴾. والهداية هنا تعني التوجيه إلى الأمور الروحانية، كما تعني أخذ الشيء من مكان إلى آخر، وهذا المعنى الأخير ينطبق تمامًا على أصنام المشركين حيث ينقلونهم من مكان إلى آخر.

وأما قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فأرى أن المراد به أنبياء الله عليهم السلام الذين يُبعثون لهداية الناس إلى الحق. فالمعنى: هل أنبياء الله أحرى وأحق بأن يتّبعهم الناس ويطيعوهم، أم أصنامكم، أو العاكفون عليها ممن هم بأنفسهم بحاجة إلى هدي الآخرين، ولا يستطيعون تقديم أيِّ تعليم أنـــزلته آلهتهم إزاء تعاليم الأنبياء.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ

عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

الظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويُستعمل في اليقين والشك، ويكون اسمًا ومصدرًا. (الأقرب)

لا يغني: أغنى عنه غَناءَ فلانٍ: ناب عنه وأَجزَأَه. ما أغنى فلان شيئًا: أي لم ينفع في مهمٍّ ولم يكفِ مئونةً. (الأقرب)

التفسير: للظن ثلاثة معانٍ كما ذُكر آنفًا: الأول: الاعتقاد الراجح الغالب، والثاني: الشك، والثالث: اليقين، وقد جاء هنا بمعنى الشك. ذلك أن الحق والاعتقاد الراجح الغالب لا يتعارضان، لأن الاعتقاد الغالب المبني على البراهين إنما يحصل طالما يكون الحق خافيًا على الأعين، وأما إذا تبين الحق وحَصْحَصَ فلا يبقى هناك أي اعتقاد غالب عند أحد، بل يتحول إلى يقين، فلا تتصدى للحق عندئذ إلا الأوهامُ الفاسدة التي لا تستند إلى أي برهان، وإنما أساسها العناد أو ضعف النفس.

فالله تعالى يقول هنا: إن أكثرهم واقعون في وحل العقائد الوثنية بسبب الأوهام فقط، إذ لم يأتهم أي هدي أو رسالة من آلهتهم الباطلة.

وأما قوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلا ظَنًّا﴾ فليس المراد به أن أكثرهم يتمسكون بعقائد وثنية بناءً على الظن، بيد أن بعضهم يتمسكون بها بناءً على الأدلة والبراهين. كلا، وإنما المراد به أن بعضهم يشركون إما طمعًا أو عنادًا وتعصبًا، وإن كانوا في قرارة نفوسهم يدركون بطلان الشرك، ولكن معظمهم يأتون أعمالاً وثنية وهم موقنون بصحتها، إلا أَنَّ يقينهم هذا لا يكون يقينًا حقيقيًا مبنيًا على البراهين والخبرة، وإنما أساسه مجرد أوهام لو فكَّروا فيها تفكيرًا موضوعيًا لتخلصوا منها.

ومرة أخرى يعلن القرآن هنا عن المبدأ الحق بأن لا يرمي الإنسان معارضيه بسوء النية والكذب. وذلك لأن أكثر الناس يوقنون أن دينهم حق في الواقع، وإنْ كان

يقينهم هذا مبنيًا على ضعف في نفوسهم، لأنهم لا يسعون لمعرفة الحق كما ينبغي، وإنما يتهاونون في ذلك ويتكاسلون.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

أن: حرفٌ يجيء على أربعة أوجه، أحدها أن تكون حرفًا مصدريًا ناصبًا للمضارع، فتكون مع صلتها على حسب ما يطلبها العامل (الأقرب)

تصديق: التصديق: نسبة الصدق بالقلب أو اللسان إلى القائل. صدّقه: ضدُّ كذّبه. (الأقرب)

التفسير: قبل هذه الآية كان الحديث عن ضرورة نـــزول الهدي الإلهي، وأنه ليس بمقدرة أحد دون الله تعالى، إنسانًا كان أو أحدًا من الآلهة الباطلة، أن يعرض من عنده منهجًا روحانيًا للناس، وأن الأمر الواقع أيضا يؤكد هذا إذ إن الناس لم يتلقوا أبدًا أي منهج روحاني من آلهتهم الباطلة. ومِن هذا البيان المبدئي الأساسي انتقل إلى القضية الأصلية التي يدور حولها النقاش وقال مستفهمًا: هل يمكن أن يكون هذا القرآن من تأليف إنسان؟ وردّ عليه بنفسه قائلاً: كلا، ثم كلا.

والحق أن الآية تحتوي على بحث لطيف للغاية حول كون هذا القرآن الكريم من عند الله وحده، ولكنّ المفسرين، للأسف، لم يُعيروا ما في هذه الآية من معارف ومزايا العنايةَ الكافيةَ و لم يلقوا عليها من الضوء إلا قليلاً.

تتضمّن الآية خمسة براهين ساطعة على كون القرآن الكريم من عند الله تبارك

وتعالى، وإليكم بيانها:

البرهان الأول: إن هذا الكتاب يحتوي على معارف ومفاهيم لا يقدر الإنسان على معرفتها بنفسه، وإنما هو الله وحده الذي يُطلع عليها من يشاء، إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ﴾ فأعلن بذلك أن فيه معارف وأمورًا لا يعلمها إلا الله وحده. ونعلم من دراسة القرآن أن الأمور التي لا يعلمها إلا الله هي الأمور الغيبية والأنباء المتعلقة بالمستقبل. ففي هذه السورة التي نحن بصدد تفسيرها يقول الله تعالى:﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ﴾ (الآية: ٢١). فالكلام الذي يشتمل على أنباء غيبية لا يقدر على بيانها إلا الله، فكيف يمكن أن ينشأ الظنُّ أنها من عند إله غير الله سبحانه وتعالى.

ومما يدعو للعجب، أن القسيس "ويري" قد بسط لسانه بالطعن في الجزء الأول من هذه الآية وقال بأن هذا ادعاء من القرآن لا دليل عليه إذ اكتفى القرآن بقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ﴾، ولم يأتِ ببرهان على ادعائه، ولم يبين كيف ولماذا!؟ (تفسير ويري للقرآن).

إنه لمن المؤسف حقًا أن أقول إن "ويري" يجهل تمامًا المحاسنَ الدقيقة اللطيفة التي لا يمكن بدونها أن تُسمَّى أيّ من اللغات لغةً، ولا سيما محاسنَ اللغة العربية التي تمتاز وتنفرد عن غيرها في أداء المعاني الواسعة بكلمات موجزة جدًا.

الواقع أن كلمة (هذا) في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ..﴾ هي الدليل الذي ساقه القرآن على صحة هذا التحدي القرآني، إذ لم يقل الله (وما كان القرآن..) وإنما قال ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾. فلماذا أضاف كلمة (هذا) يا تُرى، مع أن كلمة (القرآن) تطلق على كتاب واحد فقط في العالم، وليس على كتابين أو أكثر حتى تمس الحاجة إلى زيادة كلمة (هذا)؟!

الحق أن الله تبارك وتعالى قد أضاف كلمة (هذا) تأكيدًا على أن هذا الكتاب يحتوي على معارف عالية ومفاهيم سامية بحيث يستحيل على الإنسان أن يأتي بمثلها.

فالجملة القرآنية ليست دعوى بلا دليل، وإنما فيها الدليل أيضا، إذ تعلن أن في هذا القرآن أمورًا لا يقدر أحد على الإتيان بها إلا الله وحده، ويمكن معرفتها بكل سهولة في مواضيع القرآن الكريم، وإلى هذه الأمور الفريدة النادرة تُشير كلمة (هذا).

وهناك في كلّ لغة أساليب وجمل كهذه تؤدي هذا المعنى. فمثلاً في لغتنا الأردية يقولون على سبيل الاستفهام الإنكاري: هل هذا الشخص يكون كاذبًا، أو هل هذا الأمر يعتبر خطأً؟ ولا أحد من العقلاء يمكن أن يقول إنها دعاوَى بلا دليل، لأنها تعني: كيف يمكن لهذا الشخص.. المعروف بين القوم بصفاته الطيبة التي لا حاجة لذكرها... أن يُعتبر من الكاذبين.

فكلمة (هذا) تؤدي كل هذه المعاني، كما هي الحال في الآية أيضًا. ولكن الأسف على أن هؤلاء القساوسة الجاهلين تمامًا بمحاسن اللغة العربية ودقائقها، يأخذون الأقلام ويجلسون لكتابة تفسير كلام الله القرآن الكريم، فيرتكبون أخطاء فادحة، كما يوقعون فيها غيرهم ممن يثقون بهم على جهلهم. فيا ليتهم كانوا قد رجعوا واستشاروا بعضًا من إخوانهم المستشرقين غير المتعصبين.

والبرهان الثاني الذي ساقه القرآن على كونه منهجًا روحانيًا كاملاً، هو ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أنه كما يؤكد بنفسه على كونه كلامًا من عند الله وليس افتراء أحد، وذلك باشتماله على أنباء غيبيّة، فإن صدقه يتأكد من كلام الأنبياء السابقين أيضًا، إذ يحتوي كلامهم على أنباء عديدة عن نـــزول كلام كهذا وقد تحققت في شكل القرآن. فأيها الكفار! إنكم إن لم تصدّقوا القرآن فسوف تُعتبرون مكذِّبين للأنبياء الأولين، إذ كذّبتم ما أدلوا به من أنباء في شأن نـــزول هذا الكتاب.

ولنعلم أن من أساليب القرآن أنه –بدلاً من أن يقول إن الأنبياء الأولين مصدِّقون لمن بعدهم– يتحدث عن تصديق المتأخرين منهم للأولين، وقد اتبع هذا الأسلوب عند الحديث عن عيسى ويحيى وغيرهما من أنبياء الله عليهم السلام. ذلك أن الأولين يُدلون بأنباء عن الآخرين ولا ريب، ولكن الذين يأتون فيما بعد يختمون بدورهم على صدق

الأولين بتحقيق ما أنبئوا به من قبل. فكان الطريق الأمثل لبيان هذه الحقيقة ما اختاره القرآن، لأن القول بأن هذا النبي أو هذا الوحي يصدّقه الأنبياء الأولون، لا يحمل من الوقع والتأثير ما يوجد في قولنا: إن هذا النبي أو الكلام هو الذي يتم به تصديق النبي السابق، وإلا للزم تكذيبه، إذ إنّ هذا الأسلوب يفحم ويخضع في الحال أتباع النبيين السابقين.

لقد أتى القسوس باستنتاج غريب من هذه الجملة وأمثالها إذ يقولون: إنها تبرئ ساحة التوراة والإنجيل من تهمة التحريف بأيدي الناس! (تفسير ويري)

والحق أن كل ما يعنيه القرآن بكونه مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتب السماوية هو مجرد الإعلان عن تلك الكتب أنها كانت من مصدر إلهي. أما قولهم بأن هذا يعني أن الوحي السابق لا يزال محفوظًا من التحريف فإنهم بذلك يحمّلون الكلماتِ القرآنية ما لا تحتمل ويستنتجون ما لا يصح أبدًا. إن القرآن حافل بالأدلة على وجود التحريف في التوراة والإنجيل، كما أن سنة الرسول الكريم ﷺ لشاهد قوي على ذلك. فلو كانت الكلمات القرآنية تعني في الحقيقة ما ذهب إليه هؤلاء القسيسون لما تردد اليهود والنصارى في الاعتراض على الرسول ﷺ، ولكن التاريخ لا يذكر أي اعتراض من جانبهم، بل الثابت أنه ﷺ لَفَتَ نظر المسلمين لِمَا في كتبهم قائلاً: "لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم" (البخاري، الشهادات). فلو كانت كتبهم خالية من التحريف تمامًا لَما منع الرسول ﷺ المسلمين من تصديق ما فيها.

وإن قيل: فلماذا يستشهد القرآن بالتوراة والإنجيل في معرض الحديث عن بعض القضايا، إذا كان يرى أن فيهما تحريفًا؟ فالجواب هو أنّ هذا لا يدل أبدًا على خلوّهما من التحريف، إذ إنّ العالم كلّه يستشهد بالكتب التاريخية، ومع ذلك ليس هناك عاقل واحد يعتبر أيًّا منها صحيحًا تمام الصّحة. إنما يعني هذا الاستشهاد تصديقَ حادث معين مذكور في كتاب ما وليس كل الكتاب.

والبرهان الثالث: هو ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي أنّ في القرآن شرحًا وتفصيلاً

للكتب السابقة. وهذا أيضا برهان عظيم على صدق القرآن وعلى كونه من الله ﷻ، إذ يستحيل فهمُ أي كتاب سماوي سابق بدون الاستعانة بما ورد في القرآن من مواضيع ومفاهيم. فمثلاً، لا شك أن التوراة والإنجيل والفيدا والزند وأفستا كلها تتحدث عن توحيد البارئ تعالى، وصفاته وتجلياته، والوحي، والنبوة، والبعث بعد الموت وغيرها من الأمور الروحانية والأخلاقية، ولكن ليس بينها كتاب واحد يذكر هذه القضايا ببيان واضح، وإنما نضطر للاستعانة بالقرآن لحل ألغازها ومُعضلاتها.

خذوا مثلاً التوحيد –هذه القضية الكبرى في الروحانيات– فكلٌّ من هذه الكتب يتحدث عن التوحيد، ولكن بحديث مجمل موجز يكتنفه الغموض. واقرءوا ما كتبه أتباع هذه الكتب قبل نـــزول القرآن من مقالات وشروح حول التوحيد، فستجدونها تحمل معلومات ناقصة للغاية، ولكن الأمر معاكس تمامًا لما كتبوه بعد نـــزول القرآن، مما يؤكد أنه بانتشار المعارف القرآنية انكشفت الحقيقية لهم، فشرحوا على ضوئها عقائدهم الدينية الغامضة من قبل.

وتليها أهميةً قضيةُ النبوة، التي نرى معالجتها في التوراة والإنجيل وغيرهما غامضة تمامًا، ذلك لأن أهل هذه الكتب ما استطاعوا بعدُ أن يقفوا على حقيقة مفهوم كلمة "نبي" في أسفارهم المقدسة. أما القرآن فقد وضَّح هذا الموضوع وجلاّه، وهذه هي الحال نفسها بالنسبة للقضايا الهامة الأخرى.

فالآية تعلن أن هذا الكتاب يشرح ويوضح ما ورد في الكتب السابقة من مواضيع غامضة ومعانٍ مبهمة، فإذا رفضتموه فلن يكون لكم بد من الاعتراف بأن الله لم يستطع أن يبين في كتبكم الضخمة والعديدة أمورًا قد ذكرها هذا الشخص في كتاب موجز. فلا مفر لكم من أحد الأمرين: إما أن تصدّقوا القرآن، أو تكذّبوا كتبكم السابقة أيضًا.

والبرهان الرابع على صدق القرآن هو أنه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا مجال للشك فيه.. أي أن هذا الكتاب بنفسه يسوق الأدلة على صدقه ولا يحتاج إلى الآخرين لبيانه. فقد

وضّح مطالبه ومفاهيمه بحيث إن الذي يتدبر فيه كما ينبغي يجد فيه البراهين والأدلة على حقّانيته. أما الشك الذي يتولد عند أحدٍ فليس سببه هذا الكتاب المصحوب بالأدلة على صدقه، وإنما منشأه غفلة القارئ وتهاونه في محاولة الفهم الصحيح .

وهذا الأمر أيضا يشكل دليلاً على كون هذا الكتاب من عند الله تبارك وتعالى، إذ ليس بوسع إنسان أن يُثبت الأمور الغيبية بشكل مقنع كامل، لأن العديد منها لا يُثبَت أبدًا بالأدلة العقلية وحدها، وإنما يتطلب الأمر دليلاً من المعاينة والخبرة الشخصية، والإنسان الضعيف لا يستطيع أن يهيئ الأسباب التي تساعد الناس على مشاهدة الأمور الغيبية واختبارها، وإنما الله وحده هو القادر على أن يهيئ لهم أدلة هي بمثابة الاطّلاع على الغيب. خذوا مثلا الوحي والإلهام. إنه أمر غيبي، ويستطيع الإنسان أن يسوق على وجود ظاهرة الوحي الإلهي أدلة عقلية، ولكن ليس بوسعه أن يفتح على أحد بابَ الوحي أو يَعِدَه بنـــزوله عليه. ولكن الكتاب الرباني قادر على كل ذلك، فبإمكانه أن يعلن أن الذين يصدّقونني سيفتح الله عليهم باب الوحي، كما أن تصديق إعلانه ممكن بفعل إلهي إذ ينـــزل الله بالفعل وحيه عليهم. فالكتاب الذي يعلن – كدليل على نـــزول الوحي الإلهي حقًا– أن هذا ليس عجبًا، بل إن وحي الله ينـــزل الآن وسوف يستمر في النـــزول مستقبلاً أيضًا، وأن مئات البشر سوف يسمعون كلام الله تعالى.. أقول: إذا أعلن كتاب ما ذلك فلا شك ولا شبهة في كونه وحيًا إلهيًا حقًا. إذ ليس بوسع الإنسان أن يأتي بمثل هذه البراهين المقنعة على وجود الوحي الإلهي، وأن يستأصل الشكوك بهذا الشكل.

والبرهان الخامس على صدق القرآن هو كونه ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. بمعنى أن تعاليمه تُجلّي الصفةَ الإلهية (رب العالمين)، فشرائعه لا تخص قوما دون قوم أو زمنا دون زمن، كما كانت الكتب السابقة، وإنما هي ذات صبغة عالمية؛ إنها للأمم بأسرها، وللعصور كلها، وقد روعيَ فيها حاجات كل قوم وقضايا كل زمن.

وهذا الأمر أيضا ليس في مقدرة أي إنسان، إذ ليس بوسع أحد أن يراعي حاجات

كل قوم ومتطلبات كل عصر. لأن الإنسان إنما يتأثر بما حوله فقط، ولا يراعي حتى من حاجات نفسه هو إلا ما كان ظاهرًا باديًا لعينيه. وإنما الله وحده القادر على إنـــزال تعليمٍ نافع لكل شعب وصالح لكل عصر، لا يفقد صلاحيته بتغير الزمن، مراعيًا كلّ ما في فطرة الإنسان من حاجات ومشاعر. والقرآن متّسم بهذه المزايا إذ يراعي تمامًا الطبيعة البشرية بكل أنواعها. فإنه لا يأمر مثلاً أن نرحم دائمًا دون انتقام أبدًا، أو أن ننتقم دومًا دون عفوٍ أبدًا، بل يعلّمنا أن نرحم في محل الرحمة، ونعاقب إذا كان العقاب ملائمًا. وهذا هو شأنه في جميع تعاليمه، فميزتها أنها تراعي الطبائع البشرية جمعاء وتنظر إلى الظروف كافة، وتأخذ في الاعتبار العالم والجاهل معًا. وهذا برهان عظيم على أنه كلام من رب العالمين. فتبارك الله أحسن الخالقين.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

سورة: السورةُ: المنـــزلةُ؛ الرفعةُ؛ الفضلُ؛ الشرفُ؛ ما طال من البناء إلى جهة السماء وحسن؛ العلامةُ (أي الدليل)؛ القطعةُ المستقلة (الأقرب)

التفسير: يقول الرب تبارك وتعالى: إن الكافرين –رغم تحلّي القرآن بهذه الصفات والمزايا– تراهم يقولون: إن محمدًا قد افتراه من عنده. تُرى، إذا كان الناس قادرين على افتراء مثل هذا الكلام المتسم بهذه المزايا فليؤلّفوا مثله كدليل على صدق دعواهم.

لقد وجّه القرآن هنا تحديًا لم يقدر المفسرون على استيعاب حقيقته بشكل كامل

واضح، حتّى ألقى سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام الضوءَ على هذا الأمر، حين صرّح أن تحدّي القرآن ليس قائمًا على الإعجاز اللغوي فحسب، بل يتعداه إلى الإتيان بكلام متسم بجميع المحاسن القرآنية المعجزة بما فيها اللغة الإعجازية (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية جـــ١ ص٢٧٠).

وقد ظن بعضهم أن هذا التحدي يعني أن كُل من ألّف كلامًا يبارز به القرآن فسوف يموت.

والواقع، كما أسلفتُ، أن المفسرين لم يدركوا حقيقة هذا التحدي على الوجه الأكمل. ولما كان هذا الموضوع مذكورًا في عدة أماكن من القرآن وبكلمات مختلفة فقد ظَنَّ بعضهم خطأً أن القرآن غير مستقر في التحدي، إذ ينقص من مطالبته هذه مع مرور الوقت. فمرةً طالبهم بأن يأتوا بكتاب مثل القرآن حجمًا وضخامة، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله، وأخيرًا دعاهم أن يأتوا بسورة واحدة فقط.

ولكني أرى أن هذا ليس بصحيح، وإنما الحقيقة أن القرآن قد ذكر في كلٍّ من هذه الأماكن المختلفة موضوعًا مختلفًا مستقلاً.

فمثلاً قال في هذه الآية: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾، وليس المراد من (مِّثْلِهِ) كل القرآن، وإنما المراد منه مثل الآية السابقة الذكر، إذ ليست كلمة السورة هنا بمعناها العادي المشهور وإنما معناها هنا العلامة أي الدليل كما جاء هذا المعنى في شرح هذه الكلمة، والمراد: إذا كان ما ذكرناه في الآية السالفة من أدلة كلامَ بشر فأتوا بكلام من لدنكم يتضمن دليلاً واحدًا كالذي احتوته الآية، وليس خمسة أدلة.

هذا وإن كل عاقل يدرك جيدًا أنه يستحيل على بشر أن يأتي حتى ولو بدليل واحد كالذي ذُكر من قبل. ولذلك لم يقدر أحد على ردّ هذا التحدي القرآني ولن يقدر عليه إلى يوم القيامة. هذا ولا يزال التحدي قائما إلى اليوم. ولو أن أحدًا في هذا الزمن أتى بكلام يحمل ولو مَزِيَّةً واحدة من هذه المزايا الخمس لاعترفنا ببطلان التحدي القرآني. ولكن قد تزول السماوات والأرض، ولكن لا يمكن أن يقدر أحد

على الإتيان بمثله أبدًا، لأن هذه المزايا إنما هي من خصوصية الكلام الإلهي فقط، ولا يستطيع البشر ذلك أبدًا.

أما إذا أخذنا كلمة (سورة) بمعناها المعروف فالمراد من الآية: فليأتونا بسورة من تأليف بشر تصل إلى مستوى كلامنا الذي ذكرناه آنفًا. ولكن هذا المعنى ليس بقوي كالمعنى الأول، لأن المراد في هذه الحالة هو: فليأتوا بسورة شاملة لكل هذه المزايا الخمس، بينما المعنى الأول هو: فليأتوا بكلام يشمل ولو واحدة من هذه المزايا.

أما الآيات الأخرى التي تذكر هذا التحدي بكلمات أخرى فسوف نتناولها بالشرح لدى تفسير سورة هود، إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ﴾ زاد به التحدي قوة وشدة.. والمراد: لا تبذلوا أنتم وحدكم الجهود في مجاراة القرآن، بل ادْعُوا زعماءكم واستعينوا بآلهتكم، ثم انظروا كيف أنكم ستفشلون فشلاً ذريعًا، لينكشف للعالم كله أن الكتاب الذي عزوتموه إلى افتراءات محمد لم تقدروا على تأليف كتاب مثله، لا أنتم ولا زعماؤكم ولا آلهتكم الباطلة جميعًا.

بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

تأويل: التأويلُ؛ الظنُ بالمراد؛ بيانُ أحد محتملات اللفظ؛ العاقبةُ. أوَّلَ الشيءَ: رجّعه. أوّل الكلامَ: دبّره وقدّره وفسّره. أوّلَ الرؤيا: عبّرها. (الأقرب)

التفسير: تقول الآية: لا تتعجب من ترديد المعارضين تهمة الافتراء ضدك، لأن

الإنسان حينما لا يقدر على استيعاب أمرٍ فإنه يظنه خطأ، وهؤلاء أيضًا حين استعصى عليهم فهم القرآن ووجدوا آياته مخالفة لما عندهم من علوم ومبادئ وعادات ما لبثوا أن رفضوها وأنكروها.

وقال العلامة الزمخشري في تفسير الآية: "بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجأوه في بديهة السماع قبل أن يفهموه ويعلموا كُنْهَ أمره".

وقال ابن عطية في معنى قوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾: هذا اللفظ يحتمل معنيين أحدهما: أنهم بدءوا يثيرون الضجة قبل أن يتحقق وعيده بالعذاب.

وإثارة الصّخَب والضجّة ليس بدعًا من هؤلاء، بل ما زال هذا دأب الكفار تجاه أنبيائهم، والحق أن هذا هو دَيْدَنُ أعداء الحق في كل زمان. لا ينتظرون انكشاف الحقيقة، وإنما يسارعون إلى رفضها فورًا.

ولو قيل: إذا كان لا بد من الانتظار حتى تنكشف حقيقة بعض ما يقوله الأنبياء فلا يصح إذنْ الإيمان بهم في بداية دعواهم؟ فالجواب: إن الآية لا تقول إنهم لا يأتون في بداية دعواهم بأدلة وبراهين تساعد الناس على تصديقهم عندئذ، وإنما تعني: أن الذين لا ينتفعون بما تيسر لهم من أدلة على صدقهم، وإنما يولون الأهمية لأمور معينة أخرى يجب عليهم ألا يسارعوا إلى التكذيب على الأقل. إذا كانوا لا يريدون قبول الحقائق الثابتة فلا يحق لهم أيضًا أن يبادروا إلى الطعن فورًا فيما يشكون فيه من أمور دون أن يتأنّوا وينتظروا حتى تتجلى حقيقتها.

وأما قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيعني أن هذا كان دأب الأولين تجاه أنبيائهم دائمًا، بأن يثيروا الضجيج عبثًا.

لقد نقل القسيس ويري في تفسيره اعتراضًا عن المستشرق بروكلمان يقول فيه: ما دام مشركو مكة لم يدركوا تمامًا حقيقةَ دعوى محمد وأثاروا الضجة ضده، فأي ذنب في ذلك؟ (تفسير ويري)

ولكن ويري لم يفكّر بأن هناك بَوْنًا شاسعًا بين عدم الإدراك الكامل وبين عدم

إمكانية ذلك الإدراك. إن القرآن لا يقول أبدًا بأنهم كانوا معدومي الإدراك، وإنما قال: إنهم لم يسعوا بخلوص النية لإدراك حقيقة أمره. فما داموا لم يتدبروا جيدًا فيما عُرض عليهم من أمور وبراهين، بل رفضوها متعجلين قائلين: لا يمكن أن يوحي الله لبشرٍ مثلنا، فكيف يُعتبرون بريئين من المسؤولية؟

وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾

التفسير: يقول الله تبارك وتعالى: إن هؤلاء -رغم حالتهم المتردية- لن يُحرموا جميعًا من الهدى، بل سوف يُخرج الله من بينهم مَن سيهتمون بإصلاح حالتهم فيؤمنون، ولن يُحرم من الإيمان إلا أولئك الأشقياء الذين لا يبرحون مصرّين على الفتنة والفساد حتى النهاية. وكأنه تعالى يقول: هناك داعٍ واضح وقوي لما نُملي لهم ونعطيهم من مهلة. إذ من الممكن عقليًا أن يؤمن مشركو مكة هؤلاء منتهزين مهلتنا هذه، وليس هذا فحسب، بل نعرف -بناء على علم ويقين- أنه سوف يؤمن بعضهم يقينًا، ولذلك لا نعذبهم على الفور، بل نمهلهم إلى حين.

ما أعظَمَ هذه النبوءةَ القرآنية التي تحققت في موعدها تمامًا. ولو أن أهل مكة أُهلكوا فور معارضتهم للنبي ﷺ لما خرج منهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وعكرمة وغيرهم من أبطال الإسلام العظام، رضي الله عنهم أجمعين.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

بريءٌ: بَرِئَ منه بَرَاءةً: تخلَّصَ وسَلِمَ. بَرِئَ من المرض بُرءًا، وأهل الحجاز يقولون: برأت من المرض بَرءًا: نقهت وتعافيت وشفيت (الأقرب)

التفسير: يأمر الله تعالى رسوله أن قُلْ للذين يكذّبونك: إذا كنتم تريدون اللجاج في إنكاري وتكذيبي فهذا شأنكم، لأن بيني وبينكم اختلافًا كبيرًا، وشتان بين ما تعملون وما أعمل، ولكل واحد منا الحق في أن يفنِّد موقف خصمه، ولكن يجب ألا يتحوّل هذا الاختلاف إلى خلافٍ وعداء، ويبدأ كل فريق بفرض رأيه على الآخر جبرًا وإكراهًا. فما دمت لا أُكرهكم على موقفي فلماذا تسعون لإكراهي على موقفكم.

في هذه الآية شرحٌ لقول الله في ما سبق ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ حيث يقول: ما دامت جماعتكم غير جماعتي وأعمالكم غير أعمالنا، وكل العالم يدرك ذلك جيدًا، فما الداعي للّجوء إلى الفساد والإكراه. إن الإنسان إنما يلجأ إلى استخدام القوة ضد الآخر إذا كان هذا الآخر يسبب له ضررًا وحرجًا ، ولكن ما دامت أعمالنا لا تسبب لكم ضررًا ولا فضيحةً، كما أن نشاطاتكم لا تلحق بنا ضررًا أو خسارة فما الداعي إلى الفتنة والفساد.

ويمكن استنتاج مسألة دينية أخرى من ذلك، وهي أنه يحق للإنسان إلى حدود معينة أن يمارس الضغط والجبر على فرد من أفراد قومه وجماعته، إذا جلب هذا الأخير اللومَ والعار على الجميع. واستنادًا إلى هذه القاعدة نفسها نفرض أحيانا على أفراد من جماعتنا غرامة أو عقوبة على بعض أخطائهم، فيثير الجهال والحمقى ضجة ويقولون بأن هذا بمثابة عبادة الكبار والأولياء. مع أن الآية تؤكد على أنه يجوز للمرء الجبرُ والضغط على أفراد جماعته وعشيرته. فلو كان هناك مثلاً فردٌ من جماعتنا يقوم بقطع الطرق والسلب والنهب، أو يتهاون في أداء الصلاة، مما يسبب إساءة إلى الجماعة ككل، فمن حقنا الضغط عليه ليصلح حاله، اللهم إلا أن يكذِّب بالدعوة الأحمدية، أو

ينشقّ عن جماعتنا ويكوّن له فرقة جديدة، عندئذ لا يحق لنا الضغط عليه أبدًا.

وهناك معنى آخر للآية وهو: أنَّ هناك تباينًا واضحًا بين أعمالنا وأعمالكم، ولا يوجد بيننا وبينكم أي وجه شبه، فانتظروا حتى تظهر نتائج الأعمال فنرى أيّ الفريقين أحسن عملاً وأحظى قبولاً عند الله تعالى. لو كانت أعمالنا وأعمالكم مماثلة متشابهة يمكن الجزم أيُّ الفريقين هو مصدر للخراب، وأيهما مصدر للخير؟ ولكن ما دام لا تشابه بيننا وبينكم فسوف يسهل الجزم: مَن مِن القوم كان سببًا لهذه المفاسد والأمراض.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

الصمّ: صَمَّ الرجل صمًّا وصمَمًا: انسدّت أذنه وثقل سمعه فهو أصمّ، والجمع صُمٌّ. والأصم أيضا: الرجل الذي لا يُطمع فيه ولا يُردّ عن هواه. (الأقرب)

التفسير: هذه الآية والتي تليها بيانٌ لحقيقةِ كُفْرِ أعداء الإسلام، حيث تبيّن أن إنكارهم لا يستند إلى دليل مقنع أو أمر معقول، وإنما مرجعه العناد فقط. إنهم يستمعون لحديثك في الظاهر وجُلُّ اهتمامهم إثارةُ الطعن والاعتراض.

كما تبيّن الآية أن الشخص الأصم الذكي من الممكن أن يشرح له الإنسان أمرًا ولو بالإشارة باليد، ولكن ماذا يفعل الإنسان بهؤلاء الذين يتشبّهون بالشخص الأصم الغبي الذي لا يفهم حتى بالإشارات؟

وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

العُمي: جمع أعمى. عَمِي فلان: ذَهب بصره كلُّه من عينيه كلتيهما؛ ذهب بصرُ قلبِه وجهل؛ غَوَى (الأقرب)

التفسير: لقد فسّروا كلمة (لا يُبْصِرُونَ) بأنهم لا يرون، ولكن هذا الرأي ليس صائبًا. ذلك أنه ما دام الله قد وصفهم من قبل بالعمى فكيف يعيد كلمة (لا يُبْصِرُونَ) بالمعنى السالف نفسه دونما ضرورة. الواقع أنه تعالى كما نفى عنهم من قبل العقلَ والفهم بوصفه إياهم صمًّا، كذلك نفى عنهم هنا البصيرة لا البصارة والرؤية الظاهرة بتسميتهم عُميًا، لأنهم كانوا يستطيعون أن يهتدوا –وإن كانوا عُميًا في الظاهر– لو كانوا يملكون شيئًا من البصيرة والفطنة.

كما علّمنا الله تعالى هنا ألا نحكم على أحد برؤية ظاهره فقط، لأن الرائي إلى مظهر الناس فقط، لا يلبث أن يرميهم بالكفر أحيانًا ويقول: لماذا لا يعذب الله هؤلاء الكفرة الفجرة، مع أنه يوجد بين أعداء الحق الظاهرين أيضًا من يتمتعون بالتعقل والفطنة بحيث يرجى إيمانهم وترجى هدايتهم. وعلى النقيض من ذلك قد يكون هناك أناس مؤمنون في الظاهر، ولكنهم في الحقيقة لا يعون شيئًا وهم مستمعون، ولا يبصرون أبدًا وهم ناظرون، وإنما تبحث أنظارهم دائما عما يمكن أن يثيروا عليه اعتراضًا. لا فهم فيهم ولا بصيرة عندهم أبدا. ومن أجل ذلك احتفظ الله بأمر العذاب في يده هو سبحانه وتعالى، لأن غيره يمكن أن ينخدع بمظهر أحدٍ فيصبّ عليه العذاب خطأً وظلمًا.

وبالنظر إلى هذا المعنى، تكون هاتان الآيتان تفسيرًا لقوله تعالى من قبل ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.. أي أن الإنسان معرَّضٌ للخطأ دائمًا في رأيه عن شخصٍ ما إذ ينخدع بظاهره، ولكن الله وحده عالمٌ بجميع الناس على حقيقتهم.

إِنَّ اللّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

التفسير: ما أروع المعنى الذي جاءت به الآية. والحق أن للآية تأثيرًا في القلب كتأثير البيت المتكرر في القصيد.. يقول الله تعالى: نحن الذين بعثنا النبي ومع ذلك نمهل الكفار ولا نريد إهلاكهم فورًا، ولكنهم يتعجلون العذاب. نحن لا نريد ظلمهم ولذلك لا نصيبهم بالعذاب دون إتاحة الفرصة لهدايتهم، ولكنهم يطالبوننا قولاً وفعلاً أن نهلكهم بالعذاب فورًا.

هذه الآية تفسير لكافة الآيات القرآنية التي يستنتج منها الناس استنتاجات مغلوطة فيقولون بأن الله بنفسه يطبع على قلوب الكفار ويمنعهم من الإيمان، أو أن قدر الله وقضاءه هو الذي جعل الناس لصوصًا وصعاليك. ولكن الحق أن كل هذه الأعمال المنكرة ظلمٌ وتُبعد الناس عن الهدى، والله سبحانه وتعالى يعلن هنا صراحة أنه لا يظلم أبدًا، بل يتيح كل الفرص الممكنة لهداية الناس.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

ساعة: الساعةُ: ستون دقيقة؛ الوقتُ الحاضر؛ جزءٌ قليل من النهار أو الليل (الأقرب)

يتعارفون: تعارف القوم: عرف بعضهم بعضًا (الأقرب)

التفسير: لقد وقع المفسرون في خطأ كبير في بيان معنى قوله تعالى ﴿سَاعَةً مِّنَ

النَّهَارِ﴾، ففسروا الساعة بمعنى الساعة المتعارف عليها من النهار، ثم ذهبوا مذاهب شتى في تحديدها وضخامتها، ثم عانوا كثيرًا في تطبيقها.

الحق أن القرآن الكريم قد وصف -في أماكن عديدة منه- حياة الكفار في الدنيا بأنها ساعة من النهار، ولكنه لا يقصد بهذا تحديد فترة مكوثهم هنا، وإنما يقصد بهذا بيان كيفية حياتهم بأنهم عاشوا طوال هذه المدة في غفلةٍ وسباتٍ. ذلك لأن النهار مخصوص بالعمل ورمزٌ للسعي والاجتهاد، وحيث إن الكفار يقضون معظم أوقاتهم في كسب الدنيا ومتاعها، متغافلين كليةً عما يُكسبهم رضوان الله ﷻ، فيصحّ تمامًا القولُ عنهم بأنهم ما لبثوا في الدنيا إلا سُوَيعات من النهار، وإن عاشوا في الظاهر آلاف السنين. ذلك أنهم لم ينتفعوا من مكوثهم في الدنيا انتفاعًا حقيقيًا، و لم يستغلوا أوقاتهم في تحقيق الغاية من خلقهم، وهكذا أصبح نهارُهم ليلاً، وكأنهم لم يلبثوا هنا إلا ساعة من النهار.

فالآية لا تقصد نفي مكوثهم في الدنيا لفترة طويلة، وإنما تعني أن فترة عملهم النافع كانت قصيرة جدًا. ولو كان المراد منها بيان مقدار إقامتهم الظاهرة لما اختار الله كلمة ﴿النَّهَارِ﴾، إذ لا خصوصية للنهار دون الليل في بيان مقدار الوقت.

وباختصار، لقد بيّن الله هنا أن أعينهم ما أبصرت حالتهم المتردية وهم في الدنيا، وسوف يتضح لهم في الآخرة بكل جلاء ووضوح أنهم عاشوا فيها نائمين في غفلة، عاطلين عن أي عمل نافع في الحقيقة.

وقوله تعالى ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني أنهم سيتعرف بعضهم إلى بعض. إن الناس -رغم خلافاتهم الشديدة- يتّحدون في عداوة الأنبياء، ويشاركون في معارضتهم بكل حماس، ولكن سوف تنكشف الحقيقة على الجميع يوم القيامة، فسيعلمون علم اليقين أنهم ما كانوا متحدين في الواقع، وإنما كان اتحادهم خداعًا، وسيشعرون عندئذٍ بعار الشِقاق وفضيحة الخلاف.

لقد فسر المفسرون هذه الجملة بأن بعضهم سوف يعرف البعض معرفة ظاهرة.

فمثلاً سيعرف الأب ابنه والابنُ أباه (الرازي، تحت الآية). ولكني أرى أن القرآن لا يذكر هذا ولا داعي لذلك. الواقع أن المفسرين لم يتدبروا الآية كما ينبغي. فإن المعرفة لا تعني فقط المعرفة الظاهرية برؤية الملامح، بل معناها أيضا: وقوف الشخص على حقيقة صاحبه، وهذا هو المراد هنا. وفي بلادنا أيضا يقولون: الآن عرفتك.. أي عرفت حقيقتك. فكذلك عند صدور الحكم الإلهي يوم القيامة سيدرك الظالمون كم كان أنبياء الله مصدَر خيرٍ وبركةٍ وذوي مكانة سامية، وكم كان هؤلاء وزملاؤهم أراذل لا قيمة لهم ولا منـــزلة.

وقوله تعالى ﴿كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ﴾ يعني أن كل الخُسران الذي هم فيه إنما هو نتيجة لتكذيبهم بلقاء الله تعالى. ذلك أنهم لو كانوا ممن يطيع خوفًا لآمنوا رهبةً من المثول أمام الله ﷻ، ولو كانوا ممن يطيع حبًا لازدادوا أيضا حبًا له وشوقًا إليه وطاعةً له بسبب الإيمان بلقاء الله.

لقد نسي المسلمون اليوم هذه الموعظة القرآنية حيث بدءوا يظنون أنه لا يمكن الآن أن يكلِّم الله عباده، فيتردَّون يومًا فيومًا. ولو أن الإنسان أيقن بأن الاتصال بالله حق وممكن لجَدَّ في العمل الصالح خوفًا من لقائه إذا كان من الناس الذين يخافون العقابَ، وأما إذا كان من ذوي القلوب العاملة حبًّا لخالقها لَرقص طربًا، وجدّ في العمل شوقًا للقاء بارئه سبحانه وتعالى. فهذا اليقين قوة دافعة وحافز قوي على العمل. أما إذا حُرم الإنسان هذا اليقينَ فلا نتيجة له سوى الغفلة والدمار.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

إمّا: أصله: إنْ وما. ما زائدة للتوكيد.

نتوفَّيَنَّك: من الوفاة وهي الموت، توفَّى الله زيدًا: قبض روحه. تُوفيّ فلان مجهولاً: قُبضتْ روحُه ومات، فالله المتوفِّي والعبد المتوفَّى. (الأقرب)

التفسير: الذين ليس لديهم إلمام كافٍ بقواعد اللغة العربية يخطئون عمومًا في بيان معنى هذه الآية. الواقع أنها تحتوي على جملتين منفصلتين. وتقدير الجملة الأولى هو: وإما نُرِيَنّك بعض الذي نعدهم فتراها، والمراد: لو حققنا في حياتك بعض ما نعِدهم من أنباء غيبية فسوف تراها. والأنباء الغيبية هنا هي الوعيد بأنواع العذاب كما هو ظاهر من كلمات الآية، لأن الله تعالى لا يعِد مَن يكفر برسله بالإنعام والفضل. مع العلم أنّ لكلمة "الوعد" مدلولين: الوعد بالخير والإنعام، أو بالعذاب والعقاب. وأما كلمة "الوعيد" فهي خاصة بالعذاب فقط.

والجملة الثانية تقديرها: أو نتوفّينك فنُريك إياها في الآخرة، والمراد: أما إذا توفّيناك و لم نُرِك أنباء الوعيد تتحقق في حياتك فسوف نكشف عليك حقيقتها في الآخرة.

ومثل هذا الحذف جائز تمامًا بحسب قواعد العربية. أما وكيف عُرف أن هذا هو المحذوف في الجملتين، فالجواب أن الجملة التالية تؤكده حيث قال الله تعالى: إن هذا لن يغير من الأمر شيئًا، لأنهم عائدون إلينا في الآخرة لا محالة، وهناك سوف نكشف عليهم حقيقة ما يفعلون.

لقد نبّه الله في هذه الآية الكفارَ بأنهم يستعجلون وقوع العذاب، ولكن سنة الله لا تستوجب تأجيله فحسب، بل إنها أحيانًا تُلغي الوعيد بالعذاب نهائيًا.

هذه الآية برهان أساسي وقاطع على أن الله تعالى يلغي أنباء الوعيد أحيانًا، وكان سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام يقدّم ذكر هذا البرهان على أي برهان آخر في إثبات هذه السنة الإلهية (إزالة أوهام، الخزائن ج٣ ص٢٧٤).

الآية تؤكد أمرين: الأول: أن بعض الأنباء تكون مشروطةً بشروط، لأن الله قد

استخدم هنا أدوات الشرط (إما) و (أو). والثاني: أن من الأنباء ما يُلغى أصلاً لأنه تعالى يقول: إما نُرِيَنّك بعضها فتراها. وكلمة "بعض" تفيد أن الحديث هنا إنما يدور فقط عن الأنباء التي وعد سبحانه بتحقيقها في حياة النبي ﷺ، لأن الأنباء الموعود بها أن تتحقق بعدَه ما كانت لتتحقق في حياته، وهكذا أشار إلى احتمال شيء آخر – مجرد احتمال– وهو ألا يُحقِّق أي وعيد بالعذاب في حياة النبي، إذ قد يؤمن الناس جميعًا ولا يبقى هناك حاجة للعذاب. غير أن هذا أسلوب لبيان القدرة الإلهية العظيمة، وإلا فالناس لا يؤمنون جميعًا.

كما أنه يتأكد من الآية أن تعيين موعدٍ خاصٍ لتحقق نبأ من الأنباء ليس شرطًا أساسيًا لصحة النبأ، لأن الله تعالى قد ضرب هنا موعدًا واسعًا جدًا يمتد إلى ما بعد وفاة الرسول ﷺ.

ولنتذكر أن الآية تصرّح أيضًا أن الله إنما يلغي الأنباء الجزئية فقط. أما الأنباء الأساسية فلا تلغى أبدا. فمثلا لا يمكن إلغاء النبأ القرآني ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة:٢٢) ذلك أن القرآن قد صرّح أن ما يلغى من الأنباء يكون مما (نعدهم).. أي نبأ الوعيد الذي يخص قوم نبي، وليس ما وعد الله به رسله جميعًا. والنبأ ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ لا يختص بنبيٍّ معين، وإنما يخص الأنبياء كافة. وباختصار يمكن أن يلغي الله نبًا جزئيًا بالوعيد، ولكنه لا يلغي وعْدَه أو وعيده الرئيسي الحيوي.

كما وتبين الآية زيف دعاوى المدعين الجدد في زمننا الذين يتنبئون بغلبتهم، ثم عند حرمانهم منها يقولون: إن هذا مما قد أُلغيَ.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

أمّة: الأمة: الجماعةُ؛ الجيلُ من كل حي؛ الطريقةُ؛ الدينُ؛ القامةُ؛ الحينُ، كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ .. أي إلى حين (الأقرب).

التفسير: لقد فسر بعض أهل البدعة في هذا العصر قول الله هذا بمعنًى عجيب، إذ قالوا بأن معناه: أن لكل أمة رسولاً واحدًا فقط، فلذا لا يمكن أن يأتي رسول ثانٍ إلى الأمة المحمدية. ولكنّ هذا المعنى باطل بالبداهة، لأن الآية إنما تؤكد على وجود رسولٍ لكل أمةٍ، وليس على عدد الرسل المبعوثين إليها، والمراد: لا يمكن أن تتكون أمة ما بدون رسول، وليس أنه لا يُبعث إلى أمةٍ واحدةٍ إلا رسول واحد. إن هذا الزعم يتنافى والواقع، إذ بُعث هارون مع موسى عليهما السلام إلى أمة واحدة وفي وقت واحد. إن المعنى الصريح للآية هو أن بداية كـــل جماعة روحانية تكـــون برسول.

وأرى أنه لما كانت الآية تتحدث عن بداية أمةٍ، فالمراد بالرسول هنا رسولٌ صاحب شرعٍ جديد، لأن الأمة الجديدة إنما تتأسس على يد رسول ذي شرع جديد.

والمراد من قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أن مـــــن يكون صالحًا للدخول في جماعة الأنبياء ندخله فيها، ومن لا يصلح لذلك تكون عاقبته الهلاك.

إن الآية تعلن للكفار أنه لا يمكن لأي شعب أن يكون وارثًا للأفضال الإلهية والبركات الربانية ما لم يرتبط أبناؤه برسولهم. فلا تأملوا في الرقيّ والازدهار هكذا. إذا أردتم الازدهار فأقيموا مع نبيكم علاقةَ طاعةٍ صادقةٍ، وإلا فمصيركم الهلاك.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾

التفسير: قاتَلَ الله العناد والتعنت. لقد ذكر الله في الآية السابقة -عرضًا- أن

رفضَ النبي مهلكةٌ للأمم، وعند سماع هذا التحذير الضمني ما لبث الكافرون أن سألوا من فورهم: حسنًا، متى يأتي هذا العذاب إذن، متناسين كل ما ذكر الله من قبل من شروط العذاب وأسباب تأخره ذكرًا مفصلاً. وكأنهم لن يُشفى غليلُهم إلا بآية العذاب. ومما يؤسَف له أن مسلمي اليوم قد سلكوا المسلك نفسه إزاء سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام ، حيث كانوا يطالبونه دائما بالعذاب كآية على صدقه.

قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إلا مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٠﴾

التفسير: هذه الآية تشتمل على رد لطيف آخر على ما طالبوا به النبي ﷺ، حيث يقول الله تعالى لنبيه أن قُلْ لهم أما أنا فلا أملك النفع ولا الضر حتى لنفسي، فكيف أحقق مطلبكم.

هذه الآية وما على شاكلتها من آيات عديدة توضح بكل صراحة وجلاء أن هدف القرآن إنما هو توطيد وحدانية الله ﷻ. إنه لا يقدم أحدًا -كائنًا من كان حتى ولو كان خاتم النبيين محمدًا رسول الله ﷺ - كندٍّ ومماثل لذات الله سبحانه وتعالى.

إن الأمة المذكورة في قوله تعالى ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ هي جماعة معارضي الأنبياء، وليست الأمّة المذكورة في قوله من قبل ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾، والمراد من الجملة: لا مناص من أن يأتي على كل شعب كافر زمان يُطوى فيه صفّهم ببعث نبيٍّ إليهم ليأخذ مكانهم شعب آخر.

وكأن الرسول ﷺ يقول هنا: إنني لا أملك أي خيار في أمر العذاب، ولكني

أستطيع أن أؤكد لكم أن من سنة الله التي لا تبديل فيها، أن كل أمة تزدهر إلى حد معين ولفترة محدّدة، وحينما تتعرّى من المحاسن تؤول إلى الهلاك والدمار. لذلك إنني أعلم بالتأكيد أنكم لن تعيشوا بهذه الحالة طويلاً، بل ستهلكون حتمًا، ليبدأ دور جديد من أهل الحق والصدق.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

أرأيتم: كلمة مركّبة من "أ" الاستفهامية و"رأيتم"، ومعناها: أخبروني. (الأقرب)

بياتًا: اسمٌ مِن بيَّتَ العدوَّ كالكلام مِن كلّم. وبيّت الأمرَ: عَمِله أو دَبَّره ليلاً. وبيّت القومَ والعدو: أوقع بهم ليلاً من دون أن يعلموا (الأقرب)

التفسير: تذكر هذه الآية أمرًا رائعًا للغاية، حيث يقول الله تعالى لرسوله الكريم أن قل لهم: لا ينبغي لكم أن تسألوا متى يأتي العذاب غدًا أو بعد غد، بل يجب أن تنظروا ما إذا كنتم تستوجبون العذاب أم لا. فإذا كنتم تستوجبونه فلا جرم أنه سيفاجئكم غدًا إن لم يصبكم اليوم. فعليكم -والحال هذه- بإصلاح أعمالكم لتنجوا من العذاب. أما إذا كنتم ترون أنكم لا تستحقونه فعليكم -بدلاً من السؤال عن موعده- أن تبرهنوا على صحة أعمالكم وسلامة حالكم، ولا مجال لنـــزول العذاب عليكم أبدًا.

وبقوله تعالى ﴿بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أشار إشارةً لطيفة إلى هلاك مشركي مكة، إذ كان مقدّرًا لهم أن يعذّبوا ليلاً ونهارًا. فقد عُذّبوا وقت النهار في معركة بدر إذ كانت هي

المعركة الحقيقية الأولى بين الطرفين، كما أُهلكوا وقت الليل في معركة الأحزاب وكانت هي المعركة الأخيرة في الواقع.

وقد ذكر عذاب الليل قبل عذاب النهار، لأن العذاب الذي حل بهم بالليل كان أشدَّ وطأةً إذ كان يمثّل الضربة القاضية عليهم.

وضمير الغائب في ﴿منه﴾ في قوله تعالى ﴿ماذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يمكن إرجاعه إما إلى الله سبحانه وتعالى، أو إلى العذاب.

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير: أي.. إن غاية ظهور الآية الإلهية أن ينتفع أحدٌ برؤيتها ويؤمن، فما هي نيّتكم أيها المطالبون بآية العذاب؟ هل ستؤمنون عند رؤيتها؟ كلا. لا ينفع نفسًا إيمانها عند رؤية العذاب، وإنما يقال لها عندئذ: لا جدوى من الإيمان الآن، بل تذوَّقِي الآن العذاب الذي كنت تطالبين بنـــزوله عاجلاً.

ما أعظَمَه دليلاً وأقواه برهانًا لإفحام الذين يطالبون بالعذاب. إذ يقول إنما جُعلت الآيات لينتفع بها الناس، ولكن آية العذاب لا تنفع طالبها شيئًا، وإنما تنفع غيره. والذي يهلك بالعذاب ويبقى محرومًا من قرب الله تعالى لا يستفيد من إيمان الآخرين، إضافةً إلى أن إيمانهم أيضًا ليس بالأمر المضمون.

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

الخُلد: البقاء والدوام. خَلَدَ يخلد خلودًا: دام وبقي. خلد الرجل خَلدًا وخلودًا: أبطأ عنه المشيبُ وقد أسنّ. وخلد بالمكان وإلى المكان: أقام به. خلد إلى الأرض: لصق بها واطمأن إليها. (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أنه سيصيبكم عذاب مقيم فيكم لاصق بكم. ولكن ذلك لا يعني أنه عذاب غير زائل أبدًا، وإنما هذا أسلوب لبيان شدة العذاب، والمراد أنه إذا أصابكم فلن تستطيعوا ردّه عنكم. مثلما إذا جاء صاحب البيت فلا يمكن لمن هو فيه أن يردّه عن الدخول فيه قائلا: اذهب، لا مكان لك هنا، كذلك العذاب إذا حل بكم فلن تقدروا على رده ومنعه.

وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

إيْ: حرفُ جوابٍ بمعنى نَعم، ولا تقع إلا قبل القَسم. (الأقرب)

التفسير: إن الشرير الذي لا يملك جوابًا يلجأ إلى الاستهزاء والسخرية. يقول الله تعالى لرسوله الكريم: إن هؤلاء الأشرار -لعجزهم عن دحض هذه البراهين- سوف يأخذون بالاستهزاء بك وسوف يسألونك بوجوه تعلوها الجدّية في الظاهر: هل نبأ العذاب هذا حق فعلاً؟ فلا تكترث بسخريتهم ورُدَّ عليهم: نعم، أُقسم بربي إنه لحق وإنه لاحق بكم لا محالة.

والمراد من نبأ العذاب هنا عذاب قومي، كما ذُكر ذلك في موضع آخر من القرآن: ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ (النبأ: ٢-٣)

وباستخدام لفظة (ربي) عرض الله حالة النبي ﷺ في ذلك الوقت كدليل على صدق

دعواه، ونبّه الكفار قائلا: انظروا كيف أن الله تعالى بعث رسولاً، ثم لم يزل يدرّجه في منازل الرقي شيئًا فشيئًا، ويزيده قوة على قوته؛ ومن جهة أخرى ما زال يكسر شوكتكم، ويضعف قوتكم بالتدريج. وبإمكانكم أن تدركوا من ذلك بكل سهولة أن الوقت قادم حينما يكون الانتصار الشامل حليفه وتكون الهزيمة القاضية نصيبكم. فاستهزاؤكم بهذا النبأ إن دَلَّ على شيء فإنما يدل على غبائكم، وإلا لما شككتم في صحة موقفه أبـــدًا إن كنتم عاقلين.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

أسرّوا: أسرّ السرَّ: كَتَمه؛ أظهَرَه. (الأقرب)

التفسير: من طبيعة الفطرة البشرية أنها تُبدي نوعين من رد الفعل عند حلول العقاب. فالبعض يتمردون وينبرون للمقاومة؛ والبعض الآخر ينهارون تمامًا. ويقول الله تعالى هنا: إن لعذابنا تأثيرًا غير مشكوك فيه وإن له وقعًا كبيرًا ويقينيًا في نفس البشر، يعجز عن احتماله كائنًا من كان، فلا يُبقي في نفسه من الغطرسة والكبرياء شيئًا. ذلك لأن ما يُنـــزل الناس بغيرهم من عقوبة لا يعدو تأثيرها الأجسامَ حتى يقهر القلوبَ، اللهم إلا الجبناء الذين يصيبهم الهلع والرعب لضعفٍ فطريٍ فيهم. ولكن الله يملك سلطانًا كاملاً على القلوب، فيكون تأثير عذابه على الأجسام والقلوب معًا، وهكذا يتم تطهير القلوب مما فيها من رِجس. فقال: عندما نُنـــزل عقابنا بأحد يمتلئ قلبه هلعًا وخوفًا، فيستعد لتضحية كل غالٍ ورخيصٍ ليفوز بالنجاة.

وهناك أيضا سبب ظاهري لامتلاء القلوب خوفًا من العذاب الإلهي. ذلك أن عذابه يأتي دائما في محله وفي موعد ملائم تمامًا، ولذا تضطر القلوب للاعتراف بصحته وعدالته، وتبدي ندمًا على ما أسلَفَتْ. وعندما تتولد الندامة في الإنسان يحاول أن يتدارك خطأه. وأما عقوبات البشر فقد يخطئون فيها، ولذلك تصمد لها النفوس وتتمرد عليها إذا رأت فيها ظلمًا وتعسفًا.

كما تعني الآية أن عذاب الله إنما ينـــزل بالظالمين الذين يهبّون لمحاربة تعاليمه الحقة. والذي يعارض الحق لا يكون له في الواقع أيّ هدف سامٍ يسعى إليه أو مُثل عليا يضحّي من أجلها، وإنما هي أهواؤه الدنيّة التي تدفعه لمعارضة رسل الله تعالى. والقاعدة أن الذي لا يَتَطَلَّعُ إلى غايةٍ سامية لا يستطيع بذل تضحية كبيرة، وإنما يكون قلبه مصابًا بالخِسّة واللؤم، لذلك عندما يصيبهم الله بالعقاب لا يستطيعون عليه صبرًا، لكونهم فريسة للأهواء الدنية والرغبات الخسيسة، وإنما يحاولون النجاة بنفوسهم ببذل أي شيءٍ ولو كان غاليًا عزيزًا مما يحميه الإنسان الشريف من كرامة قومية أو غيرها ولو على حساب حياته. وهذا دليل على خطأ موقفهم، لأنهم لو كانوا على حق لما أقدموا على هذه الخطة الخسيسة.

أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

التفسير: أي أَنَّ كل شيء في السماوات والأرض مِلك للّه تعالى، فالسعي لإرضائه بالفدية أو لإغراء عباده الصالحين بالمال لينثنوا عن هدفهم أمْرٌ عبث لا جدوى منه، لأنهم سوف يحققون هدفهم لا محالة. لقد حاول أهل مكة بشتى الطرق

إغراء النبي ﷺ ليكفّ عن محاربة الشرك، فما كان جوابه لقومه إلا أن قال: "والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركتُه". (السيرة لابن هشام).

كذلك لَمَّا بَادَأَ الفرسُ المسلمين القتالَ ودخلت جنود المسلمين في الأراضي الإيرانية ردًّا على عدوانهم سعوا للتصالح مع المسلمين نظير أموال عرضوها عليهم، ولكن المسلمين رفضوا عرضهم هذا ليحقق الله على أيديهم ما وعدهم بِهِ (تاريخ الطبري، أحداث السنة الرابعة عشرة للهجرة).

والواقع أَنَّ ملوك الدنيا يحتاجون إلى الأموال ولذلك يفرحون بما يُعرَض عليهم من فدية وخَراج، ولكن الله ﷻ هو الذي خلق الأموال، فلا وزن ولا قيمة للفدية عنده، اللهم إلا أن يقدّم إليه المرءُ نفسَه ضحيةً. والله تعالى يتقبل ضحية النفس لأنها وسيلة لتطهير النفوس البشرية.

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

التفسير: أي أنهم يستغربون أن يُقام أحد منهم نبيًا وينجح أيضًا. ألا يفكّرون في التطورات الحاصلة أمامهم كل يوم، حيث يرتقي البعض وينحط البعض الآخر؟ فكيف يستغربون إذًا أن ينتصر مَن بعثه الله الذي إليه يُرجَع هؤلاء، بل كل شيء في الكون سوف يرجع إليه ليقضي بينهم بقضائه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي

الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

موعظة: وَعَظَه: نَصَحَه وذكّره بِمَا يليّن قلبَه من الثواب والعقاب. وقال الخليل: الوعظ هو التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب. الموعظة: كلامُ الواعظ من النصح والحثّ و الإنذار (الأقرب).

التفسير: لقد نصحهم من قبل بأسلوب لطيف للغاية أن لا خير في تمني العذاب، فلا تطالبوا به. ثم بيّن لهم بشتى الطرق ما في العذاب من حِكم وأهداف، والآن يقول لهم: تعالوا أخبركم كيف يكون النجاح حليفًا لمحمد رسول الله ﷺ. فاعملوا أن سرّ نجاحه لا يكمن في كثرة العُدة والعتاد والأصحاب، وإنما نجاحه منوطٌ كليةً بكتابه العظيم المتّسم بمحاسن ومزايا لا يمكن أن يقف في وجهها مقاوم ولا معارض لمدة طويلة، بل لا مناص له من الرجوع إليها وقبولها في نهاية الأمر.

والمزايا التي يتحلى بها كتابه هي كما يلي:

الميزة الأولى: أنه موعظة، وذلك يعني:

أولاً: أنّه يحتوي على نصائح مخلصة نافعة. وما يقال عن نصحٍ وإخلاصٍ لا بدّ أن يقع في القلوب، فعندما ستُدركون أن محمدًا لا يريد بنصائحه مكسبًا شخصيًّا، ولا يطمع بها في مال ولا جاه ولا حكم، وإنما يريد بها مصلحتكم وخيركم، فسوف تنجذبون إليها تلقائيًا.

وثانيًا: أنّ فيه مطالبَ ومفاهيمَ ترقّ لها القلوب وتلين، إذ يركّز على حب الله وخشيته بحيث لا يستطيع حتى أقسى الناس قلبًا أن يقاومه.

وثالثًا: أنه يعلّم من أسرار الفلاح والرقي ما يأخذ بمجامع القلوب ويحيّر النفوس بدلاً من أن يولّد فيها نفورًا وكراهية تجاهه.

الميزة الثانية: أن فيه شفاء لما يتولّد في قلب المرء من وساوس وشبهات في أمور

الدين. الواقع أن الإنسان مهما بلغ من التردّي والانحطاط فإنه تنتابه من حين لآخر رغبة ملحّة في معرفة الحق وتصبو نفسه لإدراك الحقيقة. إنه يريد أن يكتسب طمأنينة فيما يتعلق بذات الله تعالى، والوحيِ والدعاءِ وعالم المعاد وغيرها من الأمور الروحانية. ولكن الأديان الباطلة أو المشوَّهة منها ليست بقادرة على أن تمنحه طمأنينته المنشودة، بل تزيده شكوكًا وشبهاتٍ في هذه القضايا الهامة لديه. فيقول يا ليت لي طريقًا لدفع هذه الوساوس. يقول الله تعالى هنا: هؤلاء سيجدون ضالتهم في القرآن الكريم. سوف يجدون كيف أنه يطهّر نفوسهم من كل ما يختلج فيها من وساوس وشبهات، وكيف تنجذب إليه قلوبهم بحيث لن يستطيعوا ردّه عنها.

الميزة الثالثة: إن الإنسان عندما يطّلع على سيرة أهل الله تعالى، ويعرف كيف أنهم أحرزوا مكانة سامية في التقرب الإلهي واليقين، وكيف أنه تعالى كشف لهم عن معارف دينية دقيقة، فإنه يتمنى بكل قوة لو يتحول إيمانه النظري إلى إيمان عملي مبني على الخبرة والعيان، فيرى بعينه ما رآه أهل الله من ألطاف إلهية من قبل. هذه الرغبة لا تزال تولّد اضطرابًا وهيجانًا في قلوب كثير من الناس، والله ﷻ يُطمئنهم بأنهم سيجدون في هذا الكتاب ضالتهم المنشودة، إذ يمنحهم الطمأنينة القلبية والهداية الحقيقية التي توصلهم بربهم، وعندما يدرك الناس أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يوصل الإنسان بربه، وليس هناك أيّة وسيلة أخرى، فسوف يندفعون إليه تلقائيًا.

الميزة الرابعة: ومِنَ الناسِ مَن تكون عقولهم سطحية فلا يستوعبون بها دقائق العلم والوجدان، وإنما هي الترقيات المادية التي تجذب أنظارهم، ولكي يهتدي مثل هؤلاء البسطاء إلى الحق وَعَدَهم الله في هذا الكتاب بأنواع النِعم والبركات، فمن آمن به نال من الله نعمًا وأفضالاً وحقّق بعونه تعالى رقيًا ماديًا. فهؤلاء العامة الذين لا يقدرون على إدراك حقائق الأشياء وإنما ينظرون إلى تأثيرها ونتائجها حينما سيرون أنواع الرقي المادي المنوط بتصديق هذا الكتاب فإنهم سوف يؤمنون به رغبةً في هذه النعم

المادية .

إذا تدبرنا هذه المزايا الأربع للقرآن الكريم أدركنا أنه لم يزدهر الإسلام بل ولا أي دين آخر، إلا بفضل هذه المزايا والكمالات. فالذين كانوا أرق طبعًا وأرهف حسًا قبلوا الإسلام وانتفعوا بتعاليمه وبما فيها من نصح صادق ومخلص. وأما الذين لم يملكوا طبائع حساسة بهذه الدرجة اطمأنوا بما في الكتاب الكريم من أدلة عقلية، وأما من كانوا أدنى منهم حسًا وشعورًا فاتعظوا برؤية ما أحدث القرآن الكريم من تطور مدهش وعظيم في أخلاق المسلمين، وما تشرفوا به من الوصال بالله ﷻ، وأما الذين كانوا أغلظ الناس طباعًا أيقنوا بصدق الإسلام عن طريق ما حققه المسلمون من رقي مادي بفضل تعاليم القرآن، فدخلوا فيه أفواجًا.

لقد أثار البعض اعتراضًا على قوله تعالى ﴿شِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وقالوا: إنما تتولد الأفكار في الدماغ، فما المراد من قوله بأنه شفاء لما في الصدور أو القلوب؟

والجواب: إن الأمور الروحانية ذات صلة وثيقة بالقلب، وقد شهد على ذلك جميع أهل الله بتجاربهم الشخصية. وكما أننا لا نقدر على أن نعلم بالمقاييس المادية ماهية الروح، وما بينها وبين الجسد من علاقة، كذلك من المستحيل أن نعرف ماهية علاقة الروح بالقلب باستخدام القوانين المادية. فلا مناص لنا من أن نصدّق ونوقن بشهادة هؤلاء الذين مرّوا بأنفسهم بتجارب روحانية والذين هم مجمعون على أن للقلب صلةً يقينية بالأمور الروحانية.

أما كون الأفكار تتولد في الدماغ فلا يتعارض مع كون القلب ذا صلة قوية بالروحانيات، إذ من الممكن تمامًا أن يكون لبعض التغيرات الواقعة بالدم تأثير خاص على كون الأفكار صالحةً أو فاسدة. وبما أن الدم ذو صلة بالقلب فقد يكون القلب مؤثرًا بهذا الشكل على الأفكار تأثيرًا خفيًا. ثم إنه من البديهي أن الغذاء له تأثير قوي على أفكار الإنسان، وهذا التأثير الغذائي على النفس لا يحصل إلا عن طريق الدم الذي له صلة واضحة بالقلب، وهكذا نستطيع القول بأن القلب أيضًا منبع للأفكار.

ولقد ذكر القرآن هذا المعنى في مكان آخر مبينًا أن الغذاء الطيب له صلة عميقة بالأعمال الصالحة حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾(المؤمنون: ٥٢)

قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

التفسير: أي أن هذه النِعَم إنما تُنال بفضل الله وتوفيقه، ولا أحد يستطيع تحصيلها بقوته وجهوده. فمن كان يؤمن بالله لا ينبغي له أن يزهوَ بثرائه أو يفاخر بعشيرته، إذ لا وزن لهذه الأشياء ولا قيمة لها إزاء ما يهبه الله تعالى من فضله ورحمته، وإنما على الإنسان أن يفرح ويفخر على الأشياء التي أكّد الله على صحتها ومنفعتها.

وضمير الغائب في قوله تعالى (هُوَ خَيْرٌ) قد يرجع إلى الفضل الإلهي أو إلى عملية الحصول على الفضل، وقد يرجع إلى القرآن الكريم الذي قد سبق الكلام عنه آنفًا، والمراد: أنكم تسألون وأنتم المغرورون بأموالكم وعشائركم: كيف ستتحقق الغلبة لمحمد وهو دونكم مالاً وأضعفكم جاهًا؟ ألا فاعلموا أن السلاح الذي أعطيناه محمدًا هو سلاح القرآن وإنه يفوق كل ما لديكم من أسلحة وثروات وعشائر، ولن يصمد سلاحكم ولا ثراؤكم ولا جاهُكم في وجه هذا السلاح الجبار، بل إن الفوز والغلبة سيكونان حليفَيْ محمد وحده.

ما أعظَمَ وما أروَعَ الحقيقةَ التي يذكرها القرآن الكريم هنا، حيث يقول: إن الحقائق الروحانية هي التي تعلو على الماديات. لا شك أن الحق يبدو في أول الأمر أضعف شيء في الوجود، ولكنه ينتصر على كل شيء في آخر المطاف. لو أدرك الناس هذه الحكمة لما آثروا الأشياء المادية على الحقائق الروحانية قط.

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنْزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير: لقد أعلن من قبل أن محمدًا قد أوتي كتابًا يطهر القلوب من الشكوك، والآن بدأ يبرهن عن ذلك بذكر عادة كانت رائجة بين الكفار، وما كان بيدهم أي دليل على صحتها إلا أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، بينما عقولهم ما كانت تطمئن بها، وهي عادة تحريم الأشياء أو تحليلها دونما دليل.

الواقع أن الطعام هو من أهم الضروريات الأساسية للناس، وأن إرشادهم في شأنه هو من الواجبات الأولية في كل دين، ولكن لم يكن لدى الكفار بل لدى العالم كله أي تعليم سليم كامل في هذا الصدد، لأنهم كانوا يحلّلون ما شاءوا، ويحرّمون ما شاءوا دونما قانون ولا ضابط. وما كان العقل ليرضى بهذه الفوضى. إذ يجب أن يحرَّم الشيءُ بناءً على برهان طبّي أو خُلقي أو روحاني، لأن تحريم الشيء إنما يكون لوجود عيب فيه من هذه النواحي، ولكنّ تحريم الأشياء تحريمًا اعتباطيًا يعني وكأن الله قد خلقها عبثًا دون أي هدف. ومثل هذه العادة الفوضوية لا بدَّ من أن تبث الشكوك في قلوب الناس. ولا يستطيع أي دين القضاءَ على هذه الشبهات إلا الذي يبين للتحليل والتحريم قواعد محدّدة حكيمة يقبلها العقل السليم مقتنعًا، وإن الإسلام وحده يمتاز عن سائر الأديان بهذه الميزة، إذ وضع لذلك قواعد معينة وحكيمة، فلا يسمح بتحريم الأشياء أو تحليلها بصورة عشوائية.

كما وجّه بذلك سؤالا إلى الكفار يقول: ما هو السبب وراء عداوتكم للإسلام؟ هل هناك عادات أو تقاليد ينهاكم عنها وهي نافعة ومفيدة في الواقع؟ هل تغضبون مثلاً حين ينهاكم الإسلام عن تحريم الأشياء أو تحليلها دونما سبب؟ لقد كانت عادتكم هذه من التفاهة والسخافة بحيث كان لا بد لكم أن تتركوها غدًا أو بعد غد،

سواء نـــزل النهي عنها في القرآن أم لا. وإذن فيجب أن تفرحوا بنـــزول هدي السماء بدلاً من أن تسخطوا عليه.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

يوم القيامة: معناه هنا (في يوم القيامة).

التفسير: أي لو كان أحد مؤمنًا بالله تعالى إيمانًا حقيقيًا لما افترى على الله ولما عزا إليه الباطل كما تفعلون في هذه القضايا. فيجب ألا تروا هذه العادات أمورًا هامشية مستهينين بها، بل هي دليل على خلوٍّ قلوبكم من الإيمان بالله وعلى عَمَى أبصاركم عن رؤية الصفات الإلهيَّة، وإلا كيف يمكن أن يمن الله عليكم بهذه النعمة العظيمة فتواجهونها بالنكران، مؤثرين على هَدْيِ السماء ما تأتي به عقولكم المريضة من أمور فاسدة.

وقد يكون للآية معنى آخر، حيث تقدم إنكارهم ليوم القيامة كدليل ثانٍ على فساد عقائدهم وكونها منافيةً للعقل السليم. إن إنكار يوم القيامة يرجع إلى خوف الفطرة حتى من مجرد تصوّر يوم الحساب والعقاب، وحيث إنها تصاب بالهول والهلع لمجرد التفكير فيه فتنكر وجود ذلك اليوم نهائيًا، مع أن الحقائق لا تتغير بإنكار الناس لها. وإذن فإن الله تعالى يدحض هنا تصورهم الخاطئ ليوم القيامة مبينًا لهم بأنه إنما جعل يوم القيامة لإصلاح الناس لا لإيذائهم، كما تُحدَّد أيام للامتحانات في المدارس لكي يجتهد الطلاب ويرتقوا إلى الدرجات العليا. لا شك أن بعضهم يفشلون، ولكن لا

يكون الهدف من الامتحان إفشالهم وإنما ترقيتهم. فمن اعترض على يوم الامتحان فإنه جاهل دون ريب، إذ لا أَحد يُكرهه على الفشل بل كل ما عليه أن يجتهد لكي ينجح. أما الذي يتكاسل ويتهاون ثم ينكر وجود الامتحان كليّةً خوفًا من الفشل، فلن يؤدي به الإنكار إلا إلى المزيد من الكسل والتهاون، ولن ينجيه هذا التفكير الخاطئ من الدمار بل يقرّبه منه رويدًا رويدًا.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

الشأن: الخطبُ أي ما عظم من الأحوال والأمور؛ والحالُ؛ الأمرُ. ويقال: من شأنه كذا، أي مِن طبعه وخلقه (الأقرب)، والمراد من الشأن هنا ما كان للنبي ﷺ من شئون ومشاغل دينية، لأنها أهم أعماله.

تُفيضون: أفاض الماءَ على جسده: أفرغه. وأفاض دمعه: سكبه. وأفاض الناس من عرفات: اندفعوا ورجعوا وتفرقوا، أو أسرعوا منها إلى مكان آخر. أفاض القوم في الحديث: اندفعوا وأسرعوا. وأفاض فلان الإناءَ: ملأه حتى فاض. أفاض القداحَ وبالقداح وعلى القداح: ضرب بها. أفاض بالشيء: دفع به ورمى. أفاض القوم على الرجل: غلبوه. ما أَفاض بكلمة: أي ما أفصح بها (الأقرب). فهذه الكلمة تستعمل للكلام عمومًا، ولكنهم يستخدمونها للعمل أيضًا كعادتهم في استخدام الفعل توسعًا

كقولهم: عَلَفَ الدابة تبنًا وماءً، بدلاً من: علف الدابة تبنًا وأسقاها ماءً.

يعزب: عزب الشيءُ عنه يعزب عزوبًا: بعُد وغاب وخفي. يقال: عزب عنه علمُه: غاب. وعزب الرجل: ذهب. (الأقرب)

مثقال: المثقال: ما يوزَن به. ومثقال الشيء: ميزانه من مثله (الأقرب)

ذرة: الذرة واحدة الذر وهي صغار النمل؛ الهباء المُنْبَثّ في الهواء (الأقرب)

التفسير: إن ضمير الغائب في (منه) يمكن أن يكون عائدًا على القرآن، أو يكون عائدًا على الموعظة المشار إليها بقوله ﴿قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أو يكون عائدًا على الله تعالى.

هذه آية رائعة للغاية إذ يوحي أسلوبها وكأن الله تعالى يتكلم متمكنًا من العرش وهو يخاطب أولاً النبي وأصحابه الجالسين أمامه في ناحية، ثم يتوجه بالخطاب إلى الكفّار وهم أيضًا جالسون في ناحية أخرى.حيث إن الجزء الأول من الآية موجَّه إلى الرسول والمؤمنين، بينما الجزء الثاني ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ موجه إلى معارضيه.

وقوله تعالى ﴿وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ إن قوله ﴿وَلا أَصْغَرَ﴾ مفهوم لأن الشيء الصغير يغيب عن النظر، ولكن يتحيَّر المرء لماذا قال هنا ﴿وَلا أَكْبَرَ﴾، لأن الشيء الأكبر لا يغيب عن نظر الإنسان. فيبدو لأول وهلة وكأن هذا سجع فقط لا فائدة منه. ولكن الحقيقة على عكس ذلك، لأن العين لا يمكن أن تدرك أيضًا الشيء الكبير جدًا. فمثلاً لو وقفت أمام جبل كبير فلن ترى منه إلا جزءًا صغيرًا جدًا، بينما يغيب عنك معظمه. فثبت أن الشيء يمكن أن يغيب لكونه صغيرًا أو كبيرًا أيضًا.

لذلك يخبرنا الله تعالى هنا أن رؤيته واسعة للغاية بحيث لا يمكن أن يغيب عن نظره أي شيء مهما كان ضخمًا، كما أن رؤيته تعالى لطيفة أيضًا فيستحيل أن يخفى عليه أي شيء مهما كان ضئيلاً.

ويتأكد هذا المعنى ويتضح تمامًا من الناحية العلمية المحضة بمثال العين والأذن. فقد أثبت العلماء أن كلاً من الرؤية والسّماع يتوقف على ذبذبات متوالية متواترة تسمى بالإنجليزية (Vibrations)، وأن كلاً منهما يعمل في نطاق ذبذبات محدّدة السرعة، فالعين مثلاً لا تقدر على رؤية الأشياء إلا ما وقع منها بين حدٍّ أعلى وآخر أدنى من هذه الذبذبات. وكذلك الأذن فإنها لا تسمع إلا الذبذبات التي تكون سرعتها ما بين ثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة في الثانية. (دروس علم النفس ص ٧٥).

فالثابت علميًا أن الأشياء الكبيرة جدًا تفوت أيضًا إدراكَ العين والأذن بسبب ضخامتها. ولكن الله يقول: إن هذا لا يحدث معنا، فكل شيء -مهما صغر أو كبر- محاطٌ بعلمنا.

ويذكّر الله تعالى في الآية كلاً من المؤمنين والكفار أن قبول الحقيقة أو القيام بالعمل لا يكفي، بل إنه تعالى يراعي عند الجزاء نيّة العامل وأسلوب أدائه له.

فعلى الإنسان أن يحاسب نفسه دائما، لأنه لا يكفيه فقط قيامه بخدمة دينية جليلة أو قراءته كلامَ الله على الناس، بل عليه أن يراقب نيته وأسلوبه لدى أداء هذه الأعمال، إذ يمكن أن يتسرب الفساد إلى نيته أو يؤدي العمل بأسلوب منفّر للناس بدلاً من أن يقرّبهم إلى الله ﷻ. فلا تفرحوا بأنكم تعملون من أجل الدين، لأن الله سوف يرى ما إذا كانت نياتكم طاهرة أم لا، وما إذا كان أسلوبكم مقربًا الناسَ إليه ﷻ أم منفرًا أكثر من ذي قبل.

ولنعلم أن ضمير الخطاب في ﴿تَتْلُو﴾ للواحد، ولكن الخطاب موجّه إلى جميع المسلمين، والمراد: هناك فريقان يتباريان: مؤمن وكافر، ولكننا لن ننحاز إلى الفريق المؤمن لكونه ممثلاً لنا، بل سنرى إلى نيات وأعمال كل فريق. فاسمعوا يا من تقرءون القرآن، لو أنكم لم تقرءوه عليهم بحسن نية وبكامل حكمة فرفضوه بسبب ذلك فسوف نؤاخذكم أنتم. أما إذا أدَّيتم واجب نشر القرآن الكريم على أحسن وجه، ومع ذلك كفروا به فسوف نؤاخذهم هم. فإننا لا نرى إلى العمل فحسب، بل إلى

النيات والظروف أيضًا.

أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

ألا: للتنبيه والتحذير عمومًا، ولكن هنا بمعنى البشارة.

التفسير: لقد أخطأ البعض في فهم قوله تعالى ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، فظنوا أن المراد منه أن أولياء الله تعالى لا يمرون بأي خطر، ولكن اللغة العربية لا تجيز هذا المعنى، لأن الخوف على أحد يعني أن يخاف أن تلحقه خسارة أو يهلك، فيقولون: خفت عليك أو خفت على نفسي. وهذا هو المراد هنا.. أي أنهم يكونون على يقين من نجاحهم لدرجة أنهم لا يخافون على أنفسهم من أي خسارة أو فشل، وليس المراد أنهم لا يتعرضون للمخاطر.

وبيّن بقوله تعالى ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أنهم لن يغتمّوا على ماضيهم، وهذا إشارة إلى أنه تعالى يحمي أولياءه من عواقب أخطائهم التي وقعوا فيها قبل نيلهم الدرجات العلى في قربه سبحانه وتعالى.

ما أكثَرَ ما في هذا المقام من الأمن والأمان. ليس هناك أية قوة في العالم تضمن سلامة الإنسان من أخطار المستقبل وأخطاء الماضي، إلا ذات الله تعالى التي يجد الإنسان في كَنَفِها الطمأنينةَ الشاملة والسكينة التامة. ولكن المؤسف أن هذه هي الحقيقة التي قلّما يدركها الناس ويهتمون بها، فيقرعون أبوابًا لغير الله تعالى بحثًا عن العلاج الشافي لمشاكلهم وآلامهم، ولا يكون نصيبهم إلا اليأس والحرمان.

هذا وقد ذكر القرآن في أماكن أخرى أن أنبياء الله وأولياءه يصابون بالخوف والحزن، ولكن ذلك لا يكون من أجل أنفسهم وإنما بسبب الآخرين. وإن خوف

الإنسان أو حزنه من أجل الآخرين لا يُعدّ عقابًا أو منقصة، وإنما هي فضيلة ومكرمة، حيث يعتبر مصابَ الآخرين مصابه هو ويشاطرهم همومهم. وبهذا المعنى ذكر القرآن الكريم حزن يعقوب عليه السلام، إذ لم يكن حزنه بسبب تقصيرٍ منه، وإنما كان حزنه من أولاده الذين كانوا يرتكبون المعاصي وهكذا كانوا يُحرمون من قرب الله تعالى. وبنفس المعنى كان خوف زكريا عليه السلام إذ دعا ربه: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ (مريم: ٦).. أي أخاف أن يفسد أقاربي وعشيرتي من بعدي. وخوفه هذا دليل على صلاحه وفضله ومدعاة للخير والثواب، لأنه ليس خوفًا من أجل نفسه وإنما من أجل الآخرين كيلا يضلوا وينحرفوا.

الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير: هذه الآية تصف أولياء الله تعالى بأنهم أرقى الناس كمالاً في الإيمان وأعلاهم درجةً في التقوى والصلاح. ولقد شرح النبي ﷺ معنى الولاية شرحًا يبدو وكأنه تفسير لهذه الآية. يقول سيدنا محمد المصطفى ﷺ:

"إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله، فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف. فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي، لماذا عملتَ؟ فيقول: يا رب، خلقتَ الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرتُ ليلي، وأظمأت نهاري شوقًا إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي، إنما عملتَ للجنة، هذه الجنة فادخلْها، ومن فضلي عليك أني قد أعتقتك من النار، ومن فضلي عليك أن أُدخلك جنتي. فيدخل هو ومن معه الجنة.

قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني فيقول: عبدي، لماذا عملتَ؟ فيقول: يا رب، خلقتَ نارًا وخلقت أغلالاً، وخلقت سعيرها وسمومها ويحمومها، وما أعددت

لأعدائك وأهل معصيتك فيها، فأسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري خوفًا منها. فيقول: عبدي، إنما عملتَ ذلك خوفًا من ناري، فإني قد أعتقتك من النار، ومن فضلي أن أدخلك جنتي، فيدخل هو ومن معه الجنة.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول: عبدي، لماذا عملتَ؟ فيقول: حبًّا لك وشوقًا إليك. وبعزتك قد أسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري شوقًا إليك وحبًا لك. فيقول تبارك وتعالى: إنما عملت حبًّا لي وشوقًا إلي. فيتجلى له الرب ﷻ فيقول: ها أنا ذا، فانظرْ إليّ. ثم يقول: مِن فضلي عليك أن أُعتقك من النار وأُبيحك جنتي، وأُزيرك ملائكتي، وأُسَلّم عليك بنفسي. فيدخل هو ومن معه الجنة. (فتح البيان، يونس، الآية:وما ظنّ الذين... الخ)

ويبدو أن هذا الذي يؤتى به من كل صنف من أهل الولاية سيكون أفضَلَ وأكمل فرد فيهم، وكأنه يتقدم إلى الله تعالى مُمثِّلاً عنهم. وأما أكمَلُ فرد من الجماعات الثلاث وأعلاهم مقامًا في الولاية فهو يقينًا نبينا الكريم محمد المصطفى ﷺ، لأنه هو الذي كان ينادي لحظة وفاته بنبرة تفيض رقةً ولوعةً: اللهم الرفيق الأعلى.. الرفيق الأعلى (البخاري، المغازي).. أي أريد لقاء ربي.

وهناك أحاديث أخرى تذكر درجات شتى للأولياء منها:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله عبادًا يَغبِطهم الأنبياء والشهداء. قيل: من هم يا رسول الله، لعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابّوا في الله من غير أموال ولا أنساب. وجوههم نور على منابر من نور. لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس" (ابن كثير، يونس، الآية: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم).

يا لها من أيام رائعة حيث كان الصحابة –رضوان الله عليهم أجمعين– يحبون الصالحين من عباد الله تعالى، أما اليوم فالناس يكرهون الصلحاء.

والحديث يعلّمنا الطريق الذي يصير به الإنسان وليًا لله تعالى، وهو أن يحب الذين يجتمعون على يد نبيٍ غير خائف لومة لائم، ابتغاء مرضاة ربه ﷻ. هناك كثيرون

يطلبون اليوم الدعاء لكي يصبحوا من أولياء الله تعالى، فعليهم أن يتذكروا أن السبيل إليه أن يطهّروا قلوبهم من البُغض، ويتركوا سبيل التفرقة، ويتحدوا مع جماعة إمام الزمان سيدنا الإمام المهدي عليه السلام، غير خائفين لومة أهل الدنيا، ولا وَجِلين من الشدائد والمحن.

هذا، ولا يُخدعنّ أحدٌ هنا مما ذكر الحديث من اغتباط الأنبياء بهؤلاء الأولياء، فيظن خطأً أنهم أصبحوا أعلى من الأنبياء درجة. كلا، إنما المراد من غبطة الأنبياء لهم هو تمنّيهم أن يكثر أمثالُ هؤلاء في أتباعهم، وليس أن يحرز الأنبياء هذه الدرجة، إذ لا يمكن لأحد أن ينال النبوة إلا إذا كان قد صار من أولياء الله تعالى واتصف بهذه الصفات من قبلُ.

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٥﴾

التفسير: البشرى المذكورة في الآية قد فُسرت في العديد من الأحاديث الشريفة ومنها ما يلي:

الأول: "عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: "الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له". (ابن كثير)

الثاني: "عن أبي الدرداء قال: أتاه رجل فقال: ما تقول في قول الله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ قال: لقد سألتَ عن شيء ما سمعتُ أحدًا سأل عنه بعد رجلٍ سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم. قال: بشراهم في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم وتُرى له، وبشراهم في الآخرة الجنة" (مسند أحمد، ج ٦ ص ٤٤٧)

الثالث: وفي رواية: "تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له" (ابن كثير).

الرابع: في رواية عن هذه البشرى: "يراها المؤمن في المنام أو ترى له".

الخامس: "عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله ﷺ: لقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له، وهي جزء من أربعة وأربعين جزءًا أو سبعين جزءًا من النبوة (ابن كثير).

السادس: "عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به؟ فقال: تلك عاجلُ بشرى المؤمن". (مسلم)

السابع: "عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لهم البشرى في الحياة الدنيا" قال: الرؤيا الصالحة يبشّر بها المؤمن. هي جزء من تسعة وأربعين جزءًا من النبوة. فمن رأى ذلك فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه، فلينفثْ عن يساره ثلاثًا وليسكتْ ولا يخبر بها أحدًا (مسند أحمد، ج ٢ ص ٢١٩)

هذا، وقد ظن البعض خطأً أن ما نـــزل على سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام من وحي إنما هو من قبيل هذه الرؤى العادية. وهذا الظن ظن خاطئ تمامًا، ذلك أن الرسول ﷺ قد اعتبر بعض هذه الرؤى رؤىً شيطانية، كما سبق آنفا، ولا يمكن أن يكون في وحيِ أو رؤى حضرتِه -وهو الإمام المهدي الذي أقامه الله تعالى- شيءٌ من وحي الشيطان. ولقد قال حضرته عن نفسه: إنّي واثق بصحة الوحي النازل عليّ كثقتي بصحة القرآن الكريم. (الملفوظات ج ٥ ص ٧٤)

لا شك أننا نستطيع بناءً على هذه الأحاديث الشريفة إقناع المنكرين باستمرار الوحي الإلهي وبضرورته بعد النبي ﷺ، ولكن هذا لا يعني أنه ليس هناك أنواع من الوحي تكون أسمى درجةً من الوحي المذكور في هذه الأحاديث النبوية. غير أنه مما لا شك فيه أيضًا أن "المبشرات" لفظ عام يمكن إطلاقه على وحي الأنبياء وإلهام الأولياء أيضًا. فالآية تخبرنا باستمرار الوحي بكل أنواعه، وما كان خاصًا بالصحابة فقد ذكره

النبي ﷺ في هذه الأحاديث.

ويبيّن بقوله تعالى ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾ أمرين: الأول: أن ما ذكرناه من أمور هي سنة إلهية أزلية، وبما أنها جارية منذ القديم فسوف تبقى سارية المفعول الآن أيضًا.

والثاني: أن ما قطعناه من وعود وبشارات لن تلغى. ذلك أن بعض الأمور الغيبية لا تسمّى "كلمات الله" فيمكن أن تلغى، ولكن ما كان منها من "كلمات الله" فلا يلغى أبدًا.

ثم قال ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي أن تلقّي البشارة هو الفوز العظيم، أو أن عدم تغيُّر الكلام الإلهي هو الفوز العظيم. وكونُ تلقّي البشارة من الله تعالى فوزًا عظيمًا ظاهرٌ بيِّن، وأما عدم تغيُّر الكلام الإلهي فهو أيضًا سر كبير للفوز، سواء في الأمور الروحانية أو المادية. ذلك أن الأمور المادية إنما أساسها (كلمات الله) أي النواميس الطبيعية التي لا تتغير ولا تتبدل، والواقع أنها لو كانت عرضةً للتغيُّر كلَّ يوم لما تمكن الإنسان من هذا التقدّم والاختراع. فمثلاً النار تحرق، والماء يروي، والكهرباء تدمر، فكل هذه الأشياء تعمل بحسب قواعد وقوانين لا تقبل التغيير والتبديل، ولو أنها تغيرت خواصها لما استطاع الإنسان الانتفاع بها. فمثلاً لو أراد أحدٌ إشعال النار فيتدفق الماء من الموقد، أو أراد فتح الصُنبور فتخرج النار ويشب الحريق.. أقول لو حدث ذلك لما توجه الإنسان إلى الانتفاع من كنوز الطبيعة هذه، بل لاختلّ نظام الكون ودُمّر تمامًا. وعليه، فالنواميس الإلهية غير القابلة للتبدل هي الأساس لنجاحنا، وكلما اطلع عليها الإنسان تطور وازدهر.

وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾

التفسير: لقد ذكر من قبل أن أولياء الله ﷻ لا يحزنون، والآن يقول لنبيه: لا

تحزن، فلماذا هذا التعارض؟ والجواب هو ما ذكرته آنفًا بأن رسول الله ﷺ ما كان ليحزن لنفسه، وإنما كان حزنه وقلقه على ما يثيرونه من اعتراضات ضد ذات البارئ سبحانه وتعالى، ولذلك يطمئنه الله قائلاً: لا تلتفت، يا حبيبي، إلى فضولهم، ولا تحزن على ما يقولون عنا، فلن يضرونا به شيئًا، فإن العزة كلها ملك أيدينا .

هذه الآية تكشف لنا عن أمرين: أولهما: ما كان يملكه النبي ﷺ من فطرة طاهرة مرهفة بحيث ما كان يستطيع تحمُّل اعتراضاتهم ضد ذات الله تعالى. وثانيهما: مدى حب الله ﷻ لحبيبه المصطفى ﷺ، حيث يُطَمئن رسولَه الحزين ويخفف عنه قائلاً: هوِّن على نفسك يا حبيبـــي، فأنا ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. أسمع جيدًا ما يقولون وأعلم تمامًا ما يفعلون، وعندما أرى أن طعنهم قد تجاوز الحدّ وصار يمس كرامتنا عندها سوف نقضي على مكرهم هذا نهائيًا. فهذا الأمر في يدنا، ولا داعي لك أن تحزن.

أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴿٦٧﴾

شرح الكلمات:

ما: إما استفهامية بمعنى: أيُّ شيء، أو نافيةٌ. فالمعنى الأول: ما هو الشيء الذي يتخذونه شريكًا لله سبحانه، وفي هذا احتقار لشركائهم. والمعنى الثاني: أن الذين يدعون من دون الله فإنهم لا يدعون شركاء له في الحقيقة، إذ لا شريك له، وإنما يتبعون أهواءَهُم فحسب.

التفسير: هنا يُطَمْئن الله ﷻ رسولَه بطريقين: فأولاً يقول له: ما دام أمر العقاب في قبضتنا فلا يصيبنك حزن ولا قلق. لك أن تتأسف على حالتهم، ولكن تذكَّر دائمًا أن اتخاذ القرار في شأنهم بيدِ إلهٍ قادرٍ على ضربهم أو هدايتهم. وثانيًا يقول: إنه لا حقيقة

ولا قيمة لما يتبعونه، وإذًا فلا بد أن يتم القضاء على عقائدهم الفاسدة التافهة عاجلاً أو آجلاً، إذ لا تقدر الخرافة على الصمود أمام الحقيقة.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

لتسكنوا: سكن يسكن سكونًا: قرَّ. وسكن فلانٌ دارَه وسكن فيها سكَنًا وسُكنًا: استوطنها وأقام بها. وسكن إليه: ارتاح. وسكن عنه الوجع :فارقه. (الأقرب)

مبصرًا: أبصره: رآه، وأبصر فلانًا: جعله بصيرًا. (الأقرب)

التفسير: إن الشيء المتحرك بالإرادة إنما يتوقف لكي يكتسب المزيد من القوة والطاقة دائما. والواقع أن الله تعالى إنما جعل ظاهرة التعب والإرهاق في المخلوق لبيان الحقيقة نفسها، أي ليدرك الشيء أنه قد أصبح الآن بحاجة إلى غذاء وطاقة مرة أخرى. ولذلك كلما احتاج الشيء إلى الغذاء والطاقة عاف التحركَ، تحذيرًا بأن عليه أن يُشحَن بالغذاء من جديد. وبما أن الليل يجبرنا على ترك العمل – بهذا المعنى – لذلك نعتبره مجلبةً للراحة.

ولقد ذكر الليل على وجه التمثيل ليخبرنا أنه تعالى كما جعله سببًا لإنعاش قوى الإنسان وتنميتها مرةً أخرى، كذلك يحدث مع الأمم والشعوب، فإن ما يطرأ عليها من جمود وكسل يصبح في آخر المطاف سببًا في تطورها وإصلاح شأنها وأخلاقها، إذ تصحو من جديد بكل حماس وقوة بعد هذا الليل من الغفلة والبطالة. وذكرُ النهار أيضًا تمثيلي، لأنه يطلع بعد الليل ليستغل فيه الإنسان ما استجمعه بالليل من قوى

وطاقات.

وكأنما يقول الله ﷻ لمعارضي النبي ﷺ أن يأخذوا في اعتبارهم ما في ظاهرة الليل والنهار من عبرة ودروس، ويدركوا أنه قد جيء إليهم بالنهار الروحاني بعد ليل طويل، فيجب عليهم الآن أن ينتفعوا بضياء الشمس المشرقة عليهم. ولبيان هذا المعنى قدّم هنا ذكر الليل على النهار.

هنا ينشأ سؤال يقول: لقد أخّر ذكر النهار بوصفه مبصرًا ليدعوهم إلى فتح العيون فلماذا ختم الآية بذكر السمع بدلاً من ذكر الرؤية وقال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؟

والجواب: ليقول لهم بأنكم لا تزالون قابعين في الظلمات رغم طلوع الشمس الروحانية عليكم، ولا تبصرون. فاستخدموا على الأقل أسماعكم لتنتفعوا من خبرة الآخرين، عسى أن تكتب لكم الحياة.

قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

سلطان: السلطانُ: الحُجّةُ؛ التسلّطُ؛ قدرةُ الملك؛ الوالي؛ الملِكُ. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى من قبل أن أسباب هلاك الكفار متوفّرة في عقائدهم التي يعتنقونها، وتوضيحًا لذلك الأمر بدأ الآن يدحض عقائدهم الوثنية هذه، واختار منها ما كان رائجًا متداولاً بين الشعوب المتحضرة عندئذ، والذي كان أكثرها خطرًا وقوةً وانتشارًا، وهو أنهم جعلوا لله سبحانه وتعالى ابنًا.

لقد كان المشركون الآخرون يزعمون فقط أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى، وأما

هؤلاء فقد جعلوا لله شريكًا في ألوهيَّته بالذات. وقد ساق على بطلانه أربعة أدلّة هي: ١-﴿سُبْحَانَهُ﴾، ٢-﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾، ٣-﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، ٤-﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾.

الدليل الأول: فقوله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعنى أنه بريء من كل عيب ونقص، ولكنّ اعتقادكم بأنه اتخذ له ابنًا يعرّضه للنقائص من ناحتين: أولاً: إن كون أحد أبًا لغيره يستلزم كونه قابلاً للفناء والموت، وهذا عيب ونقص، فإننا نرى أنه لا يتناسل ولا يلد من الأشياء إلا الذي يحيطه الفناء قبل أن يحقق الغاية من وجوده. ولذلك لا نجد للأرض أو الشمس نسلاً، ذلك لأنهما باقيتان قائمتان إلى الأجل الذي يحتاج العالم إليهما، بينما نجد أن كل إنسان أو حيوان أو شجرة يموت وينقرض قبل استغناء العالم عنه، فيسعى للبقاء والاستمرار عن طريق التناسل والتوالد، لكي يأخذ الجديد مكان الفاني، فثبت أن توالد الشيء دليل على فنائه.

ثانيًا: إن التناسل والتوالد دليل على وجود الشهوة الجنسية، والشهوة منقصة أيضًا، لأنها تدل على وجود شيء زائد في جسم ذلك الكائن لا يستطيع الاحتفاظ به بداخله، فيحاول به إيجاد شيء مستقل خارج جسمه، ولكن الله ﷻ أسمى من أن يُعزى إليه مثل هذه المنقصة.

والدليل الثاني: هو قوله تعالى ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾، فإنه يعني بأنه تعالى ليس بحاجة إلى غيره، وفي ذلك دحضٌ لحجة أخرى يسوقها المشركون على جواز الشرك حيث يقولون: صحيح أن التناسل يهدف في الواقع إلى سدّ الفراغ الحاصل بفناء الأول، ولكن قد يحتاج هذا إلى وزير ليساعده في إنجاز مهامه. فأبطل حجّتهم هذه بقوله ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾..أي أنه في غنىً عن أي مساعدٍ أو وزير، فلا داعي للزعم بأنه اتخذ ابنًا ليساعده في تدبير ملكوته.

والدليل الثالث: هو قوله تعالى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.. أي لاشك أن الإنسان يصنع بعض الأحيان شيئًا ثم بعد مرور زمنٍ لا يقدر على التحكم

فيه والإشراف عليه، ولكن لا يحدث هذا مع الله ﷻ، بل هو أسمى من هذا العيب أيضًا وليس بحاجةٍ إلى أحدٍ لإدارة النظام الذي أوجده رغم مرور القرون بعد القرون.

والدليل الرابع: هو قوله تعالى ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾.. أي ليس لديكم أي برهانٍ يثبت مزاعمكم، فما دامت هي مزاعم بدون دليل فثبت أن ليس لله ﷻ أي ولدٍ في الواقع. إنه لمن الغريب فعلاً أن المشركين لم يقدروا-رغم محاولاتهم المضنية- على إيجاد أي برهانٍ على عقائدهم الوثنية. لا شك أنهم كانوا ولا يزالون يخوضون عند النقاش في المتاهات الفلسفية، ولكنهم لم يأتوا يومًا بأي برهانٍ على كون هذه الأشياء شريكةً لله ﷻ.

أما قوله تعالى ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾..فاعلم أنه قد سبق أن ذكر هذا الدليل في سورة الرعد بقوله ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ٣٤).. ويرجع اختلاف الكلمات في الآيتين إلى أنه تعالى يبيّن هنا أن الشرك ينشأ من الجهالة إذ ليس عليه أي دليل، أما في سورة الرعد فوضّح هناك أن عقيدة الشرك تعرّض الله ﷻ إلى الجهل بالموجودات، إذ تعني وكأن الله تعالى لم يستطع أن يعرف أن له شركاء في الواقع، ولكن المشركين عثروا عليه بقوة علمهم وبلّغوه الخبر!

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿٧٠﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ

ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

كَبُرَ: عَظُمَ وجَسُمَ. وكبُر عليه الأمر: شقّ واشتدّ وثقل. (الأقرب)

مقامي: المقام: الإقامةُ، وموضعُ الإقامة، زمن الإقامة؛ موضعُ القدمين؛ المنـــزلةُ.(الأقرب)

أجمِعوا: أجمَعَ القومُ على الأمر: اتفقوا عليه. أجمع أمرَه بعد تفرّقه: جعله جميعًا، وأجمع على الأمر: عزم (الأقرب).

غُمّة: أمر غمّةٌ: مبهم ملتبس (الأقرب).

اقضوا إليّ: قضى إليه الأمر: أنهاه وأبلغه (الأقرب) .

التفسير: إنني أُؤجّل الآن ذكر حالات نوح عليه السلام لأسردها بالتفصيل لدى تفسير سورة هود لأنها تتحدّث عن أحوال الأنبياء بالتفصيل، وأما هنا فأكتفي بشرح الآية فقط.

لقد سبق أن بيّنت أن السور التي تبتدئ بمقطّع (الر) تبحث عمومًا في الأحداث التاريخية بغيةَ الاستدلال منها على صدق الإسلام. وفي هذه الآية أيضًا، وبعد أن قدّم أدلة عقلية على صدق الإسلام، بدأ الله تعالى في سرد حادث نوح على الكفار حيث يقول لهم: تدبروا في حادثة نوحٍ مع قومه، هل ادّخر أعداؤه جهدًا في مخالفته ومعارضته؟ لقد بذلوا ضده جهودًا جبّارة ومكروا به مكرًا كُبّارًا، ومع ذلك خيّب الله مكائدهم ودمّرهم تدميرًا. لقد أمهلهم في بداية الأمر مهلة طويلة، ولكن لما بلغ سيل شرورهم الرُبى، وآمن به من آمن، أبادهم عن بكرة أبيهم.

قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾.. التلاوة هي قراءة شيء على أسماع الآخرين، والمراد من الجملة: يا محمد، لا تتجه إلى ما يرويه الآخرون عن نوح، بل اقرأ عليهم ما أنـــزلناه عليك في هذا الكتاب عن أحواله وأحداثه.

وأما قوله تعالى ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾.. فاعلم أن من أساليب اللغة العربية الاكتفاءَ بإيراد فعلٍ واحدٍ مكان اثنين في بعض الأحيان، وهذا ما فعله القرآن في هذه الجملة. فيمكن تفسيرها بمعنيين: الأول: أجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم. والثاني: أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم، باعتبار حذف فعلٍ هو (ادعوا). ونظيره قول الشاعر:

يا ليت زوجك قد غدا متقلِّـــدًا سيفًا ورمـــحا

(تاج العروس، مادة "جمع")

حيث استخدم كلمة (التقلّد) للسيف والرمح معًا، مع أنها خاصة بالسيف، أما الرمح فيُعتقل ولا يُتقلّد.

لقد ضرب هنا مثال ثلاثة من أنبياء الله الكرام: نوح وموسى ويونس عليهم السلام. وحادثة نوح مثال لدمار شامل، وحادثة موسى مثال لنجاة البعض وهلاك الآخرين، وحادثة يونس مثال لنجاة أُمّةٍ بأكملها. والقصد ببيان هذه الأمثلة أن يُخبر معارضي الرسول ﷺ بأننا نعامل الناس بهذه الأساليب الثلاثة. فإما أن نهلك أعداء رسلنا بشكل شامل، كما حدث مع قوم نوح حيث دمّرنا الشعب كله ما عدا عدة أنفس، وتارة ننجّي بعضًا من قومهم ونهلك الآخرين، كما حدث في زمن موسى إذ آمن به معظم بني إسرائيل فنجوا، بينما أهلكنا فرعون وقومه، وتارةً أخرى ننجي قومه جميعًا كما حصل مع قوم يونس. فينصح الله الكفار بضرب هذه الأمثلة ويقول: لماذا لا تكونون كأمة يونس، ولماذا تُقْدِمون على الهلاك كقوم نوح وموسى عليهم السلام؟

يظن العّامة أن ما يسرده القرآن الكريم من أحداث الأُمم الغابرة إنما هي حكايات وقصص للتسلية. كلا، لو تدبّرتم فيما يوجد في أحوال الأنبياء الثلاثة مثلاً، من نظام وترتيب رائعين لعرفتم أن الله تعالى لم يسردها لمجرّد التسلية أبدًا. ألم يمرَّ النبي ﷺ بأحداث مماثلة لها تمامًا في مُختلف الأماكن والفترات؟ ألم يكن مثيلاً لنوح في الفترة

المكيّة، ولموسى في الفترة المدنية، وليونس لدى دخوله مكةَ منتصرًا؟ وإذن فإنها ليست مجرد قصص عابرة، بل هي أحداث تنطوي على أنباء وبشارات.

أما قول نوح عليه السلام: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي﴾ فيقول فيه لقومه: هناك أمران قد يسوؤكم منهما شيء، أولهما: (مَقَامِي) كنبي، حيث ترون وكأني أُريد الحكم عليكم، ذلك أن النبي أيضا يمارس نوعًا من الحكم. وثانيهما (تَذْكِيرِي).. أي تعاليمي التي جئت بها، والتي تتنافى مع أُسلوب حياتكم. فإذا كان هذا ما يسوؤكم مني فاعلموا أنه لا دخل لي فيه، بل هذا من فضل ربي، وليس لي أيّة مصلحة شخصية في ذلك، بل اعلموا أنني قد فوّضت أمري كله لله تعالى، حيث لا أقوم بأي عمل برغبتي الخاصة بل كل ما يحدث بي يكون من أمر الله وإرادته. وما دام الأمر كذلك فاعلموا أنكم إن عاديتموني فإنما تعادون الله الذي بعثني.

ويمكن أيضًا اعتبار ﴿مَقَامِي وَتَذْكِيرِي﴾ شيئًا واحدًا، والمراد: أنه إذا كان يسوؤكم إلقاء وعظي واقفًا بين القوم فاعلموا أني لست تاركًا دأبي هذا، لأنه من صميم واجبي. فإذا كان هذا ما يدفعكم إلى عدائي فشأنكم، فإني متوكل على الله وواثق بنصرته ﷻ الثقة كلها.

يتبين من هنا أن وعظ أنبياء الله – عليهم السلام – قائمين سنّةٌ قديمة، وهي أيضًا سنّة الرسول ﷺ إذ كان يلقي الخطبة واقفًا (البخاري، الصلاة)، وكذلك فعَل الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام عمومًا إلا في أيام المرض.

كما أنّ الآية تعلّمنا كيف يجب أن يكون التدبير والقيام بأمر من الأُمور، وقد ذكرت خمس طرق لا بد من إتباعها لضمان النجاح، وهي:

١) ضرورة الاتفاق على رأي موحَّد بعد التشاور.

٢) ضرورة جمع المؤيدين لهذا الرأي تحت نظام واحد.

٣) ضرورة وضع خطة مدروسة ومفصّلة جيدًا لتنفيذ الرأي المتفق عليه.

٤) ضرورة بذل كل جهد وطاقة في وقت واحد دون إهدارها في أوقات مختلفة، حتى

يقع ثقل القوم كله على العدو بشكل مكثّف مركّز مرةً واحدة.

٥) بعد البدء بالهجوم يجب أن لا يُعطَى العدو فرصةً لالتقاط أنفاسه، كي لا يستجمع قواه من جديد، بل يجب شن الهجمات تلو الهجمات.

لقد اتبع الأنبياء جميعًا هذا الأسلوب، وهذا ما رأيناه أيضًا من سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام حيث كان ينشر إعلانًا تلو الإعلان بينما الناس لم ينتهوا بعد من الحديث عن إعلانه الأول.

وبالاختصار، يلفت نوح عليه السلام أنظار قومه إلى نجاحه الحتمي قائلاً: ابذلوا جهدكم ضدي، واستنـــزفوا قواكم في معارضتي، فإنكم فاشلون في إحباط خطتي، لأن هناك قوة أخرى تضيع بدونها الجهودُ والتدابير، ألا وهي الثقة بالله تعالى، وأنا أملكها وأنتم محرومون منها. ولذلك أعلن على مسامعكم أن النصر سيكون حليفي أنا، وأني أنا الغالب حتمًا بعون الله ربي، ولو لم تألوا في مساعيكم أي جهد ولم تدّخروا أي مكيدة.

ما أشدَّ رسلَ الله إيمانًا ويقينًا بصدقهم وبصدق ما يتلقون من الله تعالى من وعودٍ وبشاراتٍ، حيث لا يحفلون بعداء المخالفين أبدًا. وليس هذا فحسب، بل إنهم يثيرون حميتهم، مطمئنين ومتأكّدين من تغلبهم عليهم في آخر الأمر، بل وينتصرون فعلاً. والحق أن غلبة الأنبياء على الأعداء والمعارضين-بغض النظر عن معجزاتهم الأخرى- تشكل وحدها برهانًا عظيمًا على صدقهم لدى كل قلب يعي الحق وعين تبصر الرشاد. إلا أن المؤسف هو أن هذه الدنيا العمياء لا تعي ولا تبصر.

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٣﴾

التفسير: لقد دأب الأشرار على أن يرموا رسلهم بتهمة الطمع في السلطة والرغبة في الحكم، وآيتنا هذه تفند مزاعمهم حيث تقول: إن حياة الرسل تكون مثالاً فريدًا للطاعة والانقياد، فإنهم لا يفعلون أي شيء حُبًّا في الحكم والسلطان، بل امتثالاً لأمر الله تعالى وطاعةً له، وإلا لما تكبدوا المشقة والعناء بأنفسهم، بل اكتفوا بممارسة سلطتهم على الآخرين فقط. لكن الثابت من سيرتهم أنهم كانوا أكثر الناس مشقة وعناءً على أنفسهم هم. لا يأمرون غيرهم بأن يصلّوا ويعبدوا ربهم، بل يعبدونه تعالى أكثر من أي إنسان آخر، ولا يكتفون بأن يأمروا الناس بأداء الزكاة والصدقات، بل إنهم يكونون بأنفسهم السبّاقين إلى هذه الخيرات. مما يؤكد أنهم لا يستسلمون لطمع الحكم على الآخرين، بل تكون صفتهم الغالبة هي الطاعة والاستسلام لله تعالى، وبهذا يكونون أول المسلمين وأسيادًا لأهل الطاعة والانقياد.

وقد يقول بعض المعترضين: إن هناك عديدًا من الجبابرة في التاريخ كانوا يؤدون الصلوات والصدقات كثيرًا وكانوا يرتكبون أبشع المظالم أيضًا؟ ولكن مثل هذا الاعتراض ليس سليمًا إذ يمكن أن يكون هناك ملوك يجمعون بين الطغيان على الناس والعبادة الظاهرة لله تعالى، ولكنا لو بحثنا لوجدنا أنهم ورثوا الإيمان المصطنع والعبادة السطحية عن آبائهم. ولكن الذي يكون مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، والذي يغرس في قلوب قومه حب العبادة والصلاح والتقوى من جديد، فإنه لا يمكن أبدًا أن يجمع بين الطاعة لله والطمع في السلطة. إذ من المُستحيل أن يفكر أحد في حب السلطة والحكم على الناس وفي الوقت نفسه يفكر بصدقٍ وإخلاصٍ في عبادة الله ودعوة الناس إليه. نعم، من الممكن تمامًا أن يكون أحد معتادًا على العبادة وأداء الصدقة نتيجة لتربية آبائه له، ويكون في الوقت ذاته مدفوعا بفطرته إلى الظلم والعدوان. أجل، قد يجمع بين هذين النقيضين من كان إيمانه عادةً موروثةً فقط، لكن اجتماعهما في مؤسس دين من الله تعالى أمرٌ مستحيل البتة.

ويأمر الله تعالى نوحًا أن يقول لهم ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾.. أي إذا ولّيتم الدبر في المعركة -وسوف تفعلون ذلك حتمًا كما هو مذكور في النبأ الإلهي- وخرجتُ أنا فيها منتصرًا عليكم، فإني لن أفرض عليكم أية مسؤولية مالية، لأن ما أفعله إنما أفعله نصحًا لكم. لم أسألكم أي أجر من قبل، ولن أطالبكم بأي شيء في المستقبل.

الواقع أنه لم تُسنَح الفرصة لنوح عليه السلام أن يشن الهجمات على أعدائه فيرتدوا منهزمين ويخرج هو منتصرًا، فيعاملهم بما وعدهم به، ولكن هذه الفرصة قد سنحت للرسول الكريم ﷺ، إذ انهزم قومه من وجهه، فدخل بلدهم مكة منتصرًا عليهم، ولكنه لم يأخذ لنفسه منهم حتى ولا حبة خردل.

والمراد من قوله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هو أنني مأمور بخدمة الإنسانية، و لم أُخلق لممارسة الملك والسلطان على الناس، فلو صرتُ غالبًا عليكم فإنكم لن تروا مني إلا الخير والخدمة أيضًا.

وقد قال سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام بهذا المعنى في بيت من الشعر له بالفارسية: "مَنِه كرسي زِبَهرِ مَا كِه مأموريم خدمت را..." أي لا تقدِّمْ لنا الكرسي فإننا مأمورون بخدمة الإنسانية. (مرآة كمالات الإسلام، الخزائن ج٥ ص٥٥).

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

خلائف: جمع خليفة وهو من يخلـــُفُ غيره ويقوم مقامه؛ السلطانُ الأعظم؛ الإمامُ الذي ليس فوقه إمام (الأقرب).

التفسير: لقد وضّح الله بقوله ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أن هناك فرقًا واضحًا بين ما ينـــزله الله من عقاب بالذين سبق أن أنذرهم وبين ما يحل من العذاب بعامة الناس الذين لم يُنذَروا. وهكذا نبّهنا الله إلى علو المنـــزلة التي يتبوأها رسله لديه ﷻ، مبينًا أنهم قوم ينبغي على الإنسان أن لا يعتبر قولهم هيّنًا ولا يستهين بأمرهم.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

شرح الكلمات:

نطبع: طبع الشيءَ: صوّره بصورة ما. طبع عليه: ختم عليه. طبع الله الخلقَ: خلقهم. طبع السيفَ: عمله وصاغه. طبع الدرهمَ: نقشه وسكّه (الأقرب).

التفسير: لقد وضح الله هنا أيّما توضيح معنى طبعه على قلوب الناس، وهكذا أبطل كل الاعتراضات التي يثيرها أعداء الإسلام في هذا الصدد. (سيتارث بركاش ص ٤٩٩). يقول الله ﷻ: حيث إن الكفّار كانوا قد كفروا من قبل، لذلك صعب عليهم أن يؤمنوا رغم ما رأوا من الآيات، لأن ما قد صدر عنهم من قول وفعل يمنعهم من أن يتزعزعوا عن موقفهم الخاطئ الذي كانوا عليه. إذ قال ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.. أي لأنهم يصرّون على موقفهم تعنُّتًا وعنادًا فلا نهديهم جبرًا وقسرًا. وليس المقصود أنهم يريدون الهدى ونحن نحول دون تحقق رغبتهم. فالحق أن العبد

نفسه يطبع على قلبه بأعماله، والله يحكم على هذا السلوك بمقتضى النتيجة، ولذلك فقط يُنسب الطبع إليه ﷻ. وقد وضّح هذا المعنى في موضع آخر أيضًا بقوله تعالى ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٥).. أي أن ما يوجد على قلوب الكفار من أقفال إنما هي من صنع قلوبهم هم.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

الملأ: مِن مَلأَ يملأ ملأً، وهم الأشراف، قيل: سُمّوا بذلك لأنهم يملأون العيونَ أُبّهةً والصدور هيبةً؛ الجماعةُ؛ التشاورُ، يقال: ما كان هذا الأمر على مَلأٍ منّا: أي تشاور واجتماع (الأقرب).

استكبروا: استكبر الرجل: كان ذا كبرياء (الأقرب).

التفسير: كلما يُبعث نبي من الأنبياء يكذبه الناس لسببين: إما أنهم يعتبرون دعواه أعلى من قدره ومكانته، أو يظنّون بأنهم أسمى من أن يتبعوه. وهذا نفس ما حدث لموسى عليه السلام؛ فالبعض ظنوا أنه من المستحيل أن يكلّم الله ﷻ عبدًا من عباده، بينما احتقره الآخرون ظانين أنهم أعزّ وأرفع من أن يطيعوا شخصًا كموسى عليه السلام.

وقوله تعالى ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ يمكن أن يفسَّر بمفهومين؛ الأول: أنهم كانوا من قبل مجرمين ولذلك كذّبوا موسى و لم يُوفَّقوا للإيمان به، وهذا المعنى يوضح سبب استكبارهم وحرمانهم من الإيمان.. أي أنهم لم يؤمنوا به لأن ذلك كان سيؤدي إلى

سلب حريتهم المطلقة ويكون عقبةً في سبيل ارتكاب الجرائم التي تعوَّدُوها. والثاني: أنهم أصبحوا بكفرهم به في عداد المجرمين.

والحق أن كلا المعنيين ذو صلة وثيقة بإنكار الحقائق، إذ إن السيئة تدفع إلى سيئة أخرى. وإنّه لحقٌّ أن أصحاب المساوئ والجرائم يُحرمون من الإيمان بسبب جرائمهم، كما أنه لحقٌّ أيضًا أن إنكار الحقائق يضر بتقوى الإنسان ضررًا فادحًا، وإن كان في قلبه شيء من خشية الله من قبل فإنه يتلاشى منه فورًا أو تدريجيًا بسبب إنكاره لتلك الحقائق.

إن رفض الحقائق ليس بأمر هيّن بل هو جريمة نكراء، ويجب على من يقيم للتقوى أي وزن أو قيمة أن يسعى جاهدًا كي يتجنّبها.

فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

مبين: أبان الشيءُ: اتضح، وأبان فلانٌ الشيءَ: أوضَحَه. ضَرَبَه فأَبانَ رأسَه من جسده أي فَصَلَه، فهو مبينٌ (الأقرب).

التفسير: كلما يأتي الحق من عند الله تعالى يقول الناس ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. والواقع أن هذه الكلمة الوجيزة منهم تنطوي على الشر بكل أصنافه وألوانه. ذلك أن الناس صنفان؛ صنف منهم يرغب في الأمور الدينية الروحانية، وصنف آخر يرغب في الأمور المادية السياسية. فبقولهم (سِحْرٌ) يحاول هؤلاء إثارة مشاعر الراغبين في الأمور الدينية ضد النبي المرسل كي يوهموهم بأن ما جاء به هذا النبي إنما هو خداع وتلبيس يريد به إفساد دينهم الذي هم عليه. وبقولهم (مُبِينٌ) يحرضون ضده الراغبين في الأمور المادية والسياسية بأن ما معه ليس بسحر وخداع فحسب، بل خداع خطير

سوف يوقع به الفرقة بينكم ويشتت شملكم. فإذا كنتم تريدون خيرًا لشعبكم فتصدّوا لهذا المدّعي وإلا فسوف يحوّل شعبنا المتحد إلى أحزاب متناحرة متحاربة.

منذ بدء الخليقة نجد أعداء الله لا يزالون يلجئون إلى هذه المكيدة الشيطانية التي لم تفقد قوتها في الفتك والتدمير. ففي زمننا هذا أيضًا استخدم المعارضون هذه المكيدة الشيطانية نفسها ضد مصلح هذا الزمان ولا يزالون. أما الناس فيقرءون كل هذه التحذيرات الإلهية في القرآن الكريم ولا يتدبرون فيها، ولا يفكرون لدى تحريض هؤلاء المفسدين لهم ضد سيدنا الإمام المهدي والمسيح عليه السلام أن الأمة كانت قد تفرقت وتمزقت وحدتها من قبل بعثته، فكيف فرّقها وشتتها هو كما يدّعون. إذا كان بناء الأمة من جديد هو التفرقة فما هو معنى الهدم إذن؟

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٨﴾

التفسير: قوله ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ يعني أن ما جئتُ به من تعاليم لموجودةٌ بين أيديكم، تعرفون تفاصيلها وتحسّون بأنفسكم بتأثيرها، فكيف تسمّونها إذن سحرًا وخداعًا؟ كيف يكون سحرًا وكذبًا ذلك الشيءُ الذي يشجُّ هامة الكذب ويدمغه؟

صرّح الله بقوله ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ بأن الذين يلجئون إلى الكذب والخداع لا يقدرون على تحقيق الأهداف المنوطة بأنبياء الله عليهم السلام. إن الأنبياء يأتون لتغيير أحوال الشعب دينيًا وأخلاقيًا ومَدنيًا وسياسيًا، إما عاجلاً أو آجلاً. ما من نبي إلا وبُعث لهذا الهدف. فموسى عليه السلام يقول لهم: أنتم ترون بأم أعينكم أنني أحقق هذه

الأهداف شيئًا فشيئًا، وسوف يكتمل إنجازها على يدي في يوم من الأيام، فكيف إذن ترمون بالكذب والخداع مَن يُحدث هذه التطورات المدهشة؟

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

لِتَلْفِتنا: لَفَتَ الشيءَ يلفت لفتًا: لواه وصرفه إلى ذات اليمين والشمال. ولفت فلانًا عن رأيه: صرفه (الأقرب).

الكبرياء: العظمةُ، التجبّرُ. وفي اللسان: العظمةُ والمُلك. وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى (الأقرب). وكأنها إذا استُخدِمتْ للإنسان جاءت بمعنى سيّء وإذا استُخْدِمت في حق الله تعالى كانت بمعنى حَسَن.

التفسير: هذه الآية شرح للاعتراضين اللذين سبق ذكرهما بإيجاز شديد في كلمة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. كان الاعتراض الأول إنه جاء ليفسد علينا ديننا، وقد شرحته الآية في شطرها الأول على لسان كبراء القوم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. ولما كان معظم الناس يظنون أن ما يتبعه آباؤهم هو الدين الحق، فكأنهم قصدوا بقولهم هذا أنه يريد إغواءنا عن الدين الحق، ولكنهم ذكروا هذا الأمر ذكرًا يحدث هيجانًا عنيفًا في قلوب العامة ضد نبيهم.

وكان الاعتراض الثاني هو: إنه يريد تشتيت شمل الشعب، وقد شَرَحَتْهُ الآية في الشطر الثاني: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾.. أي أن موسى وهارون يريدان

الحكم على بلادنا. والبديهي أن الوصول إلى السلطة يتم بإحداث الفرقة والخلاف بين أفراد النظام الحاكم.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٨٠﴾

التفسير: لاحظوا كيف أن الخطأ الواحد يدفع الإنسانَ إلى أخطاء أخرى. لقد رموا نبيًا كريمًا كموسى عليه السلام بالسحر والخداع، فحُرموا بسبب هذا الاتهام من أن يبحثوا أمره بحثًا موضوعيًا، وهكذا وقعوا في الفخ الذي نصبوه له حيث بدءوا بأنفسهم يبحثون عن السحرة لمبارزته.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨١﴾

التفسير: عندما نـــزل السحرة في ساحة المبارزة أبدى موسى كراهية واستغناءً عن مبارزتهم فقال: افعلوا ما أنتم فاعلون، أما أنا فأراه لغوًا وعبثًا. يظن الناس عمومًا أن موسى عليه السلام كان استعد لمبارزتهم فورًا، ولكن هذا خطأ، لأنه كان يدرك جيدًا أنهم سحرة وأن ما يأتون به سيكون لغوًا لا حقيقة فيه، فأبدى كراهيته واستغناءه عن التصدي لهم، ولكنه لم يرفض مواجهتهم على الفور صراحةً ربما لأنه فكر أن الحقيقة سوف تنكشف تلقائيًا لدى المواجهة العملية، وعندها سوف يخبرهم برأيه صراحةً. وهذا ما حصل فعلاً حيث قال لهم عند انكشاف أباطيلهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾.

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

لا يُصلح: أصلحَه: ضد أفسَدَه. أصلحه بعد فساده: أقامه. أصلح بين القوم: وفّق. أصلح إليه: أحسن إليه، يقال: أصلح إلى دابته إذا أحسن إليها وتعهدها، ويقال: أصلح الله له في ذريته وماله. (الأقرب)

التفسير: عندما يقف الحق في مواجهة الباطل تنكشف الحقيقة للعيان. فأعمال المفسدين لا تؤول إلا بالفساد والشر، إذ يستحيل أن يأتي أحد بأعمال فاسدة ثم يجني منها خيرًا وصلاحًا. فالله تعالى يشير إلى هذه الحقيقة قائلاً: إننا لا نَدَعُ أعمال المفسدين لتأتي بما يرجون، بل إننا نجعلهم يتقلبون ويغيّرون حالتهم من حين لآخر فلا ينجحون في مراميهم.

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٣﴾

التفسير: لنعلم أن "كلمات الله" تعني كلاً من البشارة والوعيد، لأنه تعالى يُثبت الحق بكليهما.

يبين موسى عليه السلام هنا كلمة حكمة رائعة، حيث يقول: إن الله عز وجل ليس بحاجة إلى اللجوء إلى الكذب والخداع لنشر دينه، بل كل شيءٍ خاضع لأمره، ولذلك فإنه ينشر دينه بأمره وقدرته.

لقد علّمنا الله ﷻ هنا درسًا عظيمًا في الأخلاق، ألا وهو: أن صدق الهدف أو صحة المبدأ لا يسمح للإنسان باللجوء إلى طرق غير مشروعة لتحقيقه، بل يجب اتخاذ وسائل مشروعة وفاضلة لتحقيق الهدف مهما كان ساميًا وهامًا. ولكن للأسف أن أكثر الناس يجهلون هذه الحقيقة في عصرنا هذا، وهذا الوباء في انتشار متزايد حيث يستسيغون الكذب لتوطيد الحق. ما قيمة الحق الذي لا يستطيع أن يزدهر وينتصر دون الاستعانة بالكذب والخداع؟

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

آمن: آمَنَه: أمّنه. آمن به: صدّقه ووثق به. آمن له: خضع وانقاد. (الأقرب).

ذريّة: الذريّة: أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معًا في التعارف، ويُستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع (المفردات).

على: حرفُ جرٍّ له عدة معان منها التعليل (الأقرب).

يفتن: فتَنَه يفتن فَتنًا وفُتونًا: أعجبَه. فتن المال الناسَ: استمالهم. فتنت المرأة فلانًا: ولّهته. فتن زيدٌ عمرًا: أوقعه في الفتنة ففُتن أي وقع. فتن فلانًا فتنةً ومفتونًا: أضلّه. فتن الرجل إلى النساء: أراد بهن الفجورَ. فتن الشيءَ فتنًا: أحرقه، ومنه: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (الذاريات: ١٤). فتن فلانًا عن رأيه: صدّه. فتن الصائغ الذهبَ والفضة فتنةً: أذابه بالبوتقة وأحرقه بالنار ليبين الجيدَ من الرديء ويعلَمَ أنه خالص أو مَشوب، وهو أصلُ، معنى الفتنة (الأقرب).

عالٍ: علا الشيءُ: ارتفع. علا فلان في الأرض: تكبر وتجبر. علا فلانًا: غلبه وقهره (الأقرب).

المسرفين: أسرف فلان: جاوز الحد وأفرط؛ أخطأ؛ جهل؛ غفل (الأقرب).

التفسير: أي.. لم يُطع موسى عليه السلام إلا أفراد من قومه هو، بينما رفض الآخرون دعوته خوفًا من أن يضطهدهم فرعون وعلية قومه أو يحرقوهم. وهذا يبين أن الناس يستيقنون في قلوبهم بصدق الأنبياء، ولكنهم لا يصدّقونهم بلسانهم ولا يعلنون إيمانهم خشية اضطهاد القوم.

يكون في الدنيا ملوك جبابرة ولكنهم يملكون من الذكاء والفطنة ما يمنعهم من مضايقة الرعية حتى لا تتمرد عليهم، فمثلاً كان قوم نوح عليه السلام يعارضونه، ولكنهم اكتفوا بالسخرية منه ومن أتباعه دون أن يعذبوهم تعذيبًا يمحو أثرهم. ولكن فرعون كان غبيًا، فعامل هؤلاء الناسَ بقسوة دفعتهم إلى الخروج عليه.

كان بنو إسرائيل في صف موسى، فخاف فرعون أن يتعاظم شأنهم ويتفاقم خطرهم فيضعف حكمه ويذهب سلطانه، ولذلك كان يضطهدهم ويعذّبهم. ولكن هذا كان غباءً شديدًا منه، لأن العنف والعدوان دونما مبرر يقوّي أسباب التمرد ولا يجدي نفعًا.

ويبدو من الآية أنه ما آمن بموسى جميع قومه، وإنما جزء منهم، كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿إلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾، أما الآخرون من قومه فكانوا معه بسبب الدوافع السياسية.

وهناك من قال بأن الضمير في قوله تعالى (مِّن قَوْمِهِ) عائد على فرعون لا على موسى، والمعنى عندهم أن أفرادًا من قوم فرعون أيضًا صدّقوا بموسى (القرطبي). ولكني أرى أن المعنى الأول أقرب إلى الصواب.

كما اختلف المفسرون في ضمير الغائب في قوله تعالى (مَلَئِهِمْ)، فقال البعض: هم أسياد من بني إسرائيل، لأن الحديث هنا عن الإسرائيليين. ويرى غيرهم أن الضمير

يرجع إلى أسياد الإسرائيليين من قوم فرعون، وقد سُمّوا أسيادًا لهم لكونهم حاكمين عليهم.

غير أنني لا أرى داعيا لإرجاع الضمير إلى فئة معينة من الشعبين، لأن السيادة لا تُعرف فقط بناءً على انتماء أحد لشعب حاكم بل أيضًا بما يتمتع به أحد من حكم وسلطة. فالحق أن كبار رجال الحكومة الفرعونية –سواء كانوا من الفرعونيين أو الإسرائيليين– قد سُمّوا ملأً لبني إسرائيل، إذ كان فرعون يستعين بالمسئولين الكبار من الشعبين لاضطهاد الإسرائيليين.

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٥﴾

التفسير: ينصح موسى عليه السلام شعبه قائلاً: عليكم أن تثقوا بالله ثقة كاملة، موقنين بأن الذي أنتم بصدد إنجازه هو مطلب سماوي يريد الله تحقيقه.

هناك الكثير من الناس الذين ينادون القوم باسم القضية القومية، ولكن القرآن الكريم لم يحبذ هذه التسمية، مما يساعد الإنسان على أن يضع رضا الله نصبَ عينيه دائمًا، كما يحرّره من قيود العنصرية الخطيرة.

ويبدو قوله تعالى ﴿إِنْ كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ جملةً زائدة في بادئ الرأي، إذ سبق أن قال ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ﴾، ولكنه ليس بزائد في الواقع، وإنما جيء لبيان معنًى جديد، ذلك أنه إذا ذُكر الإيمان إزاء الإسلام فيعني اليقينَ الكامل.. أي الطاعة القلبية، بينما يراد بالإسلام عندئذ الطاعة الظاهرة. فالمراد من الآية: إذا كنتم تؤمنون بالله إيمانًا

كاملاً، وتريدون أن تتذوقوا ثماره بصورة عملية، فعليكم أن تتوكلوا على الله وحده مفوِّضين إليه أموركم كلها.

لقد بيّن الله بذلك أنه يجب أن يؤدي الإيمان الحقيقي إلى تغيير في الأعمال، مع العلم أن المؤمن الحقيقي يكون مؤمنًا في البداية ثم يصبح مسلمًا، أما ضعيف الإيمان فيكون مسلمًا في البداية ثم يصير مؤمنًا، لأن هذا يبدأ في الأعمال أولاً بداية سطحية فيكتسب قلبه بذلك قوة تدريجية حتى يصبح مؤمنًا حقيقيًا. أما صاحب الإيمان القوي الحقيقي فتكون أعماله منذ البداية نابعةً من إيمان ذاتي، لأن رقيه رقي ذاتي وليس مكتسَبًا مما حوله، فتبدأ رحلة إصلاحه وطهارته من الباطن إلى الظاهر. ولكن صاحب الإيمان الضعيف يكون ارتقاؤه ارتقاءً طفيليًا يتم بمساعدة من حوله من المؤمنين، لذلك تبدأ رحلة إصلاحه من الظاهر إلى الباطن، وإلى هذا أُشير في قوله تعالى ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٥).. أي أنكم وُفّقتم – بفضل صحبة المسلمين – أن تقلّدوهم تقليدًا ظاهريًا فحسب، فلا تدّعوا الإيمانَ، لأنكم لم تقطعوا بعد مرحلة تطهير القلب.

فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾

التفسير: إن قولهم ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يمكن أن يفسَّر بمفهومين؛ الأول: لا تدَعْنا نأتِ أعمالاً نسيء بها إلى دينك ونتيح بها لأعدائك فرصة الهجوم عليه. والثاني: لا تجعلنا عرضةً لاضطهاد الظالمين.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

شرح الكلمات:

تبوّآ: تبوَّأ المكانَ وبه: اتخذه محلةً وأقام به. (الأقرب).

قبلةً: القِبلة: النوعُ؛ الجهةُ، يقال: ما لهذا الأمر قبلةٌ أي جهةُ صحةٍ؛ الكعبةُ؛ كلُّ ما يُستقبل من شيء. يقال: ما له في هذا قِبلة ولا دِبرة: أي وجهة. اجعلوا بيوتكم قبلةً: أي متقابلةً (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ لا يعني أنهم كانوا يعيشون في البادية في الخيام، فأمرهم باتخاذ البيوت، وإنما المراد أن يقيموا متجاورين ليتمكنوا من التعاون والمساعدة فيما بينهم. وهذا أيضًا نوع من الهجرة، بل هو أمر طبيعي، لأن الفئات الضعيفة تعيش دائمًا في شكل تجمعات في المدن. فمثلاً، في بلادنا (الهند) هناك أكثرية للمسلمين في مقاطعة بنجاب والهندوس أقلية فيها، ولذلك نجد الهندوس يعيشون في مدنها بعدد أكبر نسبيًا، أما في مقاطعة أتربرديش، فيشكل الهندوس فيها الأكثرية، ولذلك نجد سكانها المسلمين يعيشون في مدنها بعدد أكبر نسبيًا.

أما قوله تعالى ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فيمكن تفسيره بعدة معانٍ، نظرًا إلى ما "للقبلة" من معانٍ مختلفة. وقد سبق أن صرّحت أن الله تعالى قد استخدم في القرآن الكريم كلمات ذات مدلولات عديدة، فيمكن أن تختار منها كل ما يتفق وينسجم مع السياق. فبالنظر إلى معانٍ مختلفة للقِبلة، يمكن أن تعني الجملة ما يلي:

١. يجب أن تعيشوا معًا. ذلك أن البيوت لن تكون متقابلة إلا إذا عاشوا مجتمعين متجاورين.

٢. يجب أن تتعاونوا فيما بينكم. ذلك أن الغاية من اتخاذ البيوت المجاورة أن يسهل عليهم مساعدة بعضهم بعضًا.

٣. يجب أن تبنوا البيوت في جهة واحدة.. أي أن تعيشوا تحت نظام واحد وتعملوا لتحقيق هدف موحّد.

٤. يجب أن تكون بيوتكم من نوع واحد. وقد أشار بذلك إلى ضرورة علاقة قوية بين الغني والفقير منهم لتحقيق الرقي القومي، وأن يكون للقوم كلهم طابع واحد، وأن يكون كل واحد منهم واقفًا على حال أصحابه، أما إذا عاش أحد في القصر بينما بات أخوهُ في الكوخ دون أن يتفقد ذاك حال هذا فمن الصعب أن ينشأ بينهما ترابط قوي.

وبقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ وجّه أنظارهم إلى ضرورة الدعاء والعمل بمثابرة، لأن الإقامة تشير إلى معنى الثبات والمداومة.

وباختصار، تعلّم الآية سبعة دروس تستطيع أية أمة أن تحقق بالعمل بها تقدمًا قوميًا، وهذه الدروس هي: الاجتماع، الوَحدة، التعاون، النظام، الترابط بين الغني والفقير، الدعاء، المثابرة على العمل.

وفي الأخير توجّه الآية النصيحة إلى زعيم القوم وتقول ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.. أي عليك برفع معنويات أتباعك بذكر الأخبار السارة لهم، لأن اليأس والقنوط هو أكبر الآفات.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

اطمسْ: طمس الشيءَ وعليه: أهلكه؛ استأصلَ أَثَرَه (الأقرب والمعجم الوسيط).

أُشْدُدْ: شَدَّ عليه: حمل عليه (الأقرب).

وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بأن معناه: قَسِّها (القرطبي).. أي اجعلْها قاسيةً، ولكنا لم نعثر على هذا المعنى في القواميس.

زينةً: الزينة: ما يُتزيّن به. (الأقرب).

مع العلم أن القرآن الكريم قد اعتبر كلّ ما على الأرض زينةً كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ (الكهف: ٨)، بل سمّى الحياة الدنيا أيضًا زينةً كقوله ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ (الحديد ٢١)، ولكنه أطلق "زينة الحياة الدنيا" خاصة على الأموال والأولاد فقط كقوله ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٧). وعندما ذَكَرَ الزينة في معرض الحديث عن ضلال الأمم فقد أراد بها أيضًا زينةَ الحياة الدنيا أي المال والبنون. أما كلمة الزينة في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها فقد أُطلقت فقط على الأولاد دون الأموال، إذ أضاف إلى جانب الأولاد كلمة الأموال التي هي في الواقع جزء من زينة الحياة الدنيا، لأن القاعدة أنه إذا كانت الكلمة ذات مدلولين وذُكر أحدهما في الجملة فلا يراد بها إلا المدلول غير المذكور. خذوا مثلاً كلمة "الإسراء" فإنها تعني عمومًا السفر بشخص ما ليلاً، ولكنها تعني مجرد السفر أيضًا، كما جاء في

قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ (الإسراء: ٢). فالإسراء هنا بمعنى السفر فقط، لأنه ذكر الليل إلى جانبه.

التفسير: لا تعني الآية أن الله جلّ شأنه آتى آلَ فرعون زينة وأموالاً بهدف أن يقوموا بإضلال الناس، وإنما اللام في (لِيُضِلُّواْ) تدُلُّ على معنى الصيرورة والعاقبة، والمعنى: إنك يا ربِّ، آتيتهم زينة وأموالا، ولكنهم، بدلاً من أن يشكروك عليها، صاروا يُضلُّون الناس. وهذا أسلوب يعبَّر به عن الأسف، حيث يقول: ما أشدَّ شقاوةَ هؤلاء القوم، إذ أصبحوا ناكرين لهذه النعمة الإلهية العظيمة، بل يُضلُّون الآخرين أيضًا!

وقوله تعالى ﴿فَلا يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ عطف على قوله (لِيُضِلُّواْ)، والمراد: ليضلوا عن سبيلك ولكيلا يؤمنوا حتى يرَوا العذاب الأليم.

وأما قوله ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فهو جملة معترضة. وهو دعاء عليهم ولا شك، ولكنه في الحقيقة ليس بدعاء سيء، بل هو دعاء خير لهم، لأنه ليس بدعاء شخص غاضب ناقم عليهم، وإنما هو دعاء نبي رحيم مشفق عليهم. يقول فيه موسى عليه السلام: يا رب، لقد أعطيتهم أولادًا وأموالاً، وكان الحري بهم أن يكونوا لك شاكرين، ولكنهم صاروا لصنيعك ناكرين. وقد تجاوز نكرانهم بحيث إنهم بدءوا يضلون الآخرين، وساءوا لدرجة أن قلوبهم لن تميل إليك إلا برؤية العذاب الأليم. فإنني أتضرع إليك أن تدمّر أموالهم وتعرّضهم لصدمات مؤلمة في أولادهم علّهم يعودون إلى سبيل الهدى، فأتِ بالعذاب من أجل هدايتهم.

إنه يدعو الله تعالى أن يعذبهم بأولادهم وأموالهم لأنها سبب انحرافهم عن الهدى، فإذا أوذوا فيها رجعوا إلى صوابهم ومالوا إلى الهدى. وإذن، فهذا ليس بدعاء عليهم وإنما هو دعاء لهم، لأنه ليس لضلالهم وإنما لهدايتهم. لا جرم أنه يدعو عليهم بالعذاب، ولكن الذين لا يهتدون إلا بالعذاب يصبح هذا الدعاء رحمةً لهم. ومثاله كأن يطلب أحدُ أقارب المريض من الطبيب أن يبتر عضوه الفاسد كيلا يسري فساده

إلى الجسم كله، فلا شك أن طلبه هذا رحمة بالمريض. كذلك كان دعاء موسى عليه السلام في الحقيقة دعاءَ رحمةٍ وشفقةٍ لا دعاءَ عَذابٍ ونقمةٍ.

وقوله تعالى ﴿اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني تعريضهم للصدمات في أولادهم. وهذا يتم بطريقين؛ الأول: أن يصب على أولادهم أنواع المصائب والآلام، والثاني: أن يوفّق أولادهم إلى الإيمان، لأن ترك الأولاد دينَ الآباء وانضمامهم إلى صفوف العدو يمثل صدمة مؤلمة للآباء. وقد حدث هذا في زمن النبي ﷺ، حيث قبِلَ أولاد أعدائه الإسلام، أما في زمن موسى عليه السلام فقد عوقب الفرعونيون فقط بموت البِكر من أولادهم.

ومما يدل على روعة الترتيب القرآني أنه عندما تحدّث عما أنـــزل الله عليهم من النعم قدّم ذكر الزينة -أي الأولاد- على ذكر الأموال حيث قال: (زِينَةً وَأَمْوَالاً)، ولكنه لدى الحديث عن العذاب عكَسَ الترتيب وقال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك أن نعمة الأولاد أغلى من نعمة الأموال، فكان أحق بالتقديم عند الحديث عن النعم، أما عند ذكر العقاب فقد ذكر أخفّ العقابين أولاً. وكأنه قال: يا رب، إذا اهتدى هؤلاء نتيجة نقصٍ في الأموال فحسب دون أن يمسّهم بـــــلاءٌ في أولادهـــم فاغفر لهم، وإن لم ينتهـــوا فأنـــزلْ عليهم بلاء يُصيب أولادهم لعلهم يهتدون.

هذا البيان إذ يُبرز روعة ترتيب القرآن فإنه يكشف أيضًا عما كان موسى عليه السلام يكنّ في قلبه من رأفة ورحمة بالقوم.

لقد أثار القسيس ويري اعتراضًا حيث قال: إن الدعاء الذي يعزوه القرآن هنا إلى موسى يختلف عما ورد في التوراة؟

والجواب: أولاً: إن مخالفة القرآن لما ورد في التوراة لا يعني أنه خالف الحق والصواب. وثانيًا: إن ويري يجد بين الدعاءين اختلافًا لأنه يفسّر الآية القرآنية تفسيرًا خاطئًا، وإلا فليس بينهما أي اختلاف في الواقع.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

التفسير: يمكن أن يتساءل هنا أحد قائلاً: كان الدعاء من شخص واحد هو موسى ولكن الله يوجّه هنا الخطاب للاثنين: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾؟

والجواب: لقد ورد في الدعاء كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ التي هي للجمع، مما يؤكد أن الدعاء كان من كليهما: موسى وهارون عليهما السلام، ولذلك جاء الجواب للاثنين.

وقوله تعالى ﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ﴾ شرحٌ لقوله ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾. ولا يعني هذا النهي الموجّه إليهما أن أنبياء الله يتبعون في الواقع ما يقول لهم الجهّال، بل المراد منه: أن العدو سوف يسعى لإبعادكم عن الهدف، فعليكم بأخذ الحيطة والحذر منه، ولا تلقوا بالاً لما يقابلونكم به من أقوال تافهة واهية مما قد يبعدكم عن غايتكم الحقيقية.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

شرح الكلمات:

جاوَزْنا: جاوز الموضعَ: تعدّاه (الأقرب).

أَتْبَعَ: قال الأصمعي: تبعه: لحقه أو أدركه، وأتبَعَه: تَبِعَ أَثَرَه، أدركه أو لم يدركه.وأتبَعَه: تَبِعَه وذلك إذا كان سبقه فلحقه (الأقرب).

أَدْرَكَ: أدرك الشيءُ: بلغ وقتَه (الأقرب).

التفسير: لقد وضّح الله جلّ شأنه في الآية مسألةً دينيّة هامة تتعلق بالسياسة والحكم، حيث بيّن أنكم مأمورون بطاعة الحاكم أو الملك، ولكنه إذا تدخل في أمور دينكم ولجأ إلى استخدام القسر والجبر عليكم ليردّكم عن الحق، فعليكم أن تهاجروا من بلده. أما إذا حال دون هجرتكم فقد صار في عداد الطغاة ويجوز لكم شرعًا محاربته، لأنكم عندئذ تكونون على الحق ويكون هو على الباطل، ولن تُعتبر مخالفتكم له مخالفةً للحق والقانون. ذلك أنه كما لا يحق لأحد أن يعيش في بلد ما وهو مخالف لقوانين تلك البلاد، كذلك تمامًا لا يحق لحاكمٍ أن يُكره أحدًا على العيش في بلده بالرغم من الخلافات الدينية الحادة القائمة هناك.

وقوله تعالى (بَغْيًا) يعني أنه ما كان لفرعون أي حق قانوني لاضطهادهم، وقوله ﴿عَدْوًا﴾ يعني أنه لم يعُدْ لديه أي حق أخلاقي كذلك.

وما نطق به فرعون عند الغرق يدل على غاية هوانه وتذلُّله. ذلك أنه لو قال "آمنتُ برب موسى" لا يكون قد تذلّل كثيرًا، لأن موسى عليه السلام كان قد تربى في بيته وكان يحظى لدى القوم بالتقدير والاحترام، ولكنه تاب عند الغرق قائلاً: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وكأنما قال: إنني أؤمن برب صانعي اللَّبِن هؤلاء، إذ كان يعاملهم باحتقار وازدراء شديدين، مسخِّرًا إياهم في أعمال الطين واللَّبِن.

آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾

التفسير: إن الإيمان إنما ينفع في حالات معينة، أما إذا تبين الحق وحصحص فلا قيمة للإيمان عندئذ، لأن الثواب إنما يترتب على ما يبذله الإنسان من جهد وتضحية لأمر ما، أما الأمر الذي لا يكلّف فهمه جهدًا ولا عناء فلا يثاب عليه بشيء.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

التفسير: إن الله تعالى يجزي الإنسان جزاءً حكيمًا. لقد آمن فرعون إيمانًا كان بمثابة قالب بدون روح، فجزاه الله ﷻ بحسب هذا، حيث نجّى بدنه دون الروح، ليصير عبرةً لمن بعده.

أما قوله تعالى ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾.. فاعلم أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يذكر نجاة جثة فرعون من الغرق، بينما التوراة لا تذكر شيئًا عن ذلك، ومثلُها كتب التاريخ. ومَن أصدق من الله قِيلاً. فاليوم، وبعد مرور ثلاثة آلاف من السنين، قد عُثر على جثة فرعون "منفتاح" صاحب موسى، وهي محفوظة الآن في المتحف المصري بالقاهرة. وقد رأيته بأم عيني. إنها جثة شخص قصير القامة نحيف الجسم، تعلو وجهه ملامحُ الحَنَقِ والغضب والحمق. ما أبعد الشُقَّة الزَّمَنيّة بيننا وبينه، ومع ذلك فإن الله -جلّ شأنه- لم ينقذ جسمه من الفناء فحسب، بل أبقاه جثةً محفوظة إلى الآن، لتكون عبرة لمن بعده.

ما أقوى هذه الآية برهانًا على فضل القرآن الكريم. إذ يدّعي أهل التوراة أنها تسرد تاريخ العصر الموسوي وأن تدوينها قد تمّ في ذلك العصر (سفر الخروج: ١:١١)، ولكن القرآن يأتي بعدها بنحو ألفي سنة، ويكشف الستار عن أحداث من عصر التوراة بينما هي غافلة عنها. وليس هذا فحسب، بل إن الواقع يصدّق موقف القرآن مؤكدًا فضله وكماله على ما جاءت به التوراة.

لقد ذكر بعض المفسرين أن اسم فرعون موسى هو رعمسيس وليس منفتاح. ولكن هذا ليس بصحيح، لأن رعمسيس هو الذي تربّى موسى عليه السلام في بيته، أما الذي بُعث موسى نبيًا في زمن حكمه فهو ابنه الثاني مِنفَتاح. والتوراة أيضًا تشير إلى

ذلك، إذ وَرَدَ فيها أنه عند ولادة موسى عليه السلام كان بنو إسرائيل مسخَّرين في بناء مدينة اسمها رعمسيس (الخروج ١). ويبدو من هذا أن اسم الملك الحاكم عندئذٍ هو رعمسيس الذي كان يبني مدينته باسمه. كما ورد في التوراة أيضًا أنه بعد وفاة هذا الملك بُعث موسى نبيًا (الخروج ٢). فالملك الذي أُرسل إليه موسى والذي تعرض للغرق هو مِنفَتاح بن رعمسيس، وهذا ما تؤكده الموسوعة اليهودية أيضًا (انظر مجلد ٨، كلمة Menephatah).

كما تعلّمنا الآية عدة دروس منها أنه يجب على الإنسان أن يبادر إلى فعل الخيرات، وكلما دُعي إلى حسنة عليه أن يسارع إليها.

والدرس الآخر هو أن الله تعالى لا يضيع شيئًا من عمل الإنسان مهما كان قليلاً أو ضئيلاً. انظروا إلى فرعون كيف يعلن إيمانه لحظة الموت فينال به من الله تعالى أمانًا لجثته على الأقل، وسينفعه إيمانه -ولو نفعًا قليلاً- طالما تمثل جثته عبرةً للآخرين ودافعًا لإيمانهم. ومن أجل ذلك كان حضرة الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي - رحمه الله - يرى أن الله تعالى سوف يُنجّي فرعون من عذاب الآخرة. (شرح القاشاني على فصوص الحِكم ص ٣٢٢).

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

مبوَّأ: اسم ظرف من بوّأه وبوّأ له منـــزلاً: هيّأه ومكّن له فيه (الأقرب).

صِدق: يعبَّر عن كل فعلٍ فاضل ظاهرًا وباطنًا بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به نحو قوله (في مقعد صدقٍ) وقوله (أن لهم قَدَمَ صدقٍ) (المفردات).

التفسير: قوله تعالى ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.. اعلم أن الوحي الإلهي يأتي في المحل الأول بين كل ما رزقنا الله من طيبات، لأنه ينـــزل من الله أطيبَ وأحلى ما يكون. وتعني الكلمة أيضًا الطيبات المادية، لأن بني إسرائيل كانوا مسخَّرين من قِبَل فرعون في مصر في صناعة اللَّبنِ وغيرها من الأعمال الطينية دون أن يعطيهم أجرة عليها، فكان من الصعب عليهم –والحال هذه– أن يتمتعوا هناك بهذه الطيبات، وربما كانوا يحصلون عليها بالسرقات، ولكنهم بعد خروجهم من مصر وجدوا الرزق الحلال الوفير.

أما قوله تعالى ﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ﴾ فالمراد من العلم هنا القرآن وليس التوراة، إذ لم يكن هناك بين نـــزول التوراة وتشكيل أمة بني إسرائيل فاصل زمني يمكن أن يختلفوا فيه.

ولا تعني الآية بلوم اليهود على الاختلاف أن تفسير الوحي الإلهي بأكثر من معنى أمرٌ محظور، لأن هذا الزعم يتنافى مع ما ورد في القرآن نفسه في مواضع أخرى، وإنما المراد من الاختلاف هنا اختلافهم في شأن النبي ﷺ. لقد كان بنو إسرائيل كلهم متفقين على أن نبيًا عظيمًا سوف يُبعث لهم، فلما جاءهم اختلفوا في أمره وكفروا به. وذلك كما يفعل المسلمون اليوم، إذ إنهم كانوا جميعًا يؤمنون بمجيء المسيح الموعود عليه السلام لإصلاح الأمة الإسلامية، وكانوا يصدّقون كل الأنباء المتعلقة بظهوره الواردة في القرآن الكريم والحديث الشريف، فلما جاءهم هذا الموعود كفروا به، بل قالوا بأن الأنباء التي تذكر ظهوره زائفة وبأنها روايات موضوعة.

وبالاختصار فإن المراد من اختلاف بني إسرائيل هنا هو اختلافهم حول تحقق الأنباء الخاصة بالنبي الموعود لهم. فما زالوا يؤمنون بها إلى أن ظهر النبي المصدِّق لما معهم من أنباء، فمنهم من اختلف في تلك الأنباء ومنهم من كفر بها نهائيًا.

ومما يدلّ على أن الاختلاف هنا يعني اختلافهم في القرآن الكريم لا في التوراة قول الله في الآية التالية ﴿فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْـزَلْنَا إِلَيْكَ..﴾ أي: أيها المخاطَب بالقرآن، إذا كنت تشك في أمره فاسألْ هؤلاء القوم. وفعلاً كان اليهود ينتظرون بعثة نبي مثيل لموسى في العرب بفارغ الصبر، حتى إنّ كتب التاريخ لتشهد على أن بعضهم جاءوا واستوطنوا المدينة، ليكونوا أول المؤمنين به. فلما جاءهم صاروا له ﷺ ألدّ الأعداء. (السيرة لابن هشام ج ١ بدءُ إسلام الأنصار).

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٥﴾

التفسير: لا تعني الآية أن القرآن الكريم يولّد الشكوك في القلوب، وإنما المقصود ما يردده الكفار من اعتراض، إذ زعموا بأن القرآن يوقعهم في الشُبُهات. فردّ الله عليهم قائلاً: أيها المعترض، إذا كان هذا الكلام يسبّب الشكوك في قلبك -كما تزعم- فاسأل الذين قرءوه وانتفعوا به، لتعرف أنه يطهر القلوب وينير الباطن ويهب اليقين.

كما تبين الآية بكل وضوح وجلاء أن الكتاب السماوي وحده لا يكفي لهداية الناس، بل لا بد من معلّم يعلّمهم إياه، لأن معرفة العلوم الروحانية تتطلب تجربة روحانية ولو قليلة. فإذا درس الإنسان كتابًا سماويًا يجب أن لا يبتّ بنفسه في الأمور التي يساوره الشك فيها، بل عليه أن يستشير فيها أولي العلم بهذا الكتاب، لأنه إذا كان هذا كلامًا إلهيًا في الحقيقة فلا بد أن تنكشف مفاهيمه وفق ما يتمتع به القارئ من روحانية وقربٍ لدى الله ﷻ.

لقد ظنّ البعض خطأً أن ضمير الخطاب هنا يرجع إلى الرسول ﷺ وأصحابه، وأنهم هم الذين شكوا في الوحي القرآني، فأمرهم الله أن يسألوا في شأنه اليهود والنصارى. ولكنه من المستحيل أن يكون هذا الكلام موجَّهًا إلى الرسول ﷺ، لأن الذي يتلقى وحي الله تعالى لا يمكن أن يَشُكّ في صحته. فلا جرم أن الخطاب هنا أيضًا موجه إلى الذين اختلفوا فيه. وقد سبق أن أَثبتُّ خطأ هذا الزعم بالبراهين، لأن الله تعالى قد أكّد إيمانهم القوي بصدق القرآن في موضع آخر بقوله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٩). وبديهي أن المقتنع بالشيء على وجه البصيرة والخبرة لا يمكن أن يساوره الشك فيه.

كما أن الآية التالية أيضًا تدحض هذا الزعم الفاسد كليةً.

وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

كلمات: الكَلِمة والكِلْمة: اللفظةُ؛ وكلُّ ما ينطق به الإنسان مفردًا كان أو مركبًا. وتُطلقَ الكلمة على الخطبة والقصيدة. والعشرُ كلماتٍ: وصايا الله العشر. (الأقرب).

التفسير: الكلمة هنا تعني الوعيد بالعذاب، والمراد من الآية أن الذين استوجبوا الإنذار بالعذاب ثم لم يسعوا للنجاة منه فإنهم لن يؤمنوا أبدًا. والآية تؤكد أنه كلما يخبر القرآن الكريم أن الكفار لن يؤمنوا فإنما يريد به فقط الكفار الذين لا ينتفعون من الإنذار، وليس جميع الكفار.

وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٩٨﴾

التفسير: تصرح الآية أن الذين لا يريدون الانتفاع بالحق الذي ينـــزل على رسل الله ﷺ لا تنفعهم الآيات النازلة من عند الله شيئًا، بل إنّ كبرى المعجزات تصبح في نظرهم خدعةً وشعوذة. إذن، فلا عبرة ولا قيمة لما يردّده أعداء أي نبي من أنه لم يُرهم آية ولا معجزة، وإلا لكانوا قد آمنوا به، وإن كان هؤلاء المعارضون جهابذة ونوابغ في العلوم. بل يجب على كل إنسان أن يتخذ بنفسه القرار في أمر النبي بعد التدبر الكافي في أمره، وبعد قياسه على سنة الأنبياء الآخرين وأحوالهم، حتى لا يُحرَم من قبول الحق.

فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

قرية: القرية: المِصْـــرُ الجامع؛ وقيل: كل مكانٍ اتصلت به الأبنية واتُّخذ قرارًا؛ جمعُ الناس (الأقرب).

الخزي: الهوانُ؛ العقابُ؛ البعدُ؛ الندامةُ: وأصلُ الخزي ذُلٌّ يُستحيا منه (الأقرب).

حين: الحين: وقتٌ مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر. وقيل: الدهرُ؛ المدةُ (الأقرب).

التفسير: إن الآية تحتوي على الكثير مما يساعد الإنسانَ المتدبر المتفكر على إدراك عظمة رحمة الله الواسعة. ما أشدَّ كلماتِها دلالةً على الرغبة الإلهية الملحّة في أن تؤمن

الدنيا كلها، وكم تنمّ ألفاظها عن الأسف البالغ لعدم وجود أمم أخرى كقوم يونس عليه السلام، الذين عندما جاءهم العذاب تابوا كلهم توبةً صادقة نصوحًا لدرجة أن الله تفضَّلَ بقبولها ونجّاهم من العذاب المحقّق.

وقد حدث هذا أيضًا مع النبي الكريم ﷺ، حيث دخل قومه جميعا في طاعته يوم فتح مكة، فنجوا من العذاب، ثم آمنوا به حقًا، فأصبحوا ورثةً لأفضال الله ونعمه، وهكذا تمت مماثلة النبي الكريم بيونس عليهما السلام.

كان يونس نبيًا من أنبياء الله العظام عليهم السلام، وقد أكد القرآن الكريم في خمسة أماكن فيه بأن يونس نبيٌ مرسل من عند الله تعالى، وهي: سور النساء (الآية: ١٦٤) والأنعام (الآية: ٨٧) والصافات (الآية: ١٤٠) والأنبياء (الآية: ٨٨) والقلم (الآية: ٤٩)، وقد ذُكر في السورتين الأخيرتين باسم (صاحب الحوت) و(ذا النون) لحادثته مع الحوت.

كما تذكر ذلك الأحاديثُ النبوية الشريفة، فقال النبي ﷺ: (ما ينبغي لأحد أن يقول إني خير من يونس بن متى) (البخاري، الأنبياء). ولا يظنّن أحد بذلك أنه ﷺ لم يكن بأفضل من يونس عليه السلام، وإنما سبب قوله هذا-كما ذكر الشارحون أيضًا- أن النبي لم يكن قد أُخبر عندئذ بفضله على سائر الأنبياء عليهم السلام، وبعد أن أخبره الله بذلك أعلن: "أنا سيد وُلْدِ آدم ولا فخر" (ابن ماجه، الزهد).

وأرى أن ما قاله النبي ﷺ في الحديث الأول يرجع إلى سبب آخر أيضًا ذي صلة بموضوع هذه الآية بالذات، فإنه لا يتحدث هنا عن أفضلية كلية ليونس عليه السلام وإنما يشير إلى أفضيلته الجزئية المذكورة في الآية، حيث كان يونس الوحيد بين سائر الأنبياء الذي آمن به قومه جميعًا عند رؤية آثار العذاب، بينما لم يتيسّر ذلك لأي نبي آخر إلى ذلك الوقت، ولذلك لم يرَ النبي ﷺ من المناسب أن يفضّل نفسه على يونس، وإنْ كانت الأحداث قد أكدت فيما بعد تشابُهًا بينهما في هذه الخصوصية، حيث تاب

قومه على يده لدى فتح مكة وآمنوا به جميعًا، فنجوا من العذاب كما حدث بقوم يونس عليهما السلام.

لقد وُلد يونس في غاث هابر (Gath Happer) بمحافظة زيبون في زمن الملك يربعام الذي كان حكمه ما بين ٧٨١ إلى ٧٤١ قبل الميلاد (الموسوعة التوراتية لِوستمنستر كلمة Jonah). وقد جاء ذكر هذا الملك في التوراة (سفر الملوك الثاني: ١٤).

هناك كتاب باسم يونان في التوراة. ولكن الباحثين مختلفون فيما إذا كان يونان الذي بشّر في نبوءته بتحرر بني إسرائيل من رِبقة الأُورميين، هو نفس صاحب هذا الكتاب أم هو شخص آخر؟

لقد سردت التوراة أحداث النبي يونان كالآتي: أمر الرب يونان قائلاً: قُم، اذهبْ إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ عليها، لأنه قد عظم شرها. فخاف يونان أن يتوب أهلها وينجوا من العذاب الذي أنذرهم به، فبدلاً من أن يتجه إلى نينوى هرب إلى يافا، وركب من هناك سفينة ذاهبة إلى ترشيش. ولكن حاصرت رياح شديدة السفينةَ فجأةً. فخاف الملاّحون وصرخوا أمام آلهتهم بدون جدوى. وأخيرًا ألقوا القرعة ليعرفوا من هو السبب في هذه البلبلة. فوقعت القرعة على يونان. فسألوه عن حاله، فقال: لقد فررتُ من طاعة أوامر ربي، فَاطْرَحوني في البحر، فيسكن البحر عنكم. فطرحوه فيه، فتوقف عن هيجانه. وأمر الرب حوتًا عظيمًا ليبتلعه، فكان في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وأمر الرب الحوت فقذفه إلى البر. ولما استرد صحته قام وذهب إلى نينوى، وأنذر أهلها بأنهم سيصيبهم الدمار بعد أربعين يومًا. فتاب أهلها عن المعاصي وآمنوا، فرفع الله عنهم العذاب. فشق ذلك على يونان فخرج إلى البرية. فأنبت الله هناك يقطينةً فارتاح إليها يونان. ثم أرسل الله دودةً، فأكلت الشجرة فيبست. فتأذى يونان من حرارة الشمس وتضايق. فأوحى الله إليه: أنت أشفقتَ على

اليقطينة التي لم تتعب في إنباتها، أفلا أشفق أنا على عبادي الذين يبلغون عشرات الآلاف وقد خلقتُهم. (ملخص من سِفر يونان).

يبدو من دراسة القرآن الكريم أن بيان التوراة هذا ليس بصحيح مائة بالمائة، وأن القرآن يرفضه لعدة وجوه منها:

أولاً: إن القرآن ينفي بكل شدة وصرامة أن يخالف نبي من أنبياء الله تعالى صريحَ الوحي، وإلا لرُفع الأمان كليةً. والله تعالى يعلن في القرآن الكريم صراحةً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (النساء: ٦٥)، ويأمر نبيه ﷺ بإتباع الرسل قائلاً ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩١).. أي على الإنسان أن يقتدي بهدي الرسل كافة، وأن يسعى لتكون أعماله مصطبغة بنفس الصبغة والروح المتجلية في أعمالهم. فلو كان الأنبياء أنفسهم مصابين -والعياذ بالله- بهذه الأمراض الخطيرة ويعصون أوامر الله فكيف يأمرنا بإتباعهم؟

ثانيًا: يبدو من بيان القرآن أن يونس عليه السلام أُرسل إلى قومه، ولكن يبدو من الروايات اليهودية أنه كان يهودي الأصل، ولكنه بُعث إلى أمة غير يهودية، هم الأشوريون أهل نينوى التي كانت حينئذٍ عاصمة المملكة الأشورية. مع العلم أن أشور هذه ليست بسورية إنما هي دولة أخرى كانت حدودها الجنوبية تبدأ من شمال مدينة بابل حتى تخوم أرمينيا شمالاً، وتصل إلى الكردستان شرقًا وإلى الشاطئ الغربي لدجلة غربًا. وكأنها كانت منطقة واقعة في جزء غربي من العراق الحالي. لقد كانت للأشوريين في وقت من الأوقات مملكة قوية كانت عاصمتها أشور التي كانت تقع على بعد ستين ميلاً من الموصل والتي تسمّى اليوم قلعات شرجِت، ولكنهم نقلوا العاصمة فيما بعد من أشور إلى نينوى بحوالي ثلاثة عشر قرنًا قبل الميلاد (الموسوعة اليهودية، كلمة Nineveh).

وباختصار فإنه وفق بيان القرآن لم يكن يونس عليه السلام من بني إسرائيل، أو إذ كان منهم فإنه لم يبعث إلى نينوى، بل إلى قبيلة من القبائل الإسرائيلية. ولقد تضاربت آراء المستشرقين أيضًا فيما إذا كان حضرته إسرائيليًا أم لا؟

ويستطيع كل عاقل أن يدرك بأدنى تدبر أن موقف القرآن الكريم في الأمرين كليهما أقرب إلى العقل والمنطق، على عكس ما تذكره التوراة.

وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾

التفسير: لقد قال الله تعالى من قبل ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ...إلخ﴾. وكأنه كان عبّر عن رغبته الشديدة في أن يؤمن الناس جميعًا. فنشأ من ذلك سؤال: لماذا لا يحقق الله رغبته هذه وهو القادر المطلق القدرة، ولماذا لا يجعل الجميع مؤمنين؟ فردّ الله هنا على ذلك ردًّا لطيفًا رائعًا وقال ﴿لَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ.. إلخ﴾.. أي لو كنا نريد تنفيذ أمنيتنا بالإكراه لما فرّقنا بين قوم وآخر، بل لجعلنا كل العالم مؤمنين، ولكنّنا لا نريد ذلك، لأننا تركنا أمر الإيمان لخيار الإنسان نفسه، وإن كان بودّنا أن يهتدي الجميع، ويحظوا بالدرجات العلى من قربنا.

أما قوله تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيمكن تفسيره بطريقين:

الأول: أن يكون دليلاً على ما قيل في الجملة السابقة، والمراد: أنه من المستحيل أن يُكرَه الناس على الإيمان، إذ لا جدوى في ذلك، ولأن العاقل لا يُقنع أحدًا بالإكراه. فهل تحب يا محمد، إكراه الناس على الإيمان، وما دمت لا تحب ذلك فكيف يمكن لله العالِم بذات الصدور أن يجعل الناس مؤمنين قسرًا.

والثاني: أن يكون الكلام موجّهًا إلى كل مسلم وليس إلى النبي ﷺ، والمراد: لا تغضبوا أبدًا من كفر الناس فتلجئوا إلى إكراههم على الإيمان، بل تذكروا دائمًا أنه ما دام الله الذي هو مالك العباد وخالقهم لا يُكرههم عليه فكيف يحق لكم ذلك؟

وبأي من المعنيين أخذنا فإن الآية تُنكر بكل قوة وشدة نشرَ الإسلام باستخدام العنف والإكراه، وتهدم مزاعم الذين يقولون بأن الإسلام يجيز الإكراه في الدين.

كما يمكن أن نستنتج من الآية أنه من المحال أن يكون المسلمون الأوائل قد مارسوا الإكراه في نشر الإسلام، لأنهم كانوا عاملين بأحكام القرآن الكريم بكل حرص وحذر، فكيف يستساغ أن يكون هؤلاء الذين كانوا يُنهَون عن الإكراه في الدين حينما كانوا محرومين من الحكم بل حتى عندما كانوا هدفًا للاضطهاد والتعذيب في مكة.. أقول كيف يمكن أن يكونوا قد بدءوا في قهر الناس على قبول الإسلام بمجرد أن أخذوا زمام الحكم!

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

شرح الكلمات:

إذن: أَذِن بالشيء إذنًا: عَلِمَ به. وأذن له في الشيء: أباحَه له. والإذن: الإجازةُ؛ الإرادةُ؛ العلمُ. (الأقرب).

الرِجس: القَذَرُ؛ المأثمُ؛ العملُ المؤدي إلى العذاب؛ الشكُّ؛ العقابُ؛ الغضبُ (الأقرب).

التفسير: إن للآية مدلولين: الأول: إنها تسوق الأدلة على عدم جواز الإكراه في الدين حيث يقول الله إنه من المستحيل أن تؤمن نفس بشيء إيمانًا حقيقيًا بدون الإذن من عنده ﷻ، أي أن اليقين إنما يتولد في القلب بحسب نواميس حدّدها الله تعالى، وليس بمجرد الإقرار باللسان، فلا تستطيعون بالإكراه إقناع أحد. ثم الذين يقبلون الشيء دون تعقل ووعي لا ينفعهم إيمانهم شيئًا، بل يرتد عليهم وبالاً وبلاءً من عند الله سبحانه وتعالى، فلا جدوى في إكراه الناس.

وإذن فما أشدّهم غباءً وحمقًا أولئك الذين يرمون القرآن الكريم بأنه يعلّم الجبر والإكراه في الدين رغم وجود تعاليمه الواضحة الصريحة هذه. كلا، بل إن القرآن الكريم يحارب ويبطل نظرية الجبر بأدلة دامغة.

كما أنه لا شك في جهل أولئك الذين يقولون بنسخ هذا الحكم القرآني، إذ لا يدركون أن البراهين الحقة لا تبلى ولا تلغى أبدًا. إن صحة وصدق هذه البراهين القرآنية الرافضة لنظرية الجبر لم يزل أمرًا ثابتًا متحققًا في كل عصر، فما معنى إلغائها ونسخها إذن؟

والمعنى الثاني للآية أنه قد قيل من قبل ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وكان من الممكن أن يُقال بأنه إذا كان الله لا يُكره ولا يُجبر أحدًا على الإيمان فلماذا ينـــزل أحكامه وشرائعه للعباد بواسطة رسله، ولماذا يبشرهم وينذرهم، فهذا أيضًا نوع من الإكراه؟ فالآية تمثل ردًّا على هذا المعترض حيث يقول الله تعالى إن تبليغَنا الناسَ طريقَ الهدى بواسطة الأنبياء وتقويتَنا إيمانَ المؤمنين من خلال آياتنا البينات ليس بإكراه، بل هو السبيل الوحيد لخلق الإيمان في القلوب، إذ كيف يمكن للعباد أن يصلوا إلى خالقهم إن لم يدلّهم على الطريق الذي يُكسبهم قربَه ورضوانه؟ فلو لم يفعل الله ذلك لما استطاع العباد أن يهتدوا إليه. إذا اخترنا هذا المعنى للآية فتكون كلمة (الإِذْن) بمعنى الإرادة.. أي لو لم يُرد الله ﷻ أن يهيئ الأسباب لهداية الإنسان لما استطاع الإنسان أن يهتدي.

وأما قوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ فمعناه: أن الذين لا يستخدمون عقولهم ولا يريدون العمل وفق مشيئتنا هذه، لا نكرههم عليها، وإنما نرتب النتائج بحسب أعمالهم، وبما أنهم يميلون إلى السيئة فتكون عاقبة أعمالهم أيضًا سيّئة. أو أنّه يعني بأنّ الذين لا ينتفعون بما وهبنا لهم من عقول فإنما هم الذين نَذَرُهم يسقطون في وحل السيئات والأرجاس، وأما غيرهم فلا.

قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾

شرح الكلمات:

تُغني: يقال: ما يغني عنك هذا: أي ما يُجدي عنك (الأقرب).

النُذر: جمع نذير وهو الذي يُنذر وينبه (الأقرب).

التفسير: أي أن أسباب انتصار محمد رسول الله ﷺ تتهيأ في السماوات والأرض، فلا داعي للجبر والإكراه. والمراد من النظر إلى السماوات والأرض هو النظر إلى ما يقع فيهما من آيات وآثار دالة على صدقه ﷺ، ولذلك قال في آخر الآية: بأن الذي لا يريد أن يؤمن عنادًا واستكبارًا لا تنفعه الآيات ولا المعجزات أيضًا.

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إلا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٣﴾

شرح الكلمات:

أيام: أيام الله: نِعَمُهُ ونِقَمُه، وعليه في القرآن ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ﴾.. أي ذكّرهم بنِعَمِه ونِقَمِه. وفي الأساس للزمخشري معناه: ذَكِّرْهم بدمادمه على الكَفَرة. ويقال: هو عالم بأيام العرب: أي بوقائعها (الأقرب). وبما أن الحديث هنا عن الكفار فنأخذ الأيام هنا بمعنى النقم، والمراد أنهم لا ينتظرون إلا أن يصيبهم الله بأنواع العذاب كما أصاب به الذين خَلَوا من قبلهم.

التفسير: أي أن الذين لا يؤمنون عنادًا وتعنتًا فسوف يحل بهم العذاب في آخر الأمر، فلا حاجة بهم الآن ليطالبوا به، لأنه قادم عليهم في موعده لا محالة.

الغريب أن الكفار الذين يتمتعون بالسلطة وينهمكون في تعذيب المؤمنين يبدون قلقهم على تأخّر العذاب بينما لا يريد هؤلاء المضطهدون أن يتعجل الله بالعذاب عليهم، ولذلك نجد الله تعالى يأمر رسوله أن يقول لهم: انظروا إليّ أيضًا، فإنّي أنتظر نـــزول العذاب عليكم ولكن دونما قلق على تأخره، مع أنني عرضة لتعذيبكم، فلماذا أنتم قلقون على تأخر نـــزول العذاب عليكم، وأنتم تَنعَمون بالراحة والسؤدد، واعتداءاتكم علينا لا تنقطع.

هناك من جماعتنا من يقولون: إن الناس لا يستمعون إلينا، فمن ذا الذي نبشّره بالدعوة الأحمدية؟ فأجيبهم أن يتذكروا قول الله تعالى هذا للنبي ﷺ، حيث يأمره أن يُعلن للقوم قائلاً: إنني لن أبرح اللحاق بكم وتبليغ الرسالة إليكم وإن لم تستمعوا لقولي ومهما أعرضتم عني.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

التفسير: كان الحديث هنا عن محمد رسول الله ﷺ وحده، ولكنه يقول هنا ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ مستخدما صيغة الجمع ﴿رُسُلَنَا﴾، وذلك للأسباب التالية:

١. كل نبي يكون في الحقيقة ممثلاً للأنبياء كافة، فكأن نجاته تكون بمثابة نجاة جميع الرسل، أما إن هلك وخسر -والعياذ بالله- لاشتبه على الناس صدقهم جميعًا.

٢. فيه إشارة إلى بعث رسل في الأمة الإسلامية في المستقبل، وبأنهم سيكونون من أبناء الأمة نفسها وتابعين للرسول ﷺ، لأن الله تعالى قد استخدم في الجملة التالية كلمة ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بدلاً من ﴿رُسُلَنَا﴾ وقال: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، مبينًا أن هؤلاء المبعوثين سيكونون رسلاً من ناحية، ومؤمنين بالرسول ﷺ ومن أمته، من ناحية أخرى.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

يتوفّاكم: من الوفاة وهي الموت. توفّى الله زيدًا: قبض روحه. وتُوفيّ فلان مجهولاً: قُبضت روحه ومات، فالله المتوفِّي والعبد المتوفَّى. وأوفى فلانًا حقّه ووفّاه ووافاه: أعطاه إياه وافيًا تامًا. واستوفى حقه: أخذه وافيًا (الأقرب والقاموس المحيط).

التفسير: إن فعل التوفّي (من باب التفعّل) لا يعني إلا قبض الروح والموت إذا كان الفاعل هو الله سبحانه وتعالى والمفعول به أحدًا من ذوي الأرواح. ولا يستطيع أحد تقديم أي نظير خلاف ذلك من التراث العربي كلّه، لا من قاموسٍ ولا قول شاعرٍ ولا عبارة كاتب ولا كلمة خطيبٍ. ولا يراد بالتوفّي إيفاء الحق أو استيفاؤه ولا توفيته إلا إذا كان هناك ذكرٌ للحق.

اعلم أن المؤمن لغةً هو من يأمَنُ منه الناس ويهيئ هو الأمنَ للآخرين. والمؤمنُ كذلك من يكون في مأمن، ذلك أنه يتوكّل على الله كليةً فيصير في مأمن من عقابه.

لقد أمر الله هنا رسوله أن يقول للكفار: كيف تدّعون أن الشكوك تساوركم حول ديني، مع أنني لا أزال على نفس الدين الذي كنت عليه من قبل، ولا أنفكّ كارهًا ومتبرئًا من الشرك كما كنت في الماضي. و لم أزدَدْ في ديني هذا إلا إيمانًا ويقينًا.

أما قوله ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ فأشار به إلى أن الإله الذي أنا أومن به هو في صدد هلاككم وكسر شوكتكم ليُتمّ بذلك الحجة عليكم.

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

شرح الكلمات:

أَقِمْ: أقام الشيءَ: أدامه. (الأقرب)

وجهك: الوجهُ: المُحيّا؛ نفسُ الشيء؛ سيدُ القوم؛ الجاهُ؛ الجهةُ؛ القصدُ والنية؛ المرضاةُ (الأقرب). يقال: أريد وجهك: أي رضاك.

حنيفًا: الحنيف: الصحيحُ الميلِ إلى الإسلام الثابتُ عليه؛ وكلُّ من كان على دين إبراهيم؛ المستقيم (الأقرب) يبدو أن هذا المعنى الأخير جاء بتأثير من التفاسير القرآنية، وأن المعنى الثاني (أي المستقيم) هو المعنى الحقيقي للكلمة.

التفسير: قوله تعالى ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا يعني أن لا تعبد الأصنام أو لا تتخذ مع الله ولدًا، إذ لا داعي لمثل هذا النصح لمن قد صار حنيفًا من قبل، وإنما المراد منه أن لا تتجه إلى ما سوى الله مطلقًا، وإلا سوف تُعدّ بهذا الخطأ البسيط في الظاهر من المشركين. وكأنما الله قد أشار بذلك إلى الأصناف الدقيقة للشرك، محذّرًا إيانا من الوقوع فيها.

وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾

التفسير: ليس المراد من الآية أن لا تدعُ الأشياءَ التي لا نفع فيها أو لا ضرر، بل الآية تؤكد على أن كل شيء ما خلا اللهَ لا يملك في حد ذاته نفعًا ولا ضرًّا، فلا تتوكل على ما سوى الله جلّ شأنه.

و"الظالم" يعني هنا المشرك. وقد ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ سُئل مرةً عن الظلم فقال: الظلم يعني الشركَ أيضًا (البخاري، التفسير، الأنعام).

وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٨﴾

التفسير: لقد صرّح الله هنا أن القرآن الكريم ليس بمسئول عمّا ينشأ في قلوب الكافرين من شبهات وشكوك، وإلا لوجب أن تتولد هذه الشكوك في قلبي أنا قبل أي شخص آخر، لأنني أنا الذي نـــزل عليه القرآن. ولكني ثابت على صخرة من اليقين، وقد جعلني هذا القرآن محبًّا كاملاً لله تعالى، وزاد عقلي فراسةً وأفكاري استنارةً، وأزال عن عيني كل غطاء لما سوى الله، وكأن كل ما دونه قد غاب عن أنظاري فيما يتعلق بنفعي وضرّي. إن تأثيره المذهل هذا يؤكد بطلان زعمكم، وأنَّ كل ما عندكم من رجس الشكوك إنما هو وليد أفكاركم المريضة.

ثم أتبعه بقوله ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا جرم أن قلوبكم قد فسدت، غير أنني أؤكد لكم أنكم لو تضرعتم إلى الله طالبين غفرانه فسوف يطهر قلوبكم ويزيل عنها كل رجس وفساد، ويهب لكم اليقين كما وَهَبَه لي أنا.

وكما بيّن في الآية فإن كلاً من الخير والشر نوعان؛ نوع لا يقع بقدرٍ خاص من عند الله تعالى، وإنما يقع طبقًا لقدره العام المتمثل في النواميس الطبيعية التي وضعها في الكون، وهذا النوع من الخير أو الشر يمكن حصوله أو زواله وفق مساعي الإنسان. ولكن هناك نوعًا آخر ينـــزل بقدر إلهي خاص ولا دخل فيه للأسباب المادية والأعمال الإنسانية، وإنما تكون وراءه التدابير السماوية، ويتوقف حصوله أو زواله على المشيئة الإلهية فقط لا على التدابير البشرية.

ولقد أشار الله ﷻ بتوجيه الخطاب هنا إلى الرسول ﷺ إلى أنه تعالى سوف يعامله وفق قدر خاص غير عادي، فلا يتم نجاحُهُ ولا تظهر غلبته نتيجة تدابير البشر بل بتدابير سماوية لا يستطيع أحد الحيلولة دونها. وباستطاعة كل لبيب أن يدرك بالنظر في

حياة النبي ﷺ أن كافة إنجازاته تمت بفضلٍ من الله تعالى وبقدر خاص من لدُنه جلّ وعلا، ولذلك نجد أن مكائد أعدائه قد فشلت أمام تدابير الله فشلاً ذريعًا، رغم كونهم أشدَّ من النبي مكرًا وكيدًا في الظاهر.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ

١٠٩

شرح الكلمات:

وكيل: الوكيل: فعيلٌ بمعنى مفعول لأنه موكول إليه، وقد يكون للجمع والأنثى؛ ويكون بمعنى فاعل إذا كان بمعنى الحافظ، ووُصف به الله تعالى وقيل: الكافي الرازق (الأقرب).

التفسير: أي أن هدايتكم أو ضلالكم لن يجلب علي أي نفع أو ضرر، لأنني لست مسئولاً عنكم، ولو أنني كنت كذلك لكانت مسؤولية ضلالتكم عليّ دون شك ولعاقبني الله ﷻ؛ إذ لم أُجْبِرْكم على الهدى وأنتم تَضِلّون. إنما أنا رسولٌ وما على الرسول إلا البلاغ.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

١١٠

شرح الكلمات:

اصبرْ: صبرَ فلانًا عن الأمر: حَبَسَه عنه. وصبرتُ نفسي على كذا: حبستُها، يُقال: صبرتُ على ما أكره وصبرت عما أحب (الأقرب).

التفسير: هنا في آخر السورة وجّه الله الأنظار إلى نفس الموضوع الذي بيّنه في مستهلها، وقال: إن أمر الله مفعول لا محالة، وكما أنه حكيم فهو حاكم كذلك. فما عليك أيها الرسول إلا أن تستمر في تبليغ رسالة ربك، وأن تتحمّل في سبيل ذلك أذاهم غير مكترثٍ به إلى أن يُصدرَ الله فيهم قضاءَه.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإشارة إلى أن قضاءه -جلّ شأنه- سيكون خيرًا لك. وبالفعل فقد أنـــزل الله قضاءه الذي وقف حيالَه العالَمُ مبهورًا مبهوتًا، حيث أصبح المتعطشون لدم النبي ﷺ عاشقين له، وَلِهين به، يفدونه بأرواحهم. لقد آمنتْ به مكة كلها فجأةً كما فَعَلَ قوم يونس عليه السلام، وتوافد عليه القوم أفواجًا، يدخلون في دينه وينضمون تحت لوائه ﷺ.